المكتبة الرقمية العربية

فلاديمير نابوكوف

نار شاحبة

ترجمة:

محمد جليد

منشورات الجمل

رواية

فلاديمير نابوكوف

نار شاحبة

رواية

ترجمة: محمد جليد

منشورات الجمل

«المكتبة الرقمية العربية»

إلى «فيرا»

يذكرني هذا بالتقرير المضحك الذي سلّمه للسيد :«لانغستون»، عن الحالة المزرية لنبيل شاب من أسرة كريمة. «سيدي، عندما سمعت عنه آخر مرة، كان يطوف بين أرجاء البلدة، يعدم القطط رميا بالرصاص.» ثم تذكر قطّه المفضل، فيما يشبه حلم يقظة، وقال: «لكن «هودج» لا ينبغي أن يقتل؛ لا، لا. يجب ألا يقتل «هودج».

«جيمس بوسويل»، حياة صامويل جونسون

توطئة

نار شاحبة قصيدة ذات مقاطع ملحمية ثنائية، تقع في تسعمائة وتسعة وتسعين بيتاً، وهي مقسمة إلى أربع قطع، ألّفها «جون فرنسيس شايد» (الذي رأى النور يوم خامس يوليوز ١٨٩٨، وتوفي يوم ٢١ يوليوز ١٩٥٩) خلال الأيام العشرين الأخيرة من حياته، ببيته في «نيوواي»، بـ«أبالاتشيا» بالولايات المتحدة الأمريكية. إذ يتألف المخطوط، ومعظمه نسخة منقحة استُنْسِخ منها هذا النص بأمانة، من ثمانين جذاذة مفهرسة متوسطة الحجم، احتفظ «شايد» في أعلى كل واحدة منها بالخط الفوقي الوردي لتسجيل بعض رؤوس الأقلام (رقم القطعة، التاريخ) واستخدم الخطوط الزرقاء الفاتحة الأربعة عشر ليحرر نصَّ قصيدته، بريشة حادة وخط رقيق وأنيق وواضح بشكل لافت للنظر، تاركاً سطراً فارغاً بغية إظهار بياض مضاعف بين الأبيات، مستعملاً جذاذة جديدة على الدوام ليستهل قطعة جديدة.

تشغل القطعة القصيرة (١٦٦ بيتاً) الأولى، بكل ما تحتويه من تلك الطيور المدهشة والشموس الكاذبة، ثلاث عشرة جذاذة. وتبدو القطعة الثانية، الأثيرة عندك، والقطعة الثالثة، تلك الدالة على البراعة والألمعية بوقعها الصادم، متماثلتين من حيث الطول (٣٣٤ بيتاً)، وتغطي كل واحدة منهما سبعاً وعشرين جذاذة. وتؤول القطعة الرابعة إلى الأولى، لتعتمد طولها، فتشغل مجددا ثلاث عشرة جذاذة، حيث تقدم الأربع الأخيرة منها، تلك التي استعمل يوم وفاته، نسخة مصححة بدل نسخة خالية من الأخطاء.

اعتاد «جون شايد»، وهو رجل منهجي، أن ينسخ حصته اليومية من الأبيات التامّة عند انتصاف الليل، لكن وإن نسخها ثانية في وقت لاحق، إذ يخامرني شك أنه فعل ذلك أحياناً، فإنه وسم جذاذته أو جذاذاته، لا بتاريخ تعديلاته النهائية، وإنما بتاريخ مسودته المصححة أو النسخة الصحيحة الأولى. أعني أنه احتفظ بتاريخ الإبداع الفعلي بدل تاريخ الأفكار الثانية أو الثالثة. ثمة منتزه ترفيهي صاخب أمام بيتي الحالي مباشرة.

نملك في النهاية رزنامة كاملة لعمله. إذ بدأ القطعة الأولى في الساعات الأولى من صباح يوم ثاني يوليوز، وأنهاها يوم الرابع منه. وشرع في القطعة الموالية يوم عيد ميلاده، وأكملها يوم ١١ يوليوز. وكرس أسبوعاً آخر للقطعة الثالثة. وانطلق في القطعة الرابعة يوم ١٩ يوليوز، وتمدنا النسخة المصححة، كما سبقت الإشارة، بالثلث الأخير من نصها (الأبيات ٩٤٩ ــ ٩٩٩). يبدو هذا الثلث من حيث المظهر غير مهذّب إلى حد كبير، حيث يعج بحالات محو أشعى وحشو فادح، ولا يقتفي نهج أبيات القطعة بصورة صارمة كما في النسخة المنقحة. في الواقع، يظهر في النهاية أنه دقيق على نحو جميل ما إن تغوص فيه وتجبر نفسك على أن تفتح عينيك على الأغوار الشفافة تحت سطحه المضطرب. إذ لا يحتوي على أي بيت به ثغرة، أو قراءة مبهمة. تكفي هذه الحقيقة لتبيان أن الاتهامات الواردة (يوم ٢٤ يوليوز ١٩٥٩) في حوار صحافي مع واحد من «شايديينا»

المدّعين ـــ الذي أكد دون أن يطلع على مخطوط القصيدة أنها «تتألف من مسودات، لا تفضي أي واحدة منها إلى نص تام» ـــ هي تلفيقات خبيثة من أولئك الذين لا يأملون كثيراً في أن يستنكروا الحالة التي أوقف بها الموتُ عملَ شاعر عظيم، بل أن يطعنوا في كفاءة محققها الحالي وشارحها، وربما في نزاهته.

يشير تصريح آخر أدلى به الأستاذ «هورلي» وعصبته علنا إلى مسألة بنيوية. أقتبس من الحوار ذاته: «لا أحد بمقدوره التنبؤ بمدى الطول الذي خططه «جون شايد» لقصيدته، لكن من المرجح أن ما خلفه يمثل جزءاً صغيراً فقط من التأليف الذي رأى انعكاسه في المرآة على نحو غامض.» سفاسف مرة ثانية! عدا الجهر الصادق بالحجة الداخلية الداوية عبر القطعة الرابعة، تجزم «سيبيل شايد»، في تأكيد لها (ورد في وثيقة بتاريخ ٢٥ يوليوز ١٩٥٩)، أن زوجها «لم يعتزم أبداً أن يتخطى أربعة أجزاء.» إذ مثلت القطعة الثالثة، في نظره، الجزء ما قبل الأخير، ومن هنا سمعته بنفسي يتحدث عن ذلك، أثناء نزهة قبيل الغروب، عندما بدا كأنه يفكر بصوت مرتفع، وأخذ يراجع عمل ذلك اليوم ويومئ إلى رضا ذاتي يستحق الصفح، بينما رفيقته الكتوم ظلت تحاول عبثاً أن تضبط خطوات مشيتها المتأرجحة بساقيها الطويلتين مع مشية الشاعر الشيخ الأشعث الذي يجر قدميه المتشنجتين. كلا، بل سأؤكد (بما أن ظلالنا مازالت تسير من دوننا) أنه لم يبقَ سوى كتابة بيت واحد من القصيدة (أي البيت الألف)، من شأنه أن يماثل البيت الأول ويتمم تماثل البنية، إلى جانب جزأيه المركزيين المتماثلين، المتينين والمسهبين، اللذين يشكلان مع الجانبين القصيرين جناحين مزدوجين من خمسمائة بيت في كل واحد منهما.. يا لخسارة تلك الموسيقى. ليس بمقدوري أن أتصور، وأنا أعلم بمزاج «شايد» الذي درج على تلك التوليفات، وإحساسه المرهف بميزان الإيقاع، أنه نوى تشويه وجوه بلورته بالتدخل في تطورها المتوقع. وإذا لم يكن هذا كافيا ـــ وهو كافٍ ـــ فقد سنحت لي الفرصة المثيرة لأسمع صوت صاحبي المسكين يعلن، عشية يوم ٢١ يوليوز، أنه انتهى من عمله، أو أوشك على النهاية. (انظر تعليقي على البيت ٩٩١.)

ربطت حزمة الجذاذات الثمانين هذه برباط مطاطي، وهأنذا أعيده الآن بعناية شديدة بعد أن فحصت محتوياتها الثمينة لآخر مرة. ثمة دزينة أخرى من الجذاذات، أضأل بكثير، شُدَّت معاً ووضعت في مظروف مانيلا كما الحزمة الأساسية، وهي تحمل بعض المقاطع الثنائية الإضافية التي تجري مجراها القصير، والداخن أحياناً، وسط فوضى المسودات الأولى. كان «شايد»، على جري عادته، يتلف المسودات ما إن تكفّ حاجته إليها؛ مثلما شاهدته من شرفتي، ذات صباح مشرق، يلقي بكومة كاملة منها في النار الشاحبة داخل الفرن، ثم وقف أمامها، حاني الرأس مثل مشيع رسمي بين الفراشات السوداء المحمولة على جناح الرياح في تلك المحرقة بالفناء الخلفي. لكنه أبقى على تلك الجذاذات الاثنتي عشرة بفضل العبارات غير المألوفة التي تسطع بين مسودات الصيغ المستعملة. ربما توقع بصورة غامضة أن يستبدل بعض المقاطع في النسخة المنقحة ببعض العبارات الجميلة المرفوضة في أضابيره، أو استحثه، على الأرجح، ولع خفي بهذا الزخرف أو ذاك، كَتَمَه لاعتبارات بنائية، أو لكونه أزعج السيدة «ش.»، على تأجيل التخلص منها حتى يحين الوقت الذي ستؤكد فيه مخطوطة مصححة مطبوعة بالآلة الكاتبة اكتمالها المصقول، أو تجعلها

الصيغة البديلة الأكثر إبهاجا تبدو مستثقلة ولاحنة. اسمحوا لي أن أضيف، بكل تواضع، أنه ربما نوى أن يطلب مشورتي بعد أن قرأ قصيدته على مسامعي، بما أنني على علم بأنه عقد النية على أن يفعل.

سيصادف القارئ، في تعليقاتي على القصيدة، هذه الأبيات الملغاة. تحدد مسوداتُ الأبيات النهائية مواضعَها، أو تقترحها على الأقل، في حواشيها المباشرة. ويكتسي الكثير منها، بمعنى ما، قيمة فنية وتاريخية أكبر من بعض أفضل المقاطع في النص النهائي. يجب الآن أن أشرح كيف انتهيت إلى تحقيق قصيدة نار شاحبة.

بعد أن توفي صديقي العزيز مباشرة، انتصرت على أرملته الذاهلة لأتربص بالأطماع التجارية وأهزم المكائد الأكاديمية التي لم تكن لتتوانى عن أن تحوم حول مخطوط زوجها (الذي نقلته بنفسي إلى مكان آمن قبل أن يوارى جثمانه الترابَ) بأن وقعت على اتفاق
يشهد بأنه سلمني المخطوط؛ وأن أنشره دون تأخير، مرفقاً بتعليقي، ضمن منشورات دار من اختياري؛ وأن جميع الأرباح، ما عدا نسبة الناشر، ستؤول إليها؛ وأن يسلم المخطوط يوم صدوره لمكتبة الكونغرس بغية حفظه إلى الأبد. أتحدى أي ناقد جادّ أن يجد هذا العقد مجحفاً. ومع ذلك، وُصِف (على لسان محامي «شايد» السابق) بأنه «مزيج رائع من المكر»، بينما تساءل شخص آخر (هو وكيله الأدبي السابق) بسخرية إن حُرِّرَ توقيع السيدة «شايد» المضطرب «بنوع خاص من المداد الأحمر.» لن تقوى مثل هذه القلوب، وهذه الأدمغة، على إدراك أن ارتباط المرء بتحفة قد يكون غامراً تماماً، خصوصاً عندما يكون وجه النسيج الداخلي هو الذي يخلب لبّ ناظره ومصدر إلهامه الوحيد، الذي يتواشج ماضيه الخاص هناك مع قدر المؤلف البريء.

كما أشرت، حسب اعتقادي، في تعليقي الأخير على القصيدة، فجرت قذيفة الأعماق المتمثلة في وفاة «شايد» هذه الأسرار، ودفعت العديد من الحيتان الميتة إلى أن تطفو على السطح، إذ اضطررت إلى مغادرة «نيوواي» بعيد مقابلتي الأخيرة مع القاتل المسجون. كان لا بد من تأجيل كتابة التعليق إلى أن أجد قناعاً جديداً في محيط أكثر هدوءا. لكن لا بد من تسوية مسائل عملية متعلقة بالقصيدة على الفور. ركبت طائرة إلى نيويورك، واستنسخت المخطوط، وتوصلت إلى اتفاق مع أحد ناشري «شايد»، وكنت على وشك أن أحسم الصفقة عندما قال مخاطبي، عَرَضا تماماً، لحظة غروب هائل، (ونحن جالسان في حجيرة من خشب جوز وزجاج على علو خمسين طابقاً فوق حركة الخنافس)، ملاحظا: «سيكون من دواعي سروركَ بأن تعلم، يا دكتور «كينبوت»، أن البروفيسور فلان الفلاني [وهو عضو من أعضاء لجنة «شايد»] وافق على أن يكون مستشارنا في تحقيق هذا العمل.»

صارت كملة «سرور» تعني الآن فعلاً ذاتيّاً للغاية. يقول مثل من أمثالنا «الزمبلية» السخيفة: القفاز المفقود مسرور. أحكمت فوراً إغلاق قفل محفظتي، ثم لجأتُ إلى ناشر آخر.

تخيل عملاقاً لطيفاً وأخرق؛ تخيل شخصية تاريخية تقتصر معرفتها بالمال على المليارات المجردة لديْن وطني؛ تخيل أميراً منفيّاً جاهلاً بالمنجم الغني الكامن في أزرار أكمامه! أسوق هذا لأقول ـــ آه، مطنباً ـــ إنني أقل الناس إفادة في العالم. تصير العلاقات، بين شخص كهذا وثعلب كهل متمرس في عالم نشر الكتاب، مبهجة وحميمة على نحو مؤثر في البداية، تصاحبها مزحات غير متحفظة وجميع آيات الود. لا يراودني أي داع يدعو إلى افتراض ما من شأنه أن يمنع هذه العلاقة المبدئية مع «فرانك» الشيخ الطيب، ناشري الحالي، من أن تبقى راسخة على الدوام.

أقرّ «فرانك» باستلام مسودات الطبع التي سبق أن أرسلها لي هنا، وطلب مني أن أشير في تمهيدي ـــ وأنا أفعل هذا عن طيب خاطر ـــ إلى أنني أتحمل المسؤولية وحدي عن أي خطأ ورد في تعليقي. كان عليّ أن أضيفها قبل أن يتحقق منها مصحح محترف. أعاد مصحح محترف مراجعة نص القصيدة المطبوع بدقة، مقارناً إياها بنسخة المخطوط، فعثر على أخطاء مطبعية لم أنتبه إليها. وهذا كل ما تلقيته من مساعدة خارجية. لا داعي للقول كم كنت أتطلع إلى أن تمدني «سيبيل شايد» بمعطيات سيرية غزيرة؛ ولسوء الحظ، غادرت «نيوواي» حتى قبل أن أغادرها، وهي تقيم الآن مع بعض أقاربها في الـ»كيبيك». لربما كنا سنتبادل، بالطبع، مراسلات مثمرة للغاية، لكن لم يكن ليتزحزح آل «شايد» عن موقفهم. إذ توجهوا إلى كندا في حشود لينقضوا على السيدة المسكينة ما إن فقدتُ الاتصال بها وبمزاجها المتقلب. بدل أن ترد على رسالة أرسلتها منذ شهر من مغارتي في «سيدارن»، أوردت فيها قائمة ببعض استفساراتي الملحة، مثل الاسم الحقيقي لـ»جيم كاوتس» وغيره،
أرسلت لي فجأة برقية، تطلب مني أن أقبل البروفيسور «هـ.» (!) والبروفيسور «س.» (!!) شريكين في تحقيق قصيدة زوجها. كم فاجأني وآلمني هذا الأمر! بالطبع، حال ذلك دون التعاون مع أرملة صديقي الضالّة

وكان صديقاً عزيزاً بالفعل! يقول التقويم إنني تعرفت عليه منذ بضعة أشهر فقط، لكن ثمة صداقات تنمي أمدها الداخلي، وعُصور زمنها الشفاف، غير مبالية بهذه الموسيقى الخبيثة المتعاقبة. لن أنسى أبداً مدى ابتهاجي عندما علمت، كما أشرت في تعليق سيصادفه القارئ، أن بيت الضاحية (الذي اكتريته سكناً لي من القاضي «غولدسوورث» الذي سافر إلى إنجلترا خلال إجازته السبْتية) الذي انتقلت إليه يوم ٥ فبراير ١٩٥٩، يجاور بيت الشاعر الأمريكي الشهير الذي حاولت أن أترجم أشعاره إلى اللغة «الزمبلية» قبل عقدين من الزمن! بصرف النظر عن هذا الجوار الفاتن، سرعان ما اكتشفت أن قصر «غولدسوورث» لم يكن يملك ما يجعله مقبولا إلى حد كبير. نظام تدفئته مهزلة، باعتماده على أجهزة أرضية تنتقل عبرها الانبعاثات الفاترة لفرن يصدر طقطقات وصريراً في الطابق السفلي إلى الغرف، مصحوبة بما يشبه أنفاس المحتضَر الواهنة الأخيرة. حاولت أن أرفع الحرارة في عداد جهاز التدفئة في غرفة الجلوس بإغلاق منافذ الطابق العلوي، لكن تبين أن هواءها فاسد على نحو عضال بسبب غياب أي حاجز بينها وبين المناطق الباردة، ما عدا بوابة أمامية مليئة بالشقوق، لا أثر بها لمدخل ـــ إما لأن البيت بني في عز الصيف على يد مستوطن ساذج لم يخطر على باله فصل الشتاء الذي تخبئه له «نيوواي»، وإما لأن النبالة القديمة

اقتضت أن زائراً طارئاً واقفاً أمام البوابة المفتوحة يمكنه أن يطمئن نفسه من العتبة ألا شيء غير لائق يحدث في الردهة.

تعودنا أن يكون فبراير ومارس في «زمبلا» (وهما الشهران الأخيران من «الشهور الأربعة ذات الأنف الأبيض»، كما نسميها) قاسيين للغاية أيضاً، ولكن حتى غرفة مزارع هناك تَهَبُ دفئاً منتظماً ومتواصلاً ـــ لا شبكة من التيارات الهوائية القاتلة. صحيح أنه قيل لي، كما يقال للوافدين الجدد، إنني اخترت المجيء في أسوأ فصل شتاء منذ سنوات ـــ تقع المنطقة على خط عرض «بالرمو». ذات صباح من صباحاتي الأولى هناك، بينما كنت أستعد للذهاب إلى الكلية في السيارة الحمراء الجبارة التي ظفرت بها مؤخرا، لاحظت أن السيد والسيدة «شايد»، اللذين لم أكن تشرفت بعد بمعرفتهما (سأعلم فيما بعد أنهما افترضا أنني أرغب في أن أبقى وحيداً)، كان يواجهان مشاكل مع سيارتهما «باكرد» القديمة في الطرقات الزلقة، إذ ينبعث منها أنين عذاب، دون أن تنجح في تخليص عجلة خلفية معذبة من جحيم جليدي مجوّف. تناول «جون شايد» دلواً وانهمك، بطريقة خرقاء، في نثر حفنات رمل بُنّي، بحركات مزارع، على الصقيع الأزرق. كان يرتدي حذاء ثلج. رفع ياقته المصنوعة من وبر الفكونة إلى الأعلى. بدا شعره الأشيب الكثيف فضيّاً تحت أشعة الشمس. علمت أنه كان مريضاً قبل بضعة أشهر، ثم هرعت خارجا إليهما، إذ خطر على بالي أن أوصل جاريّ إلى الجامعة بسيارتي الجبارة. ثمة ممر ضيق ينعطف حول الربوة الواطئة التي تنتصب عليها قلعتي المستأجرة، وهو يفصلها عن مدخل منزل جاريّ. كدت أعبر ذلك الممر عندما انزلقت قدمي وانطرحتُ على الثلج المتجمد على نحو مدهش. كان لسقوطي أثر محرك كيميائي في سيارة آل «شايد»، حيث تزحزحت من مكانها على الفور، وكادت تدهسني وهي تتأرجح نحو الممر، بينما يلوي «جون» الممسك بالمقود قسمات وجهه متجهما، فيما تكلمه «سيبيل» مهتاجة. لست متأكدا أنهما رأياني.

غير أنني تعرفت على الشاعر الشيخ وقت الغذاء في نادي الكلية، بعد بضعة أيام، بالضبط يوم الاثنين ١٦ فبراير. كتبت في مذكراتي بأسلوب ساخر إلى حد ما: «أخيراً، قدمت أوراق الاعتماد.» دعاني للانضمام إليه وأربعة أو خمسة أساتذة بارزين آخرين على مائدته المعتادة الموضوعة أسفل صورة مكبرة، باهتة ومتداعية، لكلية «ووردسميث»، التقطت سنة ١٩٠٣ ذات يوم صيفي قاتم بشكل ملحوظ. أضحكني اقتراحه المقتضب بأن «أتذوق لحم الخنزير». ذلك أنني نباتي صارم، وأحب أن أطهو وجباتي الخاصة. شرحت للضيوف متوردي الخدود أن استهلاك شيء ما عبثت به يد مخلوق صنو يثير الاشمئزاز في نفسي مثل أكل أي مخلوق، بما في ذلك ـــ خفضت صوتي ـــ الطالبة البضّة ذات ذيل الفرس التي كانت تخدمنا على المائدة، وهي تلعق قلمها. فضلا عن ذلك، كنت أكلت الفواكه التي أحضرت معي في حقيبتي. هكذا، قلت إنني سأكتفي بقنينة جعة جيدة. اطمأن الجميع لتصرفي العفوي والبسيط. رشقوني بالأسئلة المعتادة عما إذا كان شراب البيض أو اللبن مقبولا عند من يشاطرونني قناعتي. قال «شايد» إن الأمور تسير عنده بخلاف ذلك، حيث يجب أن يبذل جهداً واضحاً حتى يتناول الخضار. فأن يبدأ الأكل بسَلَطة أشبه عنده بالارتماء في البحر في يوم بارد، إذ عليه دائماً أن يستجمع قواه كي يهاجم حصن تفاحة. لم أكن تعودت بعد على المزاح والدعابة المرهقين الجاريين

بين المثقفين الأمريكيين من النوع المتوالد داخل الجامعة، فامتنعت عن إخبار «جون شايد» أمام جميع أولئك الكهول المنشرحين بمدى إعجابي بعمله، خشية أن ينقلب نقاش جاد حول الأدب إلى مجرد طرائف. سألته بالأحرى عن أحد طلبتي الجدد، يحضر دروسه أيضاً، وهو فتى متقلب المزاج، مرهف الحس، بل رائع على الأصح. لكن الشاعر الكهل أجاب، وهو يهز ناصيته الشيباء هزة صارمة، أنه كفّ منذ زمن طويل عن حفظ وجوه الطلاب وأسمائهم، وأنه لا يتذكر سوى شخص وحيد في درسه حول الشعر هو سيدة من خارج أسوار الجامعة، تتوكأ على عكازين. قال البروفيسور «هورلي»: «هلمَّ، هلمَّ يا «جون»! هل تقصد أنك لا تستحضر فعلاً صورة ذهنية أو غريزية لتلك الشقراء المذهلة ذات اللباس الأسود المشدود التي تكثر التردد على درس الأدب الأمريكي في القرن العشرين؟» طبطب «شايد»، الذي صارت تجاعيده كلها متهللة، برقّة على معصم «هورلي»، ليحمله على السكوت. استفسر معذِّب آخر إن كان صحيحاً أنني نصبت طاولتي «بينغ بونغ» في الدور السفلي من بيتي. سألته: هل يمثل ذلك جريمة؟ قال: لا، لكن لِمَ اثنتين؟ رددت عليه: «هل ذلك جريمة؟» ثم ضحكوا جميعاً.

كان «شايد»، رغم قلبه الضعيف (انظر البيت ٧٣٥)، وعرجه الخفيف، وحركته الملتوية اللافتة للنظر في طريقة خطوِه، ولوعاً ولعاً جامحاً بالمشي في نزهات طويلة. لكن الثلج كان يضايقه، حيث كان يفضل، في فصل الشتاء، أن تتصل به زوجته بعد الدروس وتأتي لتقلّه بالسيارة. بعد بضعة أيام، بينما كنت أهمّ بمغادرة قاعة «بارثينوسيسوس» ـــ أو القاعة الرئيسية (أو قاعة «شايد» الآن، للأسف)، رأيته في الخارج، ينتظر وصول السيدة «شايد» لتأخذه إلى البيت. وقفت بجانبه طيلة دقيقة، على أدراج الشرفة ذات الأعمدة، وأنا أنزع قفازيَّ، أصبعاً بعد آخر، وأنظر بعيداً، كأنني أنتظر استعراض كتيبة. علّق الشاعر قائلاً: «ذاك عمل شامل.» راجع ساعته. استقرت فوقها ندفة ثلج. «بلّور على بلّور»، قال «شايد». اقترحت أن أقلّه إلى بيته بسيارتي «كراملر» الجبارة. «النساء نَسَّاءات، يا سيد «شايد».» مال برأسه الأشعث ناحية ساعة المكتبة ليلقي عليها نظرة. مرّ فَتَيَان متهللان يرتديان ملابس شتوية، يضحكان وينزلقان على بسطة العشب الفسيحة المغطاة بالثلج. ألقى «شايد» نظرة ثانية على ساعته، وهو يهز كتفيه، ثم قبل باقتراحي.

أردت أن أعرف إن كان لا يمانع في أن نسلك الطريق الأطول، على أن نتوقف في مركز المدينة، حيث كنت أرغب في شراء بعض الكعك المحلى بالشوكولاتة وقليل من الكافيار. قال إنه لا يعترض على ذلك. لمحت الشيخ، عبر نافذة ذات زجاج بلوري، من داخل السوق الممتازة، يدلف إلى متجر لبيع المشروبات الكحولية. عندما رجعت حاملاً مشترياتي، كان قد عاد إلى السيارة، يتصفح جريدة شعبية ظننت أن أي شاعر ما كان ليتكرم بلمسها. عرفت من جشائه الهنيّ أنه دسّ قنينة «براندي» أسفل سترته الدافئة. عندما انعطفنا في ممر بيته، رأينا «سيبيل» تركن السيارة أمامه. نزلت بحماس مهذب. قالت: «ما دام زوجي لا يؤمن بتقديم الناس، دعنا نفعل ذلك بنفسينا: إنك الدكتور «كينبوت»، ألست كذلك؟ وأنا «سيبيل شايد».» ثم خاطبت زوجها قائلة إنه كان عليه أن ينتظر بمكتبه دقيقة أخرى. قالت إنها زمّرت، وصاحت، وصعدت جميع الأدراج، الخ. أدْبرتُ لأذهب، آملاً ألا أشهد ثورة غضب زوجي، لكنها دعتني قائلة: «تناول مشروبا معنا، أو معي بالأحرى، لأن «جون» ممنوع من لمس الكحول.» شرحت لها أنني لا

أستطيع أن أمكث طويلاً، إذ كنت أهمّ أن أشرع في حلقة دراسية في البيت، تليها حصة مضرب الطاولة، رفقة توأمين متشابهين وسيمين وفتى آخر، فتى آخر.

مذ ذلك الحين، بدأت أرى جاري المشهور أكثر فأكثر. ظلت الإطلالة من إحدى نوافذي تمنحني تسلية ممتازة، خاصة عندما أترقب وصول ضيف متأخر. إذ تظل قاعة جلوس آل «شايد»، من طابق بيتي الثاني، على مرأى البصر بوضوح طالما بقيت أغصان الأشجار الملْحاء التي تفصل بيننا عارية من أوراقها، وفي كل مساء تقريباً، أرى قدم الشاعر في خُفِّها تتأرجح بلطف. من شأن المرء أن يحدس من ذلك أنه جالس على كرسي واطئ، وبيده كتاب، لكن لن يكون بمقدوره أبداً أن يلمح غير تلك القدم وطيفها المتحرك صعودا ونزولا وفق الإيقاع الخفي للاستغراق الذهني، تحت ضوء المصباح المركّز. يسقط الخُفُّ البني المصنوع من جلد ماعز مدبوغ، دائماً في الوقت نفسه، من القدم ذات الجورب الصوفي التي تواصل تأرجحها، ولكن بتباطؤ طفيف في وتيرته. يدرك المرء من ذلك أن موعد الرُّقاد وشيك بكل ما يحمله من رعب، وأن إصبع القدم سيتلمس الخفّ ويتبرم منه، ثم يختفي معه من مجال رؤيتي الذهبي الذي اعترضه غصن مقوّس أسود. في بعض الأحيان، تمرق «سيبيل شايد» بسرعة، تلوح يداها بحركات من انتابته نوبة غضب، ثم تعود بعد هنيهة، بخطوات بطيئة جدّاً، كأنها صفحت عن زوجها وتجاوزت عن صداقته مع جار غريب الأطوار. لكن لغز سلوكها حُلَّ برمته ذات ليلة عندما اتصلت بهاتفهما وراقبت نافذتهما في الآن ذاته، ودفعتها بشكل ساحر إلى تكرار الحركات السريعة والبريئة تماماً التي أثارت حيرتي.

سرعان ما تبلبلت راحة بالي، يا حسرتي. أخذت ضغينة الحسد الصفيقة تنفثني سُمَّها ما إن أدرك الوسط الأكاديمي أن «جون شايد» يُجِلّ عِشرتي على رفقة كل الناس الآخرين. لم يفتنا أن ننبه إلى ضحكتك الهازئة، يا عزيزتي السيدة «س.»، عندما كنت أساعد الشاعر الهرِم المنهك على إيجاد جرموقه بعد تلك الحفلة الكئيبة في بيتك. ذات يوم، حدث أن دخلت إلى مكتب الأدب الإنجليزي، قصد البحث عن مجلة تحمل صورة القصر الملكي في «أونهافا»، أردت أن أُطلع صديقي عليها، فسمعت عندها مدرسا شابا يرتدي سترة مخملية خضراء، سأدعوه، رحمة ورأفة، باسم «جيرالد إميرالد»، يردّ بلامبالاة على سؤال للسكرتيرة قائلاً: «أظن أن السيد «شايد» غادر رفقة القندس الكبير .» صحيح أنني طويل القامة فعلا، ولحيتي البنية ذات خضاب ونسيج غنيين جدّاً، وينطبق عليَّ اللقب السخيف بوضوح، لكن لم أكن جديراً بالملاحظة. بعد أن أخذت المجلة بهدوء من طاولة تكومت عليها المنشورات، أقنعت نفسي، وأنا أغادر، بأن أرخي ربطة عنق «جيرالد إميرالد» بحركة أصابعي البارعة، ما إن أمرّ أمامه. حدث كذلك في ذلك الصباح أن التمس مني الدكتور «ناتوشداغ»، رئيس الشعبة التي ألحقت بها، بصوت رسمي، أن أجلس، ثم أَغلق الباب، وعاد إلى كرسيه المتحرك، بوجه عبوس، وألحّ علي أن «أحترس أكثر.» أحترس، بأي معنى؟ لقد اشتكى فتى لمشرفه. اشتكى مِمَّ، يا ربّ؟ من كوني انتقدت درسا في الأدب يتابعه («عرض سخيف حول أعمال تافهة، أنجزه شخص ضحل مثير للسخرية»). ضحكتُ بارتياح تام، وعانقت «نيتوشكتي» الطيب، مخبراً إياه أنني لن أكرر بذاءتي أبداً. اغتنمت تلك الفرصة لأحيّيه. إذ ظل يعاملني بمثل تلك المجاملة الرائعة حتى إنني تساءلت أحياناً عما إذا كان يشك فيما كان يشك فيه «شايد»، وفيما لا يعرفه قطعا سوى ثلاثة أشخاص (أمينان ورئيس الكلية).

آه، ثمة العديد من الحوادث المماثلة. ففي مسرحية هزلية أدتها مجموعة من طلبة الفن الدرامي، صوروني مثل مغرور كاره للمرأة ذي نبرة ألمانية يقتبس من الشاعر «هوسمان» على الدوام ويقضم الجزر النيّء. وقبل أسبوع من وفاة «شايد»، قالت لي سيدة ضارية، رفضت أن أتحدث في ناديها الأدبي حول موضوع «دو هالي فالي»(1) (كما قالت، خالطة بين قصر «أودين» وعنوان ملحمة فنلندية)، وسط متجر بقالة: «أنت شخص كريه بشكل لافت للنظر. يتعذر علي أن أرى كيف طاق «جون» و»سيبيل» تحمّلك.» ثم أضافت، بعد أن أغاظتها ابتسامتي المهذبة: «علاوة على ذلك، فأنت مجنون.»

لكن اسمحوا ألا أتابع سرد هذه الترهات. فمهما كانت الظنون والقيل والقال، كانت صداقة «جون» بمثابة مكافأتي المجزية. كانت تلك الصداقة أغلى بحنانها، الذي تخفيه عن قصد، خاصة عندما لا نكون وحدنا، تلك البحة الجشاء النابعة مما يمكن تسميته بشهامة القلب. كينونته كلها قناع. كانت هيئة «جون شايد» الجسدية ضئيلة جدّاً في مجاراتها التناسقات المجتمعة في الرجل، حتى ليشعر المرء بالميل إلى نبذها بِعَدِّها قناعاً رديئاً أو موضة عابرة؛ لأنه إذا كانت أزياء العصر الرومانسي هذبت رجولة الشاعر بكشف عنقه الجذاب وتهذيب مظهره وعكس بحيرة جبلية في حدقته البيضوية، فإن شعراء اليوم يبدون مثل غوريلات أو عقبان، ربما بسبب فرص أفضل تتيح لهم التقدم في السن. كان لوجه جاري الجليل أن يسرّ العين، لو أنه كان ذا سحنة أسدية أو أشبه بهندي من قبيلة «إيروكويس»؛ لكن من سوء الحظ كاد الجمع بين الاثنين يذكر بسكِّير «هوغارثي» سمين ذي جنس غير محدّد. جسده الممسوخ، وتلك الكبّة الشيباء من الشعر الكثيف، والأظافر الصفراء في أصابعه الربيلة، والكيسان أسفل عينيه الشاحبتين، كل ذلك لم يكن يدرك إلا إذا عُدَّ نفايات تخلصت منها ذاته الباطنية بفضل قوى الكمال ذاتها التي تهذب شعره وتنحته. كان ينقض نفسه بنفسه.

أملك صورة مفضلة له. يبدو «شايد»، في هذه الصورة ذات الألوان التي التقطها صديق سابق لي ذات يوم ربيعي متلألئ، متكئاً على عكاز متين كانت في ملك عمته «مود» (انظر البيت ٨٦). ألبسُ سترة بيضاء اشتريتُها من متجر محلي للألبسة الرياضية وسروالاً أرجوانيّاً استقدمته من مدينة «كان». يدي اليسرى نصف مرفوعة ـــ لا لتربت على كتف «شايد» كما تبدو نيتي ـــ وإنما لأنزع نظارتي الشمسية التي لم تبلغها أبداً حياة الصورة، مع ذلك، في تلك الحياة؛ وتحت إبطي الأيمن الكتاب الذي استعرته من المكتبة، وهو مقالة في بعض الألعاب الرياضية «الزمبلية» التي ارتأيت أنها ستثير اهتمام ذلك الشاب زميلي في الغرفة الذي التقط الصورة. بعد أسبوع، سيخون ثقتي، إذ استغل بخسة غيابي خلال سفر إلى واشنطن، لأجد عند عودتي أنه كان يستمتع بعاهرة صهباء من «إكستون» خلّفت مُشاطتها ورائحتها الكريهة في الحمامات الثلاثة كلها. بالطبع، افترقنا على الفور. رأيت من شق في ستائر النافذة «بوب» الشرير واقفاً على نحو مثير للشفقة بالأحرى، بشعره المقصوص، والحقيبة الرثة، والمزلجتين اللتين أعطيتهما إياه، كل شيء متروك على قارعة الطريق، ينتظر طالبا من رفاقه ليحمله بعيداً إلى الأبد. بمقدوري أن أغفر كل شيء إلا الخيانة.

لم نناقش أبداً، أنا و»جون شايد»، أيّاً من مصائبي الشخصية. كانت صداقتنا الوثيقة تقع في ذلك المستوى الرفيع، الفكري على وجه الحصر، حيث يمكن للمرء أن يستريح من متاعبه العاطفية، لا أن يشاطرها. كان إعجابي به نوعاً من العلاج في أعالي الجبال. كان يخامرني إحساس مهيب بالاندهاش كلما نظرت إليه، خاصة في حضور أشخاص آخرين أقلّ شأناً. كان هذا الاندهاش يتعزز بوعيي أنهم لم يشعروا بما شعرت، ولم يروا ما رأيت، وأنهم سلّموا
بـ«شايد» جدلا، بدل أن يتركوا كل عصب يتشرب، إذا جاز التعبير، فتنة حضوره الآسر. ها هو، أقول لنفسي، ذاك رأسه الذي يحتوي دماغا ذا طراز مختلف عن دماغ الهلام الصناعي المحفوظ داخل الجماجم المحيطة به. ينظر من الشرفة (ببيت الأستاذ «س.» في ذلك المساء من شهر مارس) إلى البحيرة البعيدة. أنظر إليه، وأشهد ظاهرة فسيولوجية فريدة، قوامها أن «جون شايد» يدرك العالم ويحوّله، ثم يستوعبه ويفككه ويعيد دمج عناصره في عملية تخزينها حتى تنتج، في تاريخ غير محدد، معجزة عضوية ما، ولحمة بين الصورة والموسيقى، وبيتاً شعريّاً. خبرتُ الإثارة ذاتها عندما رأيت ذات مرة، في طفولتي المبكرة، في الطرف الآخر من مائدة الشاي في قصر عمي، ساحراً يقدم أداء رائعاً، وهو يتلذذ حينها بمثلجات فانيلا في هدوء. حدّقتُ في خدّيه المعفّرين، وفي الزهرة السحرية في عروة سترته حيث وَلَجَت عبر سلسلة من الألوان المختلفة، حينها صارت مثبتة كقرنفلة بيضاء، خاصة بين أصابعه الرشيقة العجيبة القادرة، إذا شاء، على أن تذوب ملعقة وهو يحركها على شعاع شمس، أو يحول صحنه إلى حمامة وهو يرمي به في الهواء.

قصيدة «شايد» هي، بالفعل، إشراقة السحر المفاجئة تلك؛ إذ وضع صديقي الأشيب، ساحري الكهل المحبوب، رزمة من الجذاذات المفهرسة داخل قبعته، ثم حركها، فأخرج منها قصيدة.

ناحيةَ هذه القصيدة يجب أن نلتفت الآن. آمل ألا تكون توطئتي هذه هزيلة جدّاً. ثمة ملاحظات أخرى، مرتبة في تعليق مسترسل، سيلبي بالتأكيد رغبة القارئ النَّهِم. رغم أن تلك الملاحظات تأتي بعد القصيدة، على جري العادة، فإنني أنصح القارئ أن يطلع عليها أولا، ثم يدرس القصيدة على ضوئها، ويعيد قراءتها بالطبع وهو يفحص نصها، ويرجع إليها مرة ثالثة، ربما، بعد أن ينتهي من القصيدة، حتى تكتمل عنده الصورة. أرى أن الحكمة تقتضي، في حالة مثل هذه، التخلص من عناء التصفح ذهابا وإيابا، إما بقص الصفحات وإلصاقها مع ما يناسبها من النص، وإما، ببساطة أكبر، شراء نسختين من العمل نفسه، إذ يمكن حينها وضعهما متجاورتين على طاولة مريحة ـــ ليس كالشيء المتداعي الصغير الذي تتربع عليه آلتِي الكاتبة الآن بدون ثبات، في هذا المأوى المقطور الوضيع، مع ذلك الوقع الرتيب في رأسي وخارجه، على بعد أميال من «نيوواي». اسمحوا لي أن أزعم أن نص «شايد» لا يضمر ببساطة أي حقيقة إنسانية على الإطلاق بدون ملاحظاتي، مادامت الحقيقة الإنسانية في قصيدة مثل قصيدته (المستحيية والمتحفظة جدّاً عن أن تصير عملاً سيرذاتيّاً)، بما تضمنته من حذف لأبيات بليغة عديدة أهملها دون أن يلقي لها بالاً، ملزمة بأن تعتمد كلية على حقيقة مؤلفها ومحيطه وأهوائه وغير ذلك، حقيقة لن تتيحها سوى ملاحظاتي. ربما لن يوافق شاعري العزيز على هذا القول، لكن الشارح هو من يملك القول الفصل، بغض النظر عن كل شيء.

"تشارلز كينبوت"

19 أكتوبر 1959، «سيدارن»، «أوتانا"

.The Halley Valley (1)

نار شاحبة قصيدة في أربع قطع

القطعة الأولى:

كنت ظلَّ شمعيّ جناح، اغتالهْ (١)

اللازوردي الزائف على زجاج النافذهْ

كنت لطخةَ خملٍ رماديٍّ

ثم حييتُ، وحلّقتُ، في السماء المنعكسة

ومن الداخل، أيضاً، تضاعفت

أنا، قنديلي، تفاحة في طبَقٍ

تركت الزجاج الداكن، وأنا أزيح ستار الليل

وعلقتُ كل الأثاث على العشب،

وكم كان بهيجا عند سقوط الثلج

حجبَ نظرتي إلى المرج وامتدّ (١٠)

حتى يتماسك الكرسي والسرير تماماً

على ذلك الثلج، في تلك الأرض البلورية!

أستعيد الثلج المتساقط؛ كل ندفة منقادة

وئيدة بلا شكل، متداعية عاتمة

ذات بياض أقتم باهت عكْسَ بياض النهار الشاحب

وأرْزات مجردة في النور المحايد

ثم الأزرق المتدرج والمزدوج

حين يوحّد الليلُ الرائي والمرأى،

وفي الصباح، ماسات الصقيع

أطرقت من الدهش: أي أقدام دابرة عبرت (٢٠)

من اليسار إلى اليمين صفحةَ الطريق البيضاء؟

وأنا أقرأ من اليسار إلى اليمين في شِفْرة الشتاء:

نقطة، سهمٌ مصوب إلى الخلف؛ أردّد:

نقطة، سهم مصوب إلى الخلف... قدما درّاجٍ

جمال طوقي، والقطا المتسامي،

يعثر على صينِك خلف منزلي تماماً.

هل كان في «شيرلوك هولمز»، هذا الخَدِين الذي

دلّت آثاره إلى الوراء عندما قلَب حذاءه؟

سرّتني الألوان كلها؛ حتى الرمادي

كانت عيناي كأنهما بالحرف (٣٠)

تلتقطان صورا. كلما أذنتُ،

أو أمرتُ، برعشة صامتة،

كل ما سَكَنَ في مد بصري ـــ

مشهد داخلي، أوراق جوزية، الرؤوس

الحادة في نوازل جامدة ـــ

انطبع أسفل جفْنَيَّ

أنّى سيلبث ساعة أو اثنتين،

وطالما استدام، كل ما كان عليَّ فعله

أن أغمض عينيَّ لأستعيد الأوراق،

أو المشهد الداخليَّ، أو جوائز المزاريب. (٤٠)

لا أفهمُ لِمَ من البحيرة

ميّزتُ شرفتنا الأمامية لما سلكتُ

طريق البحيرة إلى المدرسة، بينما الآن، وإن لم تعترض أي شجرة

نظري، أرى لكن أعجزُ أن أرى

حتى الغَمَى. ربما بعض مزقٍ في المدى

أحدثت ثنيةً أو ثلما ليزحزح

المشهد الهشّ، البيت الخشبي بين

«غولدسوورث» و»ووردسميث» على مربّعه الأخضر.

أحببتُ جوزة فتية هناك

ذات أوراق دكناء زبرجدية وافرة وجذع متعرج (٥٠)

مهفهف أسود. والشمس الغاربة

ذَهَّبَت اللِّحاءَ الأسود، عليه تناثرت ظلال الأوراق،

مثل أكاليل محلولة.

صارت باسقة، هي الآن خشناء مطهَّمة.

تستحيل الفراشات البيضاء خزامية وهي

تمرّ بظلها، على مهل فيه يتراءى

طيف أرجوحة ابنتي الصغيرة يتهادى.

المنزل نفسه هو نفسُهُ تقريباً. رمَّمْنا جناحا.

ثمة مَشْمَسٌ.

ثمة نافذة شفافة محاطة بكراسي فاخرة (٦٠)

يتلألأ مشبك التلفاز الضخم الآن

بدل طاحونة الهواء الثابتة، يأتيها غالبا

الطائر المحاكي(2) الشفاف البسيط

يكرر جميع البرامج التي نمت إلى مسامعه

ينتقل من «تشيبو ـــ تشيبو» إلى رَنَم صافٍ

«تو ـــ وي»، «تو ـــ وي»؛ ثم يهتاج: «كام هير»،

«كام هير»، «كام هيررر»؛(3) يحرك ذيله عاليا،

أو يتغنج بخفة في قفزة رشيقة إلى الأعلى، ثم يترنّم لحينٍ (تو ـــ وي!)

فيعود إلى مَجْثَمه ـــ إلى التلفاز الجديد (٧٠)

كنت وليدا حين مات والداي

معاً كانا عالِمَيْ طيور.

لطالما حاولت تذكرهما حتى صار لي اليوم

ألف أبٍ وأمٍّ. يذوبون بأسى

في فضائلهما ويتلاشون،

لكن بعض الكلمات، كلمات عابرة سمعتها أو قرأتها،

مثل «قلب خبيث» إليه تحيل على الدوام

و»سرطان البنكرياس» لها تُنْسَبُ.

الماضويُّ: هو جامع الأعشاش المهجورة.

هنا كان مهجعي، صار الآن محفوظاً للضيوف. (٨٠)

هنا كنت، بعد أن تغطيني الخادمة الكندية،

أسمع الغمغمات في الطابق الأسفل

وأصلّي أن يكون الجميع بخير على الدوام،

الأعمام والعمات، والخادمة، وابنة أخيها «أديل»

رائية البابا، والناس في الكتب، والله.

تربّيتُ في كنف عمتي العزيزة الغريبة «مود»،

شاعرة ورسامة ميّال ذوقها

إلى أشياء واقعية جدلاء

ببراعم غريبة وصور الهلاك.

عاشت لتسمع صرخة الوليد المقبل. (٩٠)

أبقينا غرفتها على حالها. توافهها خلقت

حياة ساكنة في أسلوبها: مكبس الورق

المصنوع من الزجاج المعقوف ينطوي على بحيرة

وديوان الشعر مفتوح على الفهرس (القمر،

بزوغ القمر، المرساة، الأخلاق)، القيثارة المهجورة،

الجمجمة البشرية؛ ومن النجمة المحلية

طرفة: «ريد سوكس» يهزم الـ«يانكس» بـ٥ ـــ ٤

عن هوميروس «تشابمان»(4)، معلقة خلف الباب.

مات إلهي شابّاً. وجدت التأليه

مهينا، ومقدماته واهية. (١٠٠)

لا حرَّ يحتاج إلى إله؛ لكن هل كنتُ حرّاً؟

كم شعرت أن الطبيعة لصيقة بي تماماً

وكم أحبّ حَنَكي الطفولي المذاق

شبه السمكي، شبه العسلي، لذلك اللصاق الذهبي!

كان كتابي المصور في عمرٍ مبكر

الرُّقَّ المرسومَ الذي يُوَرِّق قفصنا:

خواتم ليلكية تحيط بالقمر؛ وشمس برتقالية قانية

توأم إريس؛ وتلك الظاهرة النادرة

الإريديول ـــ عندما تعكس سحابة صوانية صغيرة بيضوية الشكل

جميلة وعجيبة (١١٠)

في سماء صافية فوق سلسلة جبال

قوسَ قزح في عاصفة رعدية

في وادٍ بعيد لاحَت ـــ

لأننا صرنا بالفن أَسارَى القفص أكثر.

وثمة جدار الصوت؛ الجدار الليلي

بَنَاهُ تريليون جُدْجُدٍ في الخريف

حصين! في منتصف الطريق إلى قمة التلّ

وقفتُ مفتونا بصريرها المحموم.

ذاك ضوء الطبيب «ساتن». ذاك الدبّ الكبير.

قبل ألف سنة، كانت خمس دقائق (١٢٠)

بقدر أربعين أوقية من الرمل الصقيل.

حدِّق طويلاً في النجوم. أزلٌ لانهائي

وأبدٌ لانهائي: يُطبِقان فوق رأسك

مثل جناحين عملاقين، فتموت.

أظن أن العاميَّ السويَّ سعيدٌ

لا يرى الطريقَ اللبنيَّ

إلا عندما يتبولُ. ثم كالآن

سِرْتُ محفوفا بالخطر: تجلدني الأغصان

وأتعثر في الجذوع. مصابٌ بالربْو والعرج والبدْن

لم أنطِّط كرة أبداً، ولا حرّكتُ مضرباً. (١٣٠)

كنت ظلّ شمعي الجناح، اغتالهْ

النَّوَى الزائف على زجاج النافذهْ.

كانت لي بصيرة، حواسٌّ خمسٌ (واحدة فريدة)؛

لكن كانت بقلبي، خلاف ذلك، نزوة إلى الهوى

في الأحلام لاعبت فتيانا آخرين

لكني لم أُحسَد فعلاً على شيء ـــ ما عدا ربما

معجزة منحنيات دائرية

على رمل مبلل رسمتْها

عجلات دراجة رشيقة بلا اكتراث.

خيط ألمٍ ماكرٍ،

يستلُّه موت لعوب، ويطلقه ثانية، (١٤٠)

لكنه دائم الحضور، يَسْري فيَّ. ذات يوم،

عندما بلغت الحادية عشرة، انبطحت على الأرض

ورأيت دمية آلية ـــ

عربة يدٍ من قصدير يدفعها فتى من قصدير ـــ

تتجاوز أقدام الكرسي وتتيه أسفل السرير،

وفجأة أشرقت الشمس بين الغيوم في رأسي.

ثم أرخى الليل سوادَه. صار ذاك السواد جليلاً.

شعرتُني موزعاً بين المكان والزمان:

قدمٌ على قمة جبل،

ويدٌ تحت حصى نهر فوّار، (١٥٠)

وأذن في إيطاليا، وعين في إسبانيا،

في الكهوف، دمي، وفي النجوم، دماغي.

ثمة نبض نئيم في عصري التريّاسي؛

وبقعٌ مرئية خضراء في عصري الجليدي القديم،

ورجفة جليدية في عصري الحجري،

وكل أيام غدي في عظمي الطريف.

ذات شتاء، في كل زوال

كنت أغوص في تلك الغشية الخاطفة.

ثم توقفت. باتت ذكراها باهتة.

تحسنت صحتي. بل تعلمت السباحة. (١٦٠)

لكني، مثل فتى صغير أجبرته عاهرة

على أن يروي بلسانه الطاهر عطشَها الدنيء

كنت جانحاً، خائفاً، مغترّاً،

ورغم أن الطبيب الكهل «كولت» أخبرني أني برؤت

مما قال إنها آلام متزايدة في أكثر الأحيان،

يتباطأ العجب ويثوي الخجل.

القطعة الثانية:

ثمة زمن في شبابي المعتوه

عندما ظننت بطريقة ما أن حقيقة

البقاء بعد الموت يعرفها

كل إنسان؛ أنا وحدي (١٧٠)

لا أعرف شيئاً، إذ أخفتْ مؤامرةٌ كبيرة

بين الكتب والناس الحقيقةَ عني.

وحل اليوم عندما بدأت أشك

في عقل الإنسان: كيف يحيا

دون أن يعرف بالتأكيد أي فجر، أي موت، أي عذاب

ينتظر الضمير بعد القبر؟

وأخيراً حلّت ليلة السهاد

عندما قررت أن أكتشف وأنازل

الهاوية الرمداء المرفوضة،

كرست كل حياتي الضالة (١٨٠)

لهذه المهمة الوحيدة. أنا اليوم في الحادية والستين

والطيور شمعية الجناح تنقب الحبات. يغني الزيز.

المقص الصغير الذي أحمله

توليفة مبهرة من الشمس والنجوم.

أقف أمام النافذة وأقلم أظافري

وأدرك بغموض

بعض التشابهات الجافلة: الإبهام،

ابن بقالنا، الفهرست، عالم الفلك بالكلية

«ستاروفر بلو» النحيف الكئيب؛

والرفيق الأوسط كاهن طويل أعرفه؛ (١٩٠)

والإصبع المؤنثة الرابعة عجوز لعوب؛

والخنصر الصغير يتعلق بتنورنها.

أقلّب شفتيَّ وأنا أقصّ الشرائح الرفيعة

لما كانت تسمّيه العمة «مود» بـ«البَشَرة».

كانت «مود شايد» في الثمانين عندما هوى

صمت خاطف على حياتها. رأينا الاحمرار الغاضب

وأَوَدَ الشلَلِ يغيران على خدِّها النبيل.

نقلناها إلى «بايندال»،

الشهيرة بمشفاها. هناك تجلس

تحت الشمس الزجاجية وتشاهد الذبابة التي تحط (٢٠٠)

على سربالها، ثم على رُسْغها.

ظل ذهنها يتلاشى في الرذاذ المتعاظم.

إلا أنها ظلت قادرة على الكلام. توقفت، وتبلبلت،

فوجدت ما بدا في البداية صوتا صالحا،

لكن محتالين أخذوا من خلايا مجاورة

مكان الكلمات التي تحتاج، ونظرتها

تتهجى المناشدة وهي تحاول بلا جدوى

أن تجادل الوحوش في دماغها.

أي لحظة في الانحلال التدريجي

يختار الانبعاثُ؟ أي عام؟ وأي يوم؟ (٢١٠)

من يملك ساعة حساب الزمن؟ ومن يعيد الشريط؟

هل البعض أقل حظا، أم الجميع ينفلت؟

ثمة قياس: يموت الرجال الآخرون،

لكني لست آخر؛ إذا، لن أموت.

الفضاء انثيال في العيون؛

والزمن أغرودة في الآذان. وأنا حبيس هذا القفير.

إنما، لو كنا قادرين، قبل الحياة، على تخيل الحياة،

أي سفساف مجنون، مستحيل،

غريب على نحو لا يوصف،

ورائع ستبدو! (٢٢٠)

لِمَ نشترك إذا في الضحك البذيء؟

لِمَ نزدري مستقبلا لن يتحقق منه أحد:

أطايب التركي، قيثارات المستقبل،

الأحاديث مع سقراط وبروست في ممرات السرو،

الساروف بأجنحته النُّحامية الست،

والجحيم الفلمنكي المليء بالشياهم والأشياء؟

لا لأننا نحلم حلما في غاية الغرابة:

العلّة في أننا لا نجعله يبدو

بعيد الاحتمال على نحو كافٍ؛

لأن قصارى خيالنا شبحٌ أليف. (٢٣٠)

كم هي سخيفة هذه الجهود التي تترجم

مصيراً عاماً إلى لسان خاص!

بدل شِعْرٍ من بدائع الخلق،

تعليقات مهلهلة، وبيت أرِق مرذول!

الحياة رسالة مخربشة في الظلام.

مجهول.

رأينا على لحاء صنوبرة،

ونحن عائدون إلى البيت يوم ماتت،

علبة زمرّد فارغة، جاثمة عيناها ضفدعية،

تعانق الجذع؛ ومقطعها القرين،

نملة غائصة في الصمغ. (٢٤٠)

ذاك الإنجليزي في «نيس»،

لسانيّ فخور ومسرور: Je nourris

Les pauvres cigales ـــ وهو يقصد أنه

يطعم النوارس الهزيلة!

أخطأ «لافونتين»:

الفكّ ميت، والأنشودة حية.

وهكذا أقلّم أظافري، وأتأمل، وأسمع

خطاك في الطابق العلوي، وكل شيء على ما يرام، يا عزيزتي.

يا «سيبيل»، طوال أيام المدرسة الثانوية،

عرفت بهاءك، لكني وقعت في حبك

خلال نزهة قسم الكبار

إلى شلالات «نيو واي». أكلنا غذاءنا على العشب النديِّ. (٢٥٠)

ناقش أستاذنا في علم الأرض الشلالَ.

هديره ونقْع قوس قزحه جعلا

منزهه الشاحب رومانسيّاً.

تمددتُ في ضباب أبريل في الحين خلف

ظهرك المهفهف ورأيت رأسك الصغير الأنيق

ينحني إلى جانب. ويدٌ، أصابعها منفرجة،

بين نجم تريليوم(5) وحجر،

تتكئ على العشب. وعظمة إصبع صغيرة

ظلت ترتجف. ثم التفتِّ ومنحتني

كشتبان شاي معدني متلألئٍ. (٢٦٠)

مظهرك لم يتغير. أسنانك البراقة

وهي تعض الشفة الحذرة؛ والظل أسفل

العين يتدلى من الأهداب الطويلة؛ والمخملي

يحفّ الوجنة؛ والشَّعَر الحريري الكستنائي الداكن

الممشوط من الصدغ ومن القفا؛

والعنق العاري تماماً؛ والشكل الفارسي

للأنف والحاجب، أبقيت كل شيء ـــ

وفي الليالي الساكنة نسمع الشلال.

تعالي وكوني معبودة، تعالي وكوني مغناجا،

فانيستي(6) الدكناء، يا فراشتي الفاتنة المباركة (٢٧٠)

يا صاحبة الخطوط القانية! اشرحي

كيف تركت هذا الهستيري الأخرق، «جون شايد»،

يخضِّل وجهك وأذنك ولوحَ كتفك،

في غسق ممر الليلك؟

تزوجنا منذ أربعين سنة.

تغضنت وسادتك برأسينا أربعة آلاف مرة على الأقل

وأشارت الساعة الشاهقة ذات أجراس «ويستمينيستر» البحاء

إلى ساعتنا المشتركة أربعمائة ألف مرة.

كم عدد التقويمات العتيقة الأخرى

التي ستزيّن باب المطبخ؟ (٢٨٠)

أحبُّك عندما تقفين في الحديقة

تحدقين في شيء ما على الشجرة: «لقد رحل.

كان صغيراً جدّاً. ربما يعود» (كل هذا

يفصح عنه في همسة أرخم من قبلة).

أحبك عندما تدعينني لأُعجَب

بدخان طائرة وردي فوق وهج الغروب.

أحبُّك عندما تدمدمين وأنت تحزمين

حقيبة أو كيس السيارة السخيف

ذا السحّاب الدائري. وأحبُّك أكثر

عندما تحيّين شبحها بإيماءة متأملة (٢٩٠)

وتبقين دميتها الأولى في يدك، أو تنظرين

إلى بطاقة بريدية منها، وجدت في كتاب.

ربما كانت هي أنت، أنا، أو مزيجاً عجيباً ما:

اختارتني الطبيعة لأنزع وأشقّ

قلبك وقلبي. في البداية، سنبتسم ونقول:

«كل البنات الصغيرات مكتنزات» أو «سَيُداوي «جيم ماكفي»

(طبيب عيون العائلة) ذاك الحول الطفيف

في لمح البصر.» وبعد ذلك. «ستصير جميلة تماماً،

كما تعلمين»؛ ونحاول أن نلطف

الأسى المائج: «تلك مرحلة المراهقة.» (٣٠٠)

«يجب أن تتعلم ركوب الخيل»، ستقولين

(لا تلتقي عيناك وعيناي). «لا بد أن تلعب

المضرب، أو كرة الريشة. كلاهما قليل الكدر، كثير الثمر!

قد لا تكون جميلة، لكنها ظريفة.»

لم يكن ثمة جدوى، لا جدوى. كانت جوائز

الفرنسية والتاريخ، لا شك، مزحة؛

في حفلات ميلاد المسيح، كانت الألعاب قاسية، بلا شك،

وقد تستبعد ضيفة صغيرة خجولة؛

لكن لنكن منصفين: بينما تقمص الأطفال أقرانها

الجان والجنيات على المسرح الذي (٣١٠)

ساعدت على طلائه لأجل تمثيلية المدرسة،

تراءت طفلتي الوديعة في صورة الأم الزمان ،

أشبه بخادمة حدباء تحمل دلوا ومكنسة،

ثم بكيت مثل أبله في حمام الرجال.

شتاء آخر اختفى، كشطته المجارف

سكنت حشيشة الأسنان(7) البيضاء غابتنا في ماي.

صار الصيف فريسة المجزّات، واحترق الخريف.

يا للحسرة، لن يصير كتكوت الإوز القذر

بطة غياض أبداً. ثم صوتك ثانية:

«لكن هذا تحامل! عليك أن تفرح (٣٢٠)

لأنها بريئة. لِم تجهد الجسد؟

هي تريد أن تبدو بمظهر زَرِيٍّ.

كتبت العذارى بعض الكتب النيّرة.

ليس الحب كل شيء. وليس الحُسْن

بالحاجة اللازمة!» ومع ذلك،

ينادي «بان» الكهل من كل تل مرسوم،

ومع ذلك، تكلمت شياطين عطفِنا:

لا شفاه ستشاطر سيجارتها أحمر الشفاه؛

الهاتف الذي يرنّ قبل كرة

كل دقيقتين في قاعة «سوروزا» (٣٣٠)

لن يرنَّ لها أبداً؛ ولن يطرق بابها أبداً،

عاشق ذو وشاح أبيض، لن يأتيها أبداً،

من حلكة الليل الصقيل،

بصرير العجلات العظيم على الرمل؛ لن تذهب أبداً،

في حلم الغَزِيِّ والياسمين، إلى تلك الرقصة.

أرسلناها، وإن، إلى قصر فرنسي.

وعادت باكية، بهزائم جديدة،

وتعاسات جديدة. في الأيام التي تؤدي كل شوارع

«كوليدج تاون» إلى المباراة، تجلس هي

على أدراج المكتبة، تقرأ أو تحوك؛ (٣٤٠)

في الغالب وحيدة تكون، أو مع رفيقة الغرفة

الطيبة والهشّة، راهبة هي الآن، ومرة أو مرّتان،

مع فتى كوري يتابع دروسي.

انتابتها مخاوف غريبة، تخيلات غريبة، ولها قوة شخصية غريبة ـــ

كما عندما قضت ثلاث ليال

تجسّ بعض الأصوات والأضواء

داخل إسطبل قديم. قلبت الكلمات: «فوق»، «قوف»،

«شبث»، «ثبش». وصار «الذرور» «رذاذا».

أسْمَتْكَ الجندب الديداكتيكي.

نادرا ما ابتسمت، وعندما فعلت، (٣٥٠)

دلّت الابتسامة على الألم. انتقدت

مشاريعنا بشراسة، بعينين فارغتين

تبقى جالسة على سريرها المبعثر

ممددة قدميها المتورمتين، تحك رأسها

بأظافرها الصدافية، وتئن،

وهي تغمغم بكلمات مرعبة رتيبة.

كانت حبيبتي. مرهقة، كئيبة ـــ

لكنها تظل حبيبتي. تتذكر تلك

الأمسيات التي تكاد لا تتكدر عندما كنا نلعب

الماجونغ(8)، أو وهي تقيس عليها فراءك، الذي (٣٦٠)

كاد يجعلها فاتنة؛ وابتسمت المرايا،

كانت الأضواء رحيمة، والظلال خفيفة،

أحياناً أساعدها على فهم نص لاتيني،

أو تقرأ في مهجعها، قرب

عريني المتلألئ، وأنت

في مكتبك الخاص، منزوعة مني مرتين،

وأسمع الصوتين بين الحين والآخر:

«أمي، ما معنى Grim Pen ؟» «ما معنى ماذا؟» «grimpen».

فاصل، وحاشيتك المحفوظة. ثم ثانية:

«أمي، ما معنى chtonic؟» تشرح تلك الكلمة، أيضاً، (٣٧٠)

ثم تضيف: «هل تريدين مندرينا؟»

«لا. نعم. وما معنى sempiternal؟»

ترددتِ. وبشهوة جأرتُ

بالجواب من مكتبي عبر الباب المغلق.

لا يهم ما كانت تقرأ

(قصيدة حديثة متكلفة ما قيل

في الأدب الإنجليزي إنها وثيقة

«جذابة وآسرة» ـــ ماذا يعني ذلك

لا أحد انشغل بالجواب)؛ الواقع أن الغرف الثلاث،

التي كانت حينها تربطنا أنت وهي وأنا، (٣٨٠)

تشكل الآن لوحة ثلاثية الأبعاد أو مسرحية ثلاثية الفصول

تصور أحداثا لا تزول أبداً.

أظنها ظلت ترعى أملاً مجنوناً ضئيلاً.

أنهيت مؤخراً كتابي حول البابا.

خصت لها «جاين دين»، راقنتي، يوماً

للقاء ابن عمها «بيت دين». ثم أخذهم جميعاً

خطيب «جاين» في سيارته الجديدة

إلى حانة في هاواي على بعد أميال.

أخذوا الفتى في الثامنة والربع من «نيوواي».

كسا الصقيع الطرقات. (٣٩٠)

أخيراً، وجدوا المكان ـــ عندما صاح «بيت دين» فجأة

وهو يمسك بجبينه أنه نسي تماماً موعدا مع نديم

سيزج به في السجن إن هو، «بيت»، لم يأتِ، الخ.

قالت إنها فهمت.

بعد أن مضى توقف الشبان الثلاثة

أمام المدخل اللازوردي برهة.

البرك موصدة بالنيون؛ وبابتسامة

قالت إنها اكتفت، إذ تفضل

أن تعود إلى البيت فحسب. أوصلها صديقاها (٤٠٠)

إلى محطة الباص وغادرا؛ لكن بدل

أن تعود إلى البيت، نزلت في محطة «لوتشانهيد».

راجعت الساعة في معصمك: «إنها الثامنة والربع.

[وهنا تشعب الزمن.] سأشغله.» انبعثت من الشاشة

في سائلها المرسل غيمة نابضة بالحياة،

وصدحت الموسيقى.

ألقى عليها نظرة واحدة

ورمى شعاع الموت على «جاين» سليمة النية.

اقتفت يد رجل من «فلوريدا» إلى «ماين»

السهامَ المعقوفة لحروب الريح.

قلت إن رباعيّاً مملاً، (٤١٠)

كاتبين وناقدين، سيناقشان في وقت لاحق

قضية الشعر في القناة الثامنة.

جاءت حورية تتهادى، تحت بتلاتها البيضاء المتوالية،

في طقس ربيعي

لتركع أمام هيكل في غابة

بها شتّى لوازم الحمام.

صعدت إلى الطابق العلوي وقرأت مسودة الطبع،

وسمعت الريح يدحرج البِلِيّ فوق السطح.

لعبارة «شاهد المتسول الأعمى يرقص، والكسيح يغني»

وقع بذيء جلي (٤٢٠)

موروث من عصرها المستحيل. ثم جاء نداؤك،

يا طائري المحاكي الشجي، من الفِناء.

جئت في الوقت المناسب لأنال صيتاً وجيزاً

وأشرب كأس شاي معك: اسمي

ذكر مرتين، كما العادة، خلف

«فروست» (ذي الخطوة النازّة).

«أمتأكدة أنك لا تمانعين؟

سألحق بطائرة «إكستون»، لأنك تعملين

إذا لم آتِ في منتصف الليل بالمال ـــ »

ثم كان هناك فيلم في السفر:

رحل بنا راوٍ مستضيف عبر ضباب (٤٣٠)

ليلة مارس، حيث كانت المصابيح الأمامية من بعيد

تقترب وتكبر مثل نجم متمدّد،

نحو البحر الأخضر، النيلي والأسحم

الذي زرناه سنة ثلاث وثلاثين،

تسعة أشهر قبل ميلادها. بات الآن كله

أشْمَطَ، يكاد لا يذكر

تلك النزهة الطويلة الأولى، والضوء العنيد،

وسرب الأشرعة (واحد أزرق بين البيضاء

تلاطم على نحو غريب مع البحر، واثنان كانا أحمرين)،

والرجل بالسترة القديمة، وفتات الخبز، (٤٤٠)

والنوارس المحتشدة صخبها لا يطاق،

وحمامة دكناء تتمايل وسط السرب.

«هل كان ذاك الهاتف؟» استرقت السمع في الباب.

لا شيء. التقطت البرنامج من الأرض.

مزيد من المصابيح في الضباب. لا فائدة

من مسح الزجاج: هناك فقط سياج أبيض

والأعمدة العاكسة تمضي مكشوفة.

سألت: «هل نحن متأكدان أنها تتصرف بشكل صحيح؟»

«من الناحية التقنية، إنه موعد أعمى، بالطبع.

حسناً، هل نشاهد متوالية الندم؟»(9) (٤٥٠)
وتركنا، بكل هدوء،

الفيلم الشهير ينشر سرادقه الساحر؛

انبثق الوجه الشهير، وسيما وفارغا:

الشفتان المنفرجتان، والعينان العائمتان،

وذرة الجمال على الخدّ، والسمة الغريبة،

والشكل الناعم الذائب في موشور

الرغبة الجماعية.

قالت: «أخال،

أنني سأنزل هنا.» «إنها «لوتشانهيد» فقط.»

«أجل. لا بأس في ذلك.» كانت تتشبث بالمقبض، وتحدق

في أشجار شبحية. توقف الباص. اختفى الباص. (٤٦٠)

الرعد فوق الغابة. «لا. إلا ذاك!»

«بات بينك»، ضيفنا (حديث ضد الذَّرية).

دقت الساعة الحادية عشرة. تنهدت. «حسناً، أخشى

أنه لم يعد هناك شيء ذو بال.» لعبت

الروليت: دار القرص وتَكّ.

قطعت الإعلانات، والتمعت الوجوه.

انطمس فم فاغر في منتصف أغنية.

كاد أبله ذو عِذارٍ

يخرج مسدسه، لكنك كنت أسرع منه.

رفع زنجي مرح مزماره. زمّر. (٤٧٠)

كتب خاتمك الياقوتي الحياةَ وسنَّ القانون.

آه، بدّليه! وعندما انقصفت الحياة، رأينا

ضوءاً ينبعث من دبوس يتلاشى وينطفئ

في البهيم اللامتناهي.

خرج من الكوخ بجانب البحيرة

حارس، الأب الزمان، أشيب كله وأحدب،

لاح مع كلبه الهائج وذهب

على طول الشطّ الكثير القصب. أتى متأخراً جدّاً.

تثاءبت على رسلك وأبعدت طبقك

سمعنا الريح. سمعناها تهبّ وتقذف

الأغصان على زجاج النافذة. هل يرن الهاتف؟ لا. (٤٨٠)

ساعدتك في غسل الصحون. ظلت الساعة الكبيرة

تدك الجذر الصغير، الصخر القديم.

قلت: «إنه منتصف الليل». ما منتصف الليل عند الشباب؟

وفجأة اندلع حريق احتفالي

في خمسة جذوع أرز، ظهرت بقع ثلجية،

وتوقفت سيارة دورية على طريقنا الوعر

على ضجيج الفرملة. استأنف، استأنف!

ظن الناس أنها حاولت عبور البحيرة

في «لوتشان نيك» حيث عبر متزلجون مستمتعون

من «إكس» إلى «واي» خلال أيام الصقيع الفارقة. (٤٩٠)

افترض آخرون أنها ربما ضلت طريقها

وهي تنعطف يسارا من «بريدجراود»؛ وقال البعض

إنها أنهت حياتها اليافعة التعيسة. أعرف. وتعرفين.

كانت ليلة ذَوْبٍ، ليلة عَصْفٍ،

في الجو اضطراب عظيم. وقف الربيع الأسود

على الأبواب، يرتجف

في ضوء النجوم الندي وعلى الأرض البليلة.

هجعت البحيرة في السّديم، نصف جليدها غارق.

اندفع قوام باهت من الشط المكسو بالقصب

إلى مستنقع مائر، جَرِعٍ، وغاص. (٥٠٠)

القطعة الثالثة:

الـ «if» شجرة مَوَات! «رابليه»، عظيمك ربما:

البطاطا الكبيرة.

I.P.H .،

معهد (P) علماني للتحضير (I)

للآخرة (H)، أو ألزمني «إف»،

كما أسميناه ـــ «إف» بحروف كبيرة! خلال فصل واحد

بأن أتحدث عن الموت («أن أحاضر عن الدود»،

هكذا كاتبني الرئيس «ماك أبير»).

انتقلنا، أنت وأنا،

وهي، كانت مجرد طفلة حينها، من «نيو واي»

إلى «يوشايد»، بولاية أخرى، بمكان أعلى.

أحب الجبال الشامخة. من البوابة الحديدية (٥١٠)

للمنزل المتداعي الذي اكتريناه هناك

كنا نرى شكلا ثلجيا، بعيداً جدّاً، وجميلاً جدّاً،

حتى إن الرائي لم يسعه سوى أن يتنهد،

كأنما لِيَرْفدَ الفهم.

كان الـIPH .

عُشّاً لليرقات والبنفسج:

قبرا في ربيع العقل المبكر. ومع ذلك،

غاب عنه جوهر الأمر كله؛ فاته

ما يعنى به الماضويُّ في الغالب؛

لأننا نموت كل يوم؛ يشبّ النسيان،

لا على عظام فخذ جافة، بل على حيوات تنضح بالدماء، (٥٢٠)

وصارت أفضل أيامنا الماضية الآن أكواما كريهة

من الأسماء غير المرتبة، وأرقام الهواتف والملفات الملطخة.

أنا مستعد لأصبح زُهَيْرَةً

أو ذبابة بدينة، لكن لن أنسى أبداً.

وسأرفض الخلودَ إلا إذا عثر

على شجن الحياة الفانية

وحنانها؛ وعلى الشغف والألم؛

والضوء الخلفي الأحمر لتلك الطائرة التي تتلاشى

في كوكب الزهرة؛ وإيماءتك بالحيرة

بعد نفاد سجائرك؛ وكيف (٥٣٠)

تبتسمين للكلاب؛ وأثر المخاط الفضّي

مما تخلفه الحلازين على البلاط؛ وهذا الحبر الجيد، هذه القافية،

هذه الجذاذة المفهرسة، هذا الشريط المطاطي الرقيق

الذي يصير مضموماً، كلما سقط،

عثر عليها الأموات الجدد في الجنة

مخزنة في معاقلها عبر السنين.

بالأحرى

افترض المعهد أن الحكمة ربما تقتضي

ألا نرجو أملاً كبيراً من الجنة:

ما العمل إن لم يكن هناك أحد يحيي

الوافد الجديد، لا استقبال، لا تمذهُب؟ (٥٤٠)

ماذا لو رُميتَ

في فراغ بلا حد، وعيل صبرك،

وتجردت روحك وصرت وحيداً تماماً،

ولم تكتمل مهمتك، وبات يأسك خفيا،

وأخذ جسدك للتو يتعفن،

ولا تستطيع التهندم لحظة التأنق في الصباح،

وأرملتك مستلقية على سرير باهت،

هي نفسها صارت غشاوة في ذهنك الذائب!

إذ نبذ الآلهة، بما فيها الإله الكبير،

استعار «م. تـ. آ.» بعض الأطلال الهامشية (٥٥٠)

من رؤى صوفية؛ وأسدى نصائح

(نظارات كهرمانية لكسوف الحياة) ـــ

حول تجنب الهلع عندما تصير شبحا:

امشِ وانزلق، واختر منحنى سلساً، واهبط،

وجابه الأجسام الصلدة وانزلق عبرها،

أو اترك شخصاً يتحرك فيك.

كيف تحدد في الحلكة، بتوق،

الأرض الجميلة، كريَّة اليشب.

كيف تبقى سليم العقل في لوالب الفضاء.

الاحتياطات الواجبة في حالة (٥٦٠)

تناسخ مسخ: ما العمل

إذا اكتشفت فجأة أنك

صرت الآن ضفدعاً صغيراً وضعيفاً

يستغيث وسط طريق مزدحم،

أو ديسماً أسفل صنوبرة لافحة،

أو أرَضَة كتاب في سِفْر منبعثٍ.

يعني الزمنُ التعاقبَ، والتعاقبُ التغيُّرَ:

ومن ثم، فالخلود ملزم ببلبلة

برامج الوجدان. نسدي النصح

للأرمل. تزوج مرتين: (٥٧٠)

يلتقي زوجتيه؛ كلتاهما محبوبتان، كلتاهما مُحِبَّتان،

تغار الواحدة من الثانية. يعني الزمنُ النموَّ.

ولا معنى للنمو في حياة الفردوس.

تتأسى الزوجة ذات الشعر الكتاني، وهي تداعب طفلا لا يقبل التبديل،

على حافة بحيرة تذكرتها،

مترعة بسماء حالمة. تجلس الأخرى، الشقراء أيضاً،

لكن بسمرة متوهجة لونها،

قدماها ممدوتان، ركبتاها متشابكتان، على درابزين حجري،

تجلس الأخرى وترنو بنظرة دامعة

إلى السديم الأزرق المنيع. (٥٨٠)

كيف يبدأ؟ أيهما يقبل أولاً؟ أي دمية

سيهدي إلى الرضيع؟ هل يعلم ذاك الولد الرزين الصغير

أن الارتطام، ذات ليلة عاصفة

في شهر مارس، قتل الأم والطفل معاً؟

وهي، الحبيبة الثانية، بقدميها الحافيتين

وأسودها كراقصة الباليه، لماذا تضع أقراطاً

من صوان مجوهرات الأخرى؟

ولماذا تشيح بوجهها الشاب العبوس؟

لأننا كما تعلمنا الأحلام، يستعصي

الحديث مع أمواتنا الأعزاء! فهم يتجاهلون (٥٩٠)

خوفنا وقلقنا وعارنا ـــ

الإحساس الرهيب بأنهم لا يتشابهون تماماً.

ولا يندهش زميلنا في المدرسة الذي قتل خلال حرب بعيدة

من رؤيتنا عند عتبة بيته.

ويشير بمزيج من المرح والأسى

إلى البِرَك في غرفته بالقبو.

لكن من يستطيع تعليم الأفكار التي يجب أن نستدعيها

عندما يتبين الصباح أننا نسير نحو الجدار

بإشراف خلفية لسياسي أبله ما،

ربّاح ذي زي موحد؟ (٦٠٠)

سنفكر في شؤون نعرفها نحن فقط ـــ

إمبراطوريات السجع، جزر الحساب؛

سننصت إلى الدِّيكة البعيدة تصيح، ونتبين

فوق السور الرمادي الخشن سرخس جدار نادر؛

وبينما تُقَيَّد أيدينا الملكية،

نهزأ بمرؤوسينا، ونسخر بمرح

من البلهاء المتفانين، ونبصق

في عيونهم لمجرد المتعة.

لا أحد يستطيع نُصْرَة المنفيِّ، الرجل الكهل

في نزع الروح بنزل، مع المروحة الهادرة (٦١٠)

التي تدور في ليلة البراري الحارّة

ومن الخارج، تصل أشعة ضوء ملون

إلى سريره مثل أيادٍ داكنة من الماضي

تمنح جواهر؛ والموت عجول في حلوله.

يختنق ويستعيذ بلسانين

من السُّدُم التي تتسع داخل رئتيه.

رضَّة، ثُلْمة ـــ ذاك كل ما يمكن أن نتوقعه.

قد يكتشف المرءُ العدمَ العظيم؛ وقد

يتلولب مجددا من عين الدَرَنَة.

كما لاحظت آخر مرة مررنا (٦٢٠)

بالمعهد: «لم أستطع فعلاً

أن أميز بين هذا المكان والجحيم.»

سمعنا حارقي الجثث يقهقهون وينخرون

عندما استهجن «غابرمان» ضرر

أنابيب السوائل على ميلاد الأشباح.

تحاشينا جميعاً نقد العقائد.

استعرض «ستاروفر بلو»(10) العظيم دور

الكواكب كمهابط الروح.

وكان قدر الوحوش موضوع تفكير مليٍّ.

وأسهب صيني في آداب شرب الشاي (٦٣٠)

مع الأجداد، وفي مدى الارتحال.

بترت أوهام «بو»،

وعالجت ذكريات طفولية عن ومضات

متلألئة غريبة ليست في متناول الراشدين.

كان بين المنصتين كاهن شاب

وشيوعي كهل. صار بمقدور «م. تـ. آ.» على الأقل

أن يتنافس مع الكنائس وخطّ الحزب.

في السنوات اللاحقة أخذ ينتكس:

تجذرت البوذية. هرّب وسيط

هلاما شاحبا ومندولينا عائما. (٦٤٠)

تسلل «فرا كرامازوف» إلى بعض الفصول

يتمتم بسخافة: كل شيء مباح؛

ولتحقيق أمنية الرحم،

ذهب تيار من الفرويديين إلى المقبرة.

ساعدتني تلك المجازفة البائخة إلى حد ما.

علمت ما سأتجاهله في بحثي

حول هاوية الموت. وعندما فقدنا طفلتنا

عرفت أنه لن يكون هناك شيء: لا روح مزيفة

ستلمس لوحة مفاتيح من الخشب الجاف

لتتهجى اسمها المدلل؛ ولا شبح (٦٥٠)

سيقف بلباقة ليرحب بك وبي

في الحديقة المظلمة، قرب شجرة الجوز.

«ما ذاك الصرير الغريب... هل تسمعه؟»

«هو المصراع في الدرج، يا حبيبتي.»

«إذا لم تكن نائما، فلنشعل النور.

أكره تلك الريح! لنلعب الشطرنج.» «حسناً.»

«أنا متأكدة أنه ليس المصراع. هناك... ثانية.»

إنها ألياف تتحسس زجاج النافذة.»

«ما الذي انزلق من السقف وأحدث ذاك الصوت المكتوم؟»

هو الشتاء المتأخر يتعثر في الوحل.» (٦٦٠)

والآن ماذا سأفعل؟ بات فارسي متسمّراً.»

من يهيم متأخراً في الليل والريح؟

هو شجن الكاتب. هو ريح مارس العاصف.

هو الأب رفقة ابنه.

لاحقاً حلت دقائق، وساعات، وأيام كاملة في النهاية،

حينما ستغيب عن أفكارنا،

كما الحياة، جرت اليرقة الوبراء بسرعة.

ذهبنا إلى إيطاليا. تمددنا تحت الشمس

في شاطئ أبيض رفقة أمريكيين آخرين

حُمْر أو سُمْر. وطِرْنا عائدين إلى مدينتنا الصغيرة. (٦٧٠)

وجدت أن سلسلة مقالاتي فرس البحر الجامحة

حظيت بـ«استحسان عالمي»

(بيع منها ثلاثة آلاف نسخة في سنة واحدة).

ثم انطلقت الدراسة، وعلى سفوح التلال حيث

تلتف الطرق البعيدة، يُرى الموكب المتواصل

من مصابيح السيارات، كلها عائدة إلى حلم

الدراسة الجامعية. واصلت

ترجمة «مارفيل» و»دون» إلى الفرنسية.

كانت سنة عواصف: هبَّ

إعصار «لوليتا» من «فلوريدا» إلى «ماين» (٦٨٠(

توهَّج المريخ. تزوج شهَاه. تجسس روس متجهمون.

رسم لك «لانغ» صورة. وذات ليلة مُتُّ.

كافأني «نادي كراشاو» لأناقش

لِمَ الشعرُ ذو مغزى لنا.

ألقيتُ خطبة، كانت مضجرة لكن وجيزة.

إذ استعجلت الرحيل، لأحبط

ما يسمى بـ«فترة الأسئلة» في الأخير،

وقف واحد من أولئك المتشككين الذين لا يحضرون

مثل هذه الأحاديث إلا ليعترضوا

وأشار بغليونه إليَّ. (٦٩٠)

ثم حدث ذلك ـــ النوبة، الغيبوبة،

أو عارض من عوارضي القديمة. كان هناك بالصدفة

طبيب يجلس في الصف الأمامي. عند قدميه

سقطت سقطةً مناسبة. يبدو أن قلبي توقف نبضه،

ومضت لحظات عديدة قبل

أن يخفق ويواصل المشي متعبا

إلى وجهة نهائية. أعيروني الآن

انتباهكم الكامل.

لا أستطيع أن أخبركم كيف

عرفتُ ـــ لكني عرفت فعلاً أنني عبرت

الحدود. ضاع كل ما أحببتُ (٧٠٠)

لكن لا وَتين أنبأ بالندم.

تداعت شمس مطاطية وغربت؛

وأخذ العدم الدموي الداكن ينسج

نظاما من خلايا مترابطة داخل

خلايا مترابطة داخل خلايا مترابطة

داخل جذع واحد. واندفع ماء نافورة بيضاء كبيرة،

بارزة معالمها للغاية في الحلكة

أدركت، بالطبع، أنها لم تصنع

من ذراتنا؛ وأن المعنى المراد من

المشهد لم يكن معنانا. في الحياة، يستعجل عقل (٧١٠)

أي إنسان إدراك

خدع الطبيعة، وهكذا، أمام عينيه،

يصير اليراع(11) طائراً، والعسلوج كثير العقد

يسروعا، ورأس الصِّلِّ عثةً كبيرة

منطوية بمكر على نفسها. لكن في حالة

نافورتي البيضاء، ما حلت محله في التصور

كان شيئاً لا يمكن أن يدركه، كما شعرت،

إلا من أقام في العالم الغريب

حيث كنت مجرد تائه.

ورأيته الآن يتلاشى: (٧٢٠)

رغم أني ما أزال فاقداً الوعي، عدت إلى الأرض.

أطرب ما حكيتُه الطبيبَ.

لم يصدق أن المرء، في الحالة

التي أدركني فيها، «قد يهذي

أو يحلم بمعنى ما. في وقت لاحق، ربما،

لكن ليس خلال الانهيار الراهن.

لا، السيد «شايد».»

لكني مُتُّ، يا طبيب!

ابتسم وقال: «ليس تماماً: كنت نصف ظل فحسب، يا «شايد».»

غير أني ترددت. في سريرتي ظللت

أستعيد الحدث كلّه. ثم نزلت (٧٣٠)

من المنصة، وشعرت بنفسي غريباً ومنفعلاً،

ورأيتُ ذلك الرجل يقف، ووقعتُ، لا

لأن حفيّاً أشار إلي بغليونه،

بل ربما لأن الوقت حان

ليرتطم ويترنح ذلك

المنطاد المترهل، القلب الكهل الضعيف.

تمور رؤيتي بالحقيقة. لها نبرة

وجوهر وطرافة واقعها

الخاص. كانت. مع مرور الوقت،

تلألأ عمودها الثابت منتصراً. (٧٤٠)

في الغالب، حينما انزعجت من أضواء الشارع

الخارجية وغليانه، عدتُ إلى ذاتي، وهناك،

هناك في خلفية روحي وقف،

المؤمن الشيخ! سيواسيني حضوره دائماً

على نحو بديع. ثم، ذات يوم،

عثرت صدفة على ما بدا عرضاً متماثلاً.

كانت قصة في مجلة

حول سيدة اسمها «ز.»، استعاد قلبها

الحياة على يد جراح رشيقة.

حدثت مُحاورها عن «الأرض (٧٥٠)

خلف الحجاب» والحكاية التي تضمنت

تلميحاً إلى الملائكة، وومضة نوافذ مزخرفة،

وبعض الموسيقى الهادئة، وتراتيل

مختارة، وصوت والدتها؛

لكنها أشارت في النهاية إلى

منظر طبيعي بعيد، إلى بستان أربد ـــ وأقتبس:

«خلف ذلك البستان، عبر دخان،

لمحت نافورة بيضاء كبيرة ـــ واستيقظت.»

إذ رأى القبطان «سميث»، على جزيرة مغمورة،

حيواناً جديداً، وأمسك به، (٧٦٠)

وإذا عاد القبطان «سميث»، بعيد ذلك،

بجلد، لن تبقى تلك الجزيرة أسطورة.

كانت نافورتنا مناراً ومعلماً

تكابد بتجرد في الظلام،

متينة مثل عظم، مكينة مثل ضرس،

وتكاد تكون عادية في حقيقتها الراسخة!

المقالة من توقيع «جيم كاوتس». إلى «جيم»

كتبتُ على الفور. حصلت على عنوانها منهُ.

قطعت إلى الغرب ثلاثمائة ميل لأحدثها.

وصلتُ. قابلني خرير هائج. (٧٧٠)

رأيت ذاك الشعر الأزرق، وتلك اليدين الكَلِفَتَيْن، وتلك السحنة

السحلبية الجذلة ـــ وأدركت أنني وقعت في الشَّرَك.

«من ستفوته فرصة اللقاء

بشاعر بارز جدّاً؟» لكم آثرت

أن آتي! حاولت عبثا

أن أطرح أسئلتي. نُحِّيت جانباً:

«ربما في موعد آخر.» مازال الصحافي

يحتفظ بخربشاتها. يجب ألا ألح.

قدمت لي حلوى بالفاكهة، وحولت كل شيء

إلى زيارة اجتماعية بلهاء. (٧٨٠)

قالت: «لا أصدق أنك أنت!

أحببت قصيدتك «بلو ريفيو»(12).

تلك القصيدة حول «مون بلان»(13). لي ابنة أخ

تسلقت قمة «ماترهورن». لم أستطع فهم

القطعة الأخرى. أقصد المعنى.

بسبب الجرس، طبعاً ـــ لكنني بلهاء!»

كانت كذلك. عساني ثابرت. عساني

جعلتها تخبرني أكثر عن النافورة

البيضاء التي رأينا معاً «خلف الحجاب»

لكن (فكرت) لو ذكرت ذلك التفصيل (٧٩٠)

لانقضتْ عليه، كما على ألفة

أثيرة، لُحمة مقدسة،

توحدني وإياها صوفيا،

وفي لمح البصر، تصير روحانا

أخاً وأختاً يرتعشان على حافة

سفاح ناعم بين المحارم. قلت: «حسناً، أظن

أن الوقت تأخر...»

عرجت كذلك على «كاوتس».

خشي أن يكون أضاع ملاحظاتها.

أخرج مقالته من إضبارة حديدية: ـــ

«إنها دقيقة. لم أغيّر أسلوبها. (٨٠٠)

ثمة خطأ مطبعي واحد ـــ لا أهمية له:

«fountain (14)»، لا «mounatin). اللمسة الجليلة.»

الحياة الأبدية ـــ قائمة على خطأ مطبعي!

تأملت وأنا عائد: أأقبل التلميح،

وأتوقف عن استقصاء هاويتي؟

لكن فجأة لاح لي أن هذا

كان هو السؤال الحقيقي، الموضوع الطباقي؛

لا شيء غير هذا: لا النص، بل البناء؛ لا الحلم

وإنما صدفة مقلوبة،

لا سخافة واهية، وإنما نسيج من المعاني. (٨١٠)

أجل! كان الأجدى أن أجد في الحياة

رابطاً مضللاً ما،

ونمطاً مترابطاً ما في اللعبة،

وصنعة متشابكة، وبعض المتعة ذاتها

التي غمرت اللاهين بها.

لا أهمية في معرفة من كانوا. لا صوت.

لا نورَ خافتا انبعث من مسكنهم

الدائري، لكن كانوا هناك، حذرين وصامتين،

يلعبون لعبة العوالم، ويحولون البيادق

إلى وحيدات قرن عاجية وغزالات آبنوسية؛ (٨٢٠)

يشعلون حياة طويلة هنا، ويخمدون

واحدة قصيرة هناك؛ يقتلون ملكاً بلقانيّاً؛

يسقطون قطعة جليد تكونت فوق طائرة

تحلق في علياء السماء

وتقتل فلاحا؛ يخفون مفاتيحي،

أو نظارتي أو غليوني. ينسقون

هذه الرياح والأشياء مع أحداث بعيدة

وأشياء دارسة. يصنعون زخارف

من الحوادث والاحتمالات.

دخلت البيت بمعطفي الشتوي: «سيبيل»، إنها (٨٣٠)

قناعتي الراسخة ـــ «يا عزيزي، أغلق الباب.

هل استمتعتَ برحلة جميلة؟» رائعة ـــ لكن ما هو أكثر

عدت مقتنعاً أنني أستطيع أن أتلمس

طريقي نحو بعض ـــ نحو بعض ـــ «أجل، يا عزيزتي؟» أمل ضعيف.

القطعة الرابعة:

الآن سأتجسس على الجمال كما لم

يتجسس عليه أحد حتى الآن. سأصرخ الآن

كما لم يصرح أحد. سأحاول الآن ما لم

يحاوله أحد. سأفعل الآن ما لم يفعله أحد.

وأنا أتحدث عن هذه الآلة العجيبة؛

استعصى علي التمييز (٨٤٠)

بين نهجين في التأليف: أ، النهج

الذي يجري في ذهن الشاعر وحده،

بتجريب الكلمات البليغة، وهو

يدهن ساقاً للمرة الثالثة، وبـ،

النهج الآخر، الأجدر، عندما

يكون في مكتبه يكتب بقلم.

في النهج بـ، تدعم اليدُ الفكرَ،

تخاض المعركة المجردة بشكل ملموس.

يتوقف القلم في الهواء، ثم يهوي ليرسم

غروباً منسوخاً أو يستعيد نجماً، (٨٥٠)

ومن ثم يوجه العبارة ماديّاً

نحو فجر خافت عبر المتاهة الحبرية.

لكن النهج أ عذابٌ! سرعان ما

يتقوقع الذهن داخل قبعة ألمٍ حديدية.

توجه إلهة الإلهام، وهي ترتدي بذلة العمل، المثقابَ

الذي يجْرِشُ والذي لا يستطيع جهدُ أي مشيئة

أن يوقفه، بينما يخلع الإنسان الآلي

ما ارتداه للتو

أو يهبُّ متوجهاً إلى المتجر في الزاوية

ليشتري الصحيفة التي قرأ من قبل. (٨٦٠)

لِمَ الأمر هكذا؟ ألأنه لا توجد، ربما،

في العمل بلا قلم، استراحة مؤقتة للقلم

وعلى المرء أن يستخدم ثلاثة أيدٍ في الآن ذاته،

وعليه أن يختار القافية اللازمة،

ويبقي البيت الكامل تحت ناظره،

ويحفظ في ذهنه المحاولات السابقة؟

أم أن العملية تصير أعمق بلا مكتب

لإسناد الخطأ والارتقاء بالشعري؟

لأن هناك تلك اللحظات الغامضة، عندما

يصير حذفها مرهقاً جدّاً، أُسقطُ القلمَ؛ (٨٧٠)

أتنقل ـــ وبأمر صامت

تصدح الكلمة الصحيحة وتحط في يدي.

وقتي الأفضل الصباح؛ وموسمي

المفضل منتصف الصيف. ذات مرة، سمعتني

أنهض بينما نصف مني

مازال نائما في السرير. أطلقت سراح روحي،

وأدركت نفسي ـــ على العشب

حيث تحجم أوراق البرسيم توبازَ الفجر،

وحيث وقف «شايد» بقميص النوم وحذاء واحد.
وأدركت حينها أن هذا النصف أيضاً (٨٨٠)

غط في النوم بسرعة؛ ضحكا معاً واستيقظت

آمنا في سريري عندما كسر النهار قوقعته،

وسارت طيور أبي الحناء وتوقفت، وعلى المرج

المتلألئ الندي، لاح حذاء بنّي! طابَعي السرّي،

وختْم «شايد»، والغموض الفطري.

السراب، والمعجزات، وصبح منتصف الصيف.

بما أن كاتب سيرتي قد يكون رزيناً جدّاً

أو لا يعرف إلا النزر القليل ليؤكد أن «شايد»

حلق في حمامه، هنا المثال:

«أصلحَ خللاً

في مفصلة ولولب، في دعامة حديدية (٨٩٠)

على طول الحمام ليثبت

مرآة الحلاقة أمام وجهه

وبإصبع قدمه يجدد حرارة الصنوبر،

يجلس هناك مثل ملك، وينزف مثل «مارا».(15)
كلما زاد وزني، قلّت مناعة بشرتي؛

رقيقة هي في بعض الأماكن على نحو يثير السخرية؛

هكذا، قرب الفم: يدعو المدى بين ثغره

وتجهمي الثلمَ الأثيم.

أو هذا الغبب: ذات يوم سأعفو

عن لحية رفيعة متأصلة فيّ. (٩٠٠)

حَرقدتي إجاصةٌ لاذعة:

سأتحدث الآن عن الشر واليأس

كما لم يفعل أحد. خمس، ست، ثماني،

تسع ضربات لا تكفي. عشر. أتحسس

عبر الفراولة والقشدة المعمعة الدامية

ولا أجد تغيراً في تلك الرقعة الشائكة.

لي شكوكي حول رجل ذي يد واحدة

يسوي، بضربة منسابة في الإعلانات،

طريقاً لحميّاً ناعماً من الأذن إلى الذقن،

ثم يمسح وجهه ويتلمس بشرته بولع. (٩١٠)

أنا في فئة ذوي اليدين الهُوُسِ.

وإذ يسند فتى برداء محكم

أنثى في رقصة بهلوانية،

ترفد يدي اليسرى وقفتها وتمسكها وتنقلها.

سأتحدث الآن... أفضل من أي صابون

هل الإحساس الذي يأمله الشعراء

يرسل الإلهام وميضه الجليدي،

الصورة الباغتة والعبارة الآنية،

على الجلد مُويجات ثلاثية

تَزْبَئِرُّ لها جميع الشعيرات (٩٢٠)

كما في الرسوم المتحركة المكبرة

للسبلات التي تُقَصُّ عندما يدعمها مرهمُنا.

سأتحدث الآن عن الشر كما

لم يفعل أحد. أكره أشياء مثل الجاز؛

الأبله ذا البنطلون الأبيض القصير معذِّب

الثور الأسود ذي الخطوط الحمراء؛ الطُّرَف المجرّدة؛

الأقنعة الشعبية البدائية؛ المدارس التقدمية؛

الموسيقى في الأسواق الممتازة؛ المسابح؛

المتوحشين، المملين، الحافظين المهتمين بالطبقات، «فرويد»، «ماركس»،

المفكرين المزيفين، الشعراء المزهوين، والمحتالين وأسماك القرش. (٩٣٠)

وبينما موسى الحلاقة تحُفُّ وتصُرُّ

في سفرها عبر بلاد خدّي؛

تمضي عربات على الطريق السيّار، وعلى الحَدَرِ

تنعرج شاحنات كبيرة، تدبّ حول حَنَكي،

والآن ترسو سفينة صامتة، والآن

يطوف سياح بنظارات سوداء في بيروت، والآن أحرث

حقول «زمبلا» القديمة حيث تنبت لحيتي الرمداء،

ويحصد العبيد التبن بين فمي وأنفي.

حياة الإنسان مثل حاشية على قصيدة

مبهمة غير مكتملة. ملاحظة لاستعمال لاحق. (٩٤٠)

وأنا ألبس في كل الغرف، أُقَفِّي الكلام وأهيم

في البيت، وفي قبضتي مشط

أو قرن يصير ملعقة

آكل بيضتي. في الصباح،

تقوديننني إلى المكتبة. نتعشى

في السادسة والنصف. ترافقني ملهمتي الغريبة،

ذلك الشكل المتبدل، في كل مكان،

في مقصورة المكتبة، في العربة، وفي كرسي.

وطيلة الوقت، وطوال الوقت، يا حبيبتي،

أنت هناك أيضاً، تحت الكلمة، فوق (٩٥٠)

المقطع اللفظي، لتأكيد وإبراز

النظم الجوهري. سمعنا فستان امرأة

يهفهف في الأيام الخوالي. لطالما أدركت

صدى وفحوى فكرك المقترب.

وكل ما فيك شبابٌ، تجددين ما وهبتك من أشياء قديمة

وأنت تقتبسينها.

خليج العتمة هو كتابي الأول (الشعر الحر)؛ تلاه

هدير ليلي؛ ثم كأس هيب(16)، الرَّمَثُ الأخير

في ذلك الكرنفال المندَّى، لأنني أسمّي الآن

كل شيء «شعراً»، ولم أعد أغتاظ. (٩٦٠)

لكن هذا الهذر الشفاف يحتاج

إلى عنوان خيالي ما. ساعدني، يا «ويل»! نار شاحبة.)

بتمهل مضى اليوم في همهمة ألفةٍ

خفيضة متواصلة. نضب الدماغ

ونَوْرة هِرِّية جوزية، والاسم الذي نويت

استخدامه ولم أفعل، جَفَّا على الإسمنت.

ربما ينهض حبّي الشَّبِق للحرف الساكن

الداعم، ابن الصدى المشؤوم، على

إحساس بحياة مُعَدَّة بالخيال،

ثَرَّة بالسجع. (٩٧٠)

أشعر أنني أفهم

الوجود، أو على الأقل الجزء الدقيق

من وجودي، فقط عبر فنِّي،

من حيث توليفة اللذات؛

وإذا تفعَّل عالمي الخاص،

كذلك سيتفعَّل بيت المجرات المقدسة

الذي أظنه بيتٌ إيامبي.

إنني موقن أننا نعيش

وأن حبيبتي مازالت في مكان ما على قيد الحياة،

كما إنني موقن أنني

سأستيقظ في السادسة غدا، الثاني والعشرين (٩٨٠)

من يوليوز، تسعة وخمسين وتسعمائة وألف،

وإن اليوم سيكون ربما رائعاً؛

لذا دعني أضبط المنبه بنفسي،

أتثاءب، وأعيد «قصائد» «شايد» إلى رفِّها.

لكن لم يحن وقت النوم بعد. بلغت الشمس

النافذتين الأخيرتين في بيت الكهل الطبيب «ساتن».

لا بد أن الرجل بلغ ـــ ماذا؟ الثمانين؟ الثانية والثمانين؟

كان عمره ضعف عمري عندما تزوجتك.

أين أنت؟ في الحديقة. أستطيع أن أرى

جزءاً من ظلك قرب شجرة الجوز. (٩٩٠)

في مكان رميت حدوات الحُصُن. طق طقطق.

(يتكئ المصباح على عموده مثل سكير.)

تحوم بشّورة سوداء بزنّارها القرمزي

في الشمس اللطيفة، تحط على الرمل

وتظهر جناحيها الأزرقين الحبريين المرقطين بالأبيض.

وعبر الظل المتدفق والنور المتضائل

يمضي رجل، لامبالٍ بالفراشة ـــ

أظنه بستانيَّ جارٍ ـــ

يدفع عربة فارغة فوق الممرّ.

(2) طائر أمريكي غريد يتميز بقدرته البارعة على محاكاة أصوات الطيور الأخرى (المترجم).

(3) "chippo-chippo", to-wee", "come here", "come herrr".

(4) الإشارة هنا إلى قصيدة كتبها الشاعر الإنجليزي «جون كيتس» تعبيراً عن إعجابه بأعمال الشاعر اليوناني «هوميروس»، بعد أن ترجمه المسرحي «جورج تشابمان» (المترجم).

(5) التريليوم أو الإطرليون نبتة من جنس الزنابق، لها زهرة ذات تويجات ثلاث، وهي تنمو بالمناطق الرطبة في أمريكا الشمالية وآسيا (المترجم).

(6) «فانيسا» نوع من الفراشات الملونة المعروفة في أمريكا الشمالية. تعرف في العربية باسم البشورة. سيجد القارئ مزيدا من التوضيح لهذه الاستعارة في تعليق السارد على هذا البيت بالذات لاحقاً (المترجم).

(7) جنس من النباتات الوردية ذات لون أبيض، وهي تنتشر أكثر في أوربا وآسيا (المترجم).

(8) لعبة صينية قديمة يلعبها أربعة أشخاص باستخدام أحجار أو قطع خاصة بها.

(9) الإحالة هنا إلى مقطع من فيلم السفر الذي يتحدث عنه الشاعر (المترجم).

(10) "النجمة فوق الزرقة» هو المعنى المباشر لهذا الاسم (المترجم).

(11) المقصود هنا نوع من القصب (المترجم).

(12)."Blue Review"

(13) اسم قمة جبلية تقع على الحدود الإيطالية الفرنسية (المترجم).

(14) «الجبل، لا النافورة» (المترجم).

(15) "جان بول مارا» (1743 ــ 1793) هو أحد أبرز منظري وقادة الثورة الفرنسية، كان تأثيره في الجماهير الثائرة كبيراً وعميقاً، لكنه كان متعطشاً للدماء. اغتيل على يد فتاة تدعى «ماري آن شارلوت كورديه دارمان». ونال شرفا لم يكن يحلم به في حياته (المترجم).

(16) "هيب» هي إلهة الشباب، وهي ابنة «زيوس» و»هيرا»، وقد خدمت ساقية للآلهة لفترة طويلة في مجمع الأولمب، حسب الأسطورة اليونانية (المترجم).

التعليق

الأبيات ١ ـــ ٤: كنت ظلَّ شمعيٍّ جناح اغتاله، الخ.

تحيل الصورة، في هذه الأبيات الأولى، بشكل جلي، إلى طائر ارتطم، في ذروة تحليقه، بالواجهة الخارجية للوح زجاجي، تُوهِم سماء منعكسة عليه، بلونها الأدكن بعض الشيء وسحابة أقلّ سرعة إلى حد ما، بوجود فضاء متواصل. بمقدورنا أن نتخيل «جون شايد» في طفولته المبكرة، فتى ذا قامة غير جذابة، لكنه خلاف ذلك فتى راقٍ على نحو جميل، يختبر صدمته الإسكاتولوجية الأولى، وهو يلتقط بأصابعه المرتابة، من العشب، ذلك الجسم البيضوي المضغوط، ويحدق في الخطوط الشمعية الحمراء التي تزخرف ذينك الجناحين الرماديين ـــ البنيين، وفي ريشات الذيل الرشيق ذات الأطراف الصفراء المتلألئة كأنها رسم حديث. عندما حالفني الحظ بأن أصبح جار «شايد» خلال العام الأخير من حياته في تلال «نيوواي» الشاعرية (انظر التوطئة)، غالباً ما رأيت تلك الطيور المميَّزة تتغذى، بقصف أكبر، على الحبوب الزرقاء الطبشورية للعرعر النابت في زاوية بيته. (انظر كذلك البيتين ١٨١ ـــ ١٨٢.)

اقتصرت معرفتي بطيور الحديقة على تلك المنتشرة في أوربا الشمالية، لكن بستانيا شابا في «نيوواي»، أثار اهتمامي (انظر التعليق على البيت ٩٩٨)، ساعدني على تحديد ملامح عدد لا بأس به من الفراخ الغريبة ذات المظهر المداري وزقزقاتها المضحكة؛ وبالطبع، ألَّب رأس كل شجرة حدَّه المنقوط على كتاب علم الطيور الموضوع على مكتبي الذي خببْتُ إليه من العشب في حركة انفعالية عُرفية. كم استعصى علي أن أجعل اسم «أبي الحناء»(17) يناسب نصاب الضواحي، الديك القبيح، ببزته الوسخة الحمراء الباهتة والذوق المقزز الذي أظهره عندما كان يأكل ديداناً طويلة وحزينة وهامدة!

ويدفع الفضول، على سبيل المصادفة، إلى ملاحظة الشبه الكبير بين طائر ذي قنزعة يعرف في اللغة «الزمبلية» باسم «سامبيل» («ذو ذيل الحرير»)؛ وبين شمعي الجناح في شكله ولونه، ويمثل نموذجاً من نماذج المخلوقات المبشِّرة الثلاثة (الآخران هما تباعا الرنّة الأصيلة والغُرانق اللازوردي ذو العُفرة الذهبية) المزيّنة لشعار النبالة لملك «زمبلا»، «تشارلز المحبوب» المولود سنة ١٩١٥)، الذي غالباً ما ناقشتُ مصائبه العظيمة مع صديقي.

شرع الشاعر في كتابة القصيدة مع نهاية نصف السنة، دقائق بعد منتصف ليلة فاتح يوليوز، بينما كنت ألعب الشطرنج مع شاب إيراني مسجل في دروسنا الصيفية. ولا أشك أن شاعرنا أدرك افتتان شارِحه بتزامن حدثٍ مصيري، وهو رحيل «غرادوس» المكلف بقتل الملك عن «زمبلا»، في

ذلك التاريخ. في الواقع، غادر «غرادوس» «أونهافا» على متن طائرة متوجهة إلى «كوبنهاغن» يوم ٥ يوليوز.

البيت ١٢: تلك الأرض البلورية

هي ربما إشارة إلى «زمبلا»، بلادي العزيزة. بعد هذا، نقرأ في المسودة المندرسة شبه المتفسخة التي لست على يقين مطلقاً أنني فككت مغالقها على نحو صحيح:

آه، يجب ألا أنسى أن أقول شيئاً

إن صديقي أخبرني عن ملكٍ ما.

يا للحسرة، كان بمقدوره أن يخبر بأشياء أكثر لو لم تراقب مناهضة «الكارلية» من أهل البيت كلَّ بيت وافاها به! كم مرة أنّبتُه بطريقة مازحة: «يجب حقّاً أن تعد باستعمال كل ذلك المتن المدهش، أيها الشاعر الأشيب الطائش!» وكنا نقهقه معاً مثل الفتيان. لكن بعدئذ، وبعد جولة المساء الملهمة، كان علينا أن نفترق، وكان الليل الكالح يرفع الجسر المتحرك بين قلعته الحصينة وبيتي المتواضع.

سيذكر بعضُ المؤرخين النبهاء على الأقل عهدَ ذلك الملك (١٩٣٦ ــ ١٩٥٨) بوصفه عهدا مستتبا ورائعا. إذ لم يُشِن «مارس» سجلات زمنه أبداً، بفضل نظام مرن من التحالفات الحكيمة. فعلى الصعيد الداخلي، عمل «ميدان الشعب» (البرلمان) في انسجام تام مع المجلس الملكي، إلى أن تسرب إليه الفساد والخيانة والتطرف. أجل، كان الانسجام هو كلمة السر لذلك العهد. ازدهرت الفنون الأدبية والعلوم الدقيقة. وسمح بتطور التكنولوجيا والفيزياء التطبيقية والكيمياء الصناعية وغيرها. وكانت ناطحة سحاب صغيرة ذات زجاج لازوردي ترتفع بثبات في «أونهافا». وبدا أن المناخ أخذ يتحسن، حيث أصبحت الضرائب شيئاً جميلاً. وثري الفقراء إلى حد ما، ونقصت ثروة الأغنياء بعض الشيء (انسجاماً مع ما يمكن أن يعرف يوماً ما بـ«قانون كينبوت»). وأخذت الرعاية الطبية تنتشر إلى تخوم الدولة: شيئاً فشيئاً، قلما صار طريقُ الملك الودود والمفوَّه يعترضه زاعقٌ تنتابه نوبة سعال وسط حشد من التلاميذ، خلال جولته في البلاد، كل خريف، عندما تنثني أغصان الغبيراء بثمارها المرجانية اللون وتئز البرك بزجاج مائي مسكوفي. وأصبح القفز بالمظلات رياضة شعبية. باختصار، كان الجميع راضيا ــ حتى المحرضون السياسيون الذين كانوا يتواطؤون على إثارة قلاقل يمولها فاعل مقتنع (جار «زمبلا» الجبّار). لكن دعونا نترك هذا الموضوع المعضل جانباً.

لنعد إلى الملك: خذ على سبيل المثال مسألة الثقافة الشخصية. كم مرةً ينخرط الملوك في بعض الأبحاث الخاصة؟ يمكن أن يعدّ المهتمون منهم بعلم المحاريات على رؤوس أصابع يدٍ جذماء. إذ

كرّس آخر ملوك «زمبلا» ـــ الذي كان متأثراً جزئيّاً بخاله «كونمال»، المترجم العظيم لأعمال شكسبير (انظر التعليقات على الأبيات ٣٩ ـــ ٤٠ و٩٦٢) نفسه بشغف لدراسة الأدب، رغم آلام الشقيقة المتكررة. وفي سن الأربعين، قبيل سقوط عرشه، بلغ درجة من المعرفة حتى إنه تجرأ على تلبية ما التمسه خاله الموقّر بصوت محتضر أجش: «علِّم «كارليك»!» بالطبع، كان من غير اللائق أن يظهر ملك بجُبّة المتعلم في منصة جامعة ويقدم لشباب متورّدين رواية صحوة فينيغانز(18) بوصفها امتداداً شنيعاً «للمحاضر المفككة» التي كتبها «أنغوس ماك ديارميد» ولـ»ساوثيز لينغو غراندي» («عزيزي «ستامبارومبر»»، الخ.) أو يناقش التهجيات «الزمبلية» لـ»كونغس ـــ سكوغ ـــ سيو» (المرآة الملكية) التي جمعها «هودينسكي» سنة ١٧٩٨، وهي تحفة مجهولة تعود إلى القرن الثاني عشر. هكذا، حاضر باسم مستعار، مقنعاً بمساحيق تجميل سميكة، وشعر مستعار وشارب مزيف. إذ يتشابه جميع «الزمبليين» ذوو اللحى البنية والخدود النضرة والعيون الزرقاء، وأشبه أنا الذي لم أحلق لحيتي لحد الآن منذ سنة ملكي المقنّع (انظر التعليق على البيت ٨٩٤).

خلال فترات التدريس تلك، ابتدع «تشارلز زايفير» سُنّة النوم في مسكن مؤقت اكتراه، كما يفعل أي مواطن متبحر، في جادة «كوريولانوس»؛ وهو عبارة عن استوديو بديع متوسط الحرارة، يتجاور به حمام ومطبخ صغير. إذ يتذكر المرء بمتعة حنينية سجاده الرمادي الفاتح وجدرانه الرمادية اللؤلؤية (واحد منها مزين بنسخة يتيمة من لوحة
«بيكاسو» الموسومة بـالشمعدان والقِدر والإناء الموشى) ورفّاً من دواوين شعرية مغلفة بجلد البقر، وأريكة ذات مظهر نظيف أسفل سجاده ذي فرو الباندا الزائف. كم بدت هذه البساطة الجلية بعيدة عن القصر وصالة المجلس المقيتة بمشاكلها المستعصية ومستشاريها المذعورين!

البيت ١٧: ثم المتدرج؛ البيت ٢٩: الرمادي

يبدو أن شاعرنا يشير هنا، عبر صدفة استثنائية (ملازمة ربما للطبيعة الطباقية في فنّ «شايد») (بالمتدرج، الرمادي) إلى رجل كان سيلتقي به في لحظة قاتلة بعد ثلاثة أسابيع، لكنه لم يكن ليعلم بوجوده حينها (يوم ثاني يوليوز). إذ كان «جاكوب غرادوس» يطلق على نفسه أسماء مختلفة مثل «جاك ديغري» أو «جاك دو غراي» أو «جيمس دو غراي»، كما يظهر في سجلات الشرطة باسم «رافوس» و»رافينستون» و»دارغوس». وبما أنه متعلق حدّ المرَض بروسيا الحمراء في العهد السوفياتي، فقد زعم أن البحث عن الأصل الحقيقي لاسمه يجب أن ينصب على الكلمة الروسية التي تعني العنب؛ أي «فينوغراد» التي أضيف لها لاحق لاتيني، لتصبح
«فينوغرادوس». كان والده «مارتن غرادوس» قسيساً بروتستانتيّاً في «ريغا»، لكن ما عداه وما عمّاً من جهة والدته («رومان تسيلوفالنيكوف»، وهو ضابط شرطة وعضو غير متفرغ في الحزب الاشتراكي الثوري)، يبدو أن العشيرة كلها تتعاطى تجارة الكحول. مات «مارتن غرادوس» سنة ١٩٢٠، وانتقلت أرملته إلى «ستراسبورغ» حيث سرعان ما ماتت هي أيضاً. وتبنى «غرادوس» آخر ـــ وهو تاجر ألزاسي لم تكن تربطه بالقاتل الذي نتحدث عنه أي قرابة بتاتا على نحو غريب، لكنه ظل صديقاً تجاريّاً مقرباً من أقاربه لسنوات ـــ الفتى وربّاه مع أولاده.

والظاهر أن «غرادوس» الشاب درس علم الصيدلة في «زيوريخ» في فترة ما، ثم طاف في وقت لاحق بين مزارع كروم متذوقاً نبيذ جوَّاب. سنجده بعد ذلك منخرطاً في أنشطة تخريبية ثانوية ـــ كطبع منشورات بذيئة، وتقمص شخصية مبعوث إلى جماعات نقابية غامضة، وتنظيم إضرابات في مصانع الزجاج، وغير ذلك. وفي وقت ما من الأربعينيات، قدم إلى «زمبلا» بصفته تاجر «براندي». تزوج هناك ابنة صاحب فندق. تعود صلته بالحزب المتطرف إلى تقلباته الشنيعة الأولى. وعندما اندلعت الثورة، حظيت مواهبه التنظيمية المتواضعة ببعض التقدير داخل مكاتب مختلفة. رحل إلى أوربا الغربية، وفي قلبه نيّة مبيتة وفي جيبه مسدس مُلْقَم، في اليوم نفسه الذي أخذ شاعر بريء في بلاد بريئة يكتب القطعة الثانية من قصيدة نار شاحبة. سيرافق «غرادوس» تفكيرنا بشكل دائم، وهو يشق طريقه من «زمبلا» الداجية النائية إلى «أبالاتشيا» الخضراء، على امتداد القصيدة كلها، سالكاً طريق إيقاعها، منسلاً عبر قافية، متزحلقاً على زاوية معاظلة، متنفساً بالوقف، متأرجحاً إلى أسفل الصفحة من بيت إلى بيت كأنما من غصن إلى غصن، متواريا بين كلمتين (انظر التعليق على البيت ٥٩٦)، معاودا الظهور في أفق قطعة جديدة، متقدما بثبات على مقربة من حركة إيامبية، عابرا الشوارع، مرتقيا بحقيبته مصعد الوزن خماسي التفاعيل، منصرفا عنه، راكبا قطار أفكار جديد، مقتحماً بهو فندق، مطفئاً مصباح السرير، بينما يمحو «شايد» كلمة، ثم غارقاً في سبات عميق لمّا يلقي الشاعر قلمه طوال الليل.

البيت ٢٧: «شيرلوك هولمز»

محقق سرّي طويل ونحيف وله أنف أشبه بمنقار صقر، لكنه شخص محبوب، وهو الشخصية الأساس في قصص مختلفة لـ»كونان دويل». لا أملك أي وسيلة تساعدني الآن على تأكيد أي من هذه القصص موضوع الإحالة هنا، لكني أشك أن شاعرنا ابتكر ببساطة هذه الحالة من آثار الأقدام المعكوسة (19).

البيتان ٣٤ ـــ ٣٥: الرؤوس الحادة في نوازل جامدة

يا له من إصرار عند شاعرنا على استحضار صور الشتاء في مستهل قصيدة شرع في تأليفها ذات ليلة صيفية منعشة! فاكتشاف آلية الربط أمر يسير (ينتهي الزجاج بلورا، والبلور جليدا) لكن المحرك الكامن خلفها يبقى مستتراً. سيكون المرء متواضعاً أكثر مما ينبغي ليفترض أن الفكرة التي تفيد أن الشاعر وشارحه المستقبلي التقيا أول مرة ذات يوم شتائي تصطدم بطريقة ما هنا بالفصل الحقيقي. على القارئ أن يلاحظ الكلمة الأخيرة في البيت الجميل الذي يقود إلى هذا التعليق. إذ يعرفها قاموسي بأنها «سلسلة من القطرات المنهمرة من الطُّنُف والميازيب والهوابط في الكهوف.» أذكر أنني صادفتها لأول مرة في قصيدة لـ»توماس هاردي». إذ خلَّد الصقيع المتلألئ الهوابط المتلألئة. وجب أن نلاحظ أيضاً التلميح إلى الغدر والخيانة والتآمر في عبارة «خناجر مصقولة» وظلال قتل الملك في القافية.

البيتان ٣٩ ــ ٤٠: أغمض عينيَّ، الخ.

هذان البيتان مُمَثَّلان في المسودة بقراءة مختلفة:

39 ... وإلى البيت يحث الخطى لصوصي

40 الشمس بالجليد المسروق، والقمر بالأوراق

لا يسع المرء إلا أن يستحضر مقتطفا من تيمون الأثيني (الفصل الرابع، المشهد الثالث) حيث يكلّم عدو الإنسان ثلاثة لصوص. وإذ لا أملك أي مكتبة داخل الكوخ الخشبي المهجور حيث أعيش مثل «تيمون» في كهفه، بتُّ مكرها، لأجل اقتباس عاجل، على إعادة ترجمة هذا المقتطف إلى النثر الإنجليزي من نسخة تيمون الشعرية «الزمبلية» التي آمل أن تُقرِّب النصَّ على نحو كاف، أو تبقى وفية لروحه على الأقل:

الشمس لصٌّ؛ تغوي البحر

وتسرقه. القمر لصٌّ

يسلب نوره الفضي من الشمس

البحر لصٌّ؛ يبدِّد القمر.

انظر التعليق على البيت ٩٦٢، للاطلاع على تقييم حصيف لترجمات «كونمال» لأعمال شكسبير.

البيت ٤٢: ميّزتُ

استطعتُ، بحلول نهاية شهر ماي، أن أحدد خطط بعض صوري في الشكل الذي قد تعطيه لها عبقريته. وفي منتصف يونيو، صرت متأكدا، في نهاية المطاف، أنه ود لو يبعث في قصيدة روعةَ «زمبلا» التي تحترق في ذهني. إذ فتنتُه بها، وأشبعتُه برؤيتي، وفرضتُ عليه، بسماحة السكير الجامحة، كل ما عجزتُ عن نظمه في قصيدة. لا ريب أنه ليس هيّنا اكتشاف حالة مماثلة في تاريخ الشعر ــ حالة رجلين، مختلفين في الأصل والتنشئة

والانتماءات الفكرية والأناشيد الروحية والأسلوب العقلي، أحدهما باحث عالميّ، والآخر شاعر بيتيّ، يوقّعان ميثاقاً سرّيّاً من هذا النوع. أخيراً، عرفت أن بلادي «زمبلا» أينعت في دواخله، حتى إن قريحته تفتقت بقوافي مناسبة، وصار مستعدّاً ليتدفق كلما فرك أهداب الجفن. ظللت أحثه في كل مناسبة على مغالبة كسله والشروع في الكتابة. إذ يحتوي دفتر يومياتي الصغير على مذكرات مثل: «اقترحت عليه التفعيلة الملحمية»، «سردت الهروب ثانية»، «عرضت استخدام غرفة هادئة في منزلي»، «ناقشت إعداد تسجيلات صوتي ليفيد منها»؛ وأخيراً، «بدأت القصيدة» بتاريخ ٣ يوليوز.

ورغم أنني أدركت بشكل واضح للغاية، للأسف، أن النتيجة، في مرحلتها النهائية الهفهافة، لا يمكن أن تُعَدَّ صدى مباشرا لسردي (الذي صدف أن ضمنتُ بعض شذرات منه فقط في تعليقاتي ـــ على القطعة الأولى أساساً). إذ يكاد المرء لا يشك في أن توهج الغروب في القصة يقوم مقام العامل الحافز لسيرورة الفورة الإبداعية الدائبة ذاتها التي مكّنت «شايد» من إنتاج قصيدة من ألف بيت في ثلاثة أسابيع. فضلا عن ذلك، ثمة تماثل من حيث أعراض العائلة في تلوين القصيدة والقصة معاً. لقد أعدت قراءة تعليقاتي على أبياته بمتعة، ووجدت نفسي في حالات عديدة أقتبس نوراً متلألئاً من كرةِ شاعري النارية، وأقلد الأسلوب النثري لمقالاته النقدية غير وعي. لكن أرملته وزملاءه قد يكفّون عن التبرم والتلذذ بثمرة أي نصيحة يسدونها لشاعري الطيب. آه، أجل، فنص القصيدة النهائي هو نصّه بالكامل.

إذا استبعدنا، كما ينبغي حسب اعتقادي، ثلاثة تلميحات عرَضية إلى الملَكية (٦٠٥، ٨٢٢، و٨٩٤) و»زمبلا» البابوية في البيت ٩٣٧، قد نخلص إلى أن نص نار شاحبة النهائي أفرغ على نحو مقصود وصارم من أي أثر من آثار المادة التي ساهمت بها. لكننا نجد أيضاً أنه رغم الرقابة التي مارسها على شاعريَّ رقيبٌ محلي وأي شخص آخر لا يعلمه إلا الله، فقد أنعم على الهارب الملكي بملاذ في سراديب ما احتفظ به من نصوص بديلة؛ لأن ثلاثة عشر بيتاً على الأقل، هي أبيات غنائية رائعة (سأقدمها في تعليقي على الأبيات ٧٠ و٧٩ و١٣٠، وهي ترد جميعها في القطعة الأولى، التي اشتغل عليها على نحو جلي بحرية إبداعية أكبر مما تنعّم به بعدئذ) تحمل البصمة الخاصة لتيمتي، وهي عبارة عن أثر شهاب ضئيل لكنه أصيل في خطابي حول «زمبلا» وملكها التعيس.

البيتان ٤٧ ـــ ٤٨: البيت الخشبي بين «غولسوورث» و»ووردسميث»

يشير الاسم الأول إلى المنزل في شارع «دالويتش» الذي اكتريته من «هوغ وارين غولدسوورث»، العارف بالقانون الروماني والقاضي البارز. لم أسعد قط بلقاء مالك بيتي، لكني تعرفت على خطّ يده مثلما تعرفت على خط «شايد». ويدل الاسم الثاني، بالطبع، على جامعة «ووردسميث». إذ لا ينشغل شاعرنا، وهو يقترح فيما يبدو موقعاً وسطاً بين المكانين، كثيراً بضبط الفضاء مقارنة بانشغاله الذكي باستبدال مقاطع لفظية تستحضر أستاذيْ الدوبيت الملحمي،

اللذين تتفيأ ملهمتُه ظلّهما. في الواقع، كان «البيت الخشبي في مربّعه الأخضر» يبعد خمسة أميال عن كلية «ووردسميث»، لكن لا يبعد سوى خمس ياردات أو نحو ذلك عن نوافذ بيتي الشرقية.

في توطئة هذا العمل، انتهزت الفرصة لأتحدث عن مباهج مسكني. إذ تصرفت السيدة الفاتنة والغامضة على نحو ساحر (انظر التعليق على البيت ٦٩١)، التي أمنته لي من غير أن تراه، بحسن نيّة، خاصة لأنه كان موضع إعجاب كبير في الحي بـ«رحابته وأناقته من الطراز العتيق.» في الواقع، فهو بيت قديم وموحش، ذو طلاء أبيض وأسود، نصفه مكسوٌّ بالخشب، ونوعُه مما نسميه بـ«وودناغن»(20) في بلادي، وسقوف محدَّبة منقوشة ونوافذ مقوسة تسمح بمرور التيارات الهوائية، وما يسمى بالشرفة «شبه البارزة»، تعلوها مصطبة شنيعة. للقاضي «غولدسوورث» زوجة وأربع بنات. استقبلتني صور العائلة في الرواق، ولاحقتني من غرفة إلى أخرى. ورغم أنني متأكد أن «ألفينا» (٩ سنوات) و«بيتي» (١٠) و«كانديدا» (١٢) و«دي» (١٤) سرعان ما سيتحولن من تلميذات صغيرات ذكيات على نحو رهيب إلى شابات أنيقات وأمهات فاضلات، يجب أن أقرّ أن صورهن الهازئة أثارت حنقي إلى درجة أنني جمعتها في الأخير، الواحدة تلو الأخرى، ووضعتها كلها في خزانة أسفل صف مشاجب ملابسهن الشتوية الموشاة بالسلوفان. وفي المكتب، عثرت على صورة كبيرة لوالديهن، وصفتاهما الجنسيتان معكوستان، حيث تشبه السيدة «غ.» «مالينكوف»، بينما يبدو السيد «غ.» أقرب إلى ساحرة عجوز شمطاء، رأسها شبيه بالمدوزة. استبدلتها بنسخة مقلدة للوحة أحبها من لوحات بيكاسو المبكرة، هي «الفتى الترابي يقود حصانا بلون سحابة ممطرة». لم أكلف نفسي، مع ذلك، عناء الاهتمام بكتب العائلة التي كانت منتشرة أيضاً عبر أرجاء البيت كله ـــ منها أربع مجموعات مختلفة لموسوعات الأطفال، وموسوعة تافهة للكبار ترتفع إلى الأعلى من رفّ إلى آخر على طول أدراج لينتهي ملحق لها في العلّية. فإذا حكمنا من خلال الروايات في مخدع السيدة «غ.»، كانت اهتماماتها الفكرية موسعة جدّاً، تمتد وفق ذلك من الكهرمان حتى الزن. كما كان لرب هذه العائلة الألفبائية مكتبة، لكنها تألفت أساساً من أعمال القانون وعدة دفاتر مكتوبة بحروف بارزة. وكلُّ ما بمقدور المواطن العادي أن يكتشفه ذو فائدة تثقيفية وترفيهية هو ألبوم مجلّد بجلد الماعز المدبوغ، ألصق فيه القاضي بمحبة صور وقصص حياة أناس زجّ بهم في السجن أو حكم عليهم بالإعدام: وجوه لا تنسى لسفاحين معتوهين، وسجائر أخيرة وتكشيرات أخيرة، ويدا جلاد شنق تبدوان عاديتين تماماً، وامرأة جعلت من نفسها أرملة، وعينان متقاربتان قاسيتان لمصاب بجنون القتل (يشبه إلى حد ما الراحل «جاك دارغوس»، كما أقرّ بذلك)، وطفل متهلل في سن السابعة قتل والديه («الآن، يا صغيري، نريدك أن تروي لنا...»)، ولوطي بدين كهل حزين فجّر رأس مبتزّه برصاصة. ما أذهلني بالأحرى هو أن مالك بيتي المثقف من كان يدير شؤون العائلة، لا «سيدته». إذ لم يترك لي فحسب جرداً مفصلاً بكل هذه الأشياء التي تتحلق حول مستأجر جديد مثل حشد من الأهالي المتوعِّدين، بل بذل أيضاً جهداً جباراً ليكتب على قصاصات ورقٍ توصيات وشروحاً ونصائح وبيانات تكميلية. كل ما لمسته في يوم إقامتي الأول جعلني أحس بأسلوب «غولدسوورثي». فتحت خزانة الأدوية في الحمام الثاني، فتطايرت منها رسالة تعلمني أن كوة موسى الحلاقة الاحتياطية مملوءة أيضاً وصالحة للاستعمال. فتحت الثلاجة، فنبهتني بصوت أشبه بالنباح إلى ضرورة تفادي وضع «أي أطعمة ذات رائحة يصعب التخلص منها» داخلها. سحبتُ

جارور المنضدة الأوسط في المكتب ـــ واكتشفت دليلاً يصف محتوياته الهزيلة التي اشتملت على تشكيلة من منافض السجائر وقطاعة ورق مرصعة (وصفت بأنها «خنجر قديم جلبه والد السيدة «غولدسوورث» من الشرق»)، ومفكرة جيب قديمة غير مستعملة اندرست هناك بتفاؤل إلى أن تكرر فيها التقويم مرة ثانية. عثرت، من بين إشعارات مفصلة متعددة ألصقت على لوح خاص في مخزن المؤن، مثل تعليمات إصلاح أنابيب المياه وبحوث حول الكهرباء وخطابات حول الصبار وغير ذلك، على نظام غذاء القط الأسود الذي جاء مع المنزل:

الاثنين، الأربعاء، الجمعة: كبد

الثلاثاء، الخميس، السبت: سمك

الأحد: لحم مفروم

(كل نصيب هذا القط مني حليب وسردين. كان مخلوقاً صغيراً محبوباً، لكن حركاته بدأت، بعد برهة، تثير أعصابي، فعهدت به إلى السيدة «فينلي»، المكلفة بتنظيف البيت.) لكن الإشعار الأكثر طرافة هَمَّ معالجات ستائر النوافذ التي وجب أن تسدل بطرق مختلفة في أوقات معينة للحيلولة دون وصول الشمس إلى النجادة. ثمة وصف لموقع الشمس، اليومي والفصلي، يخص النوافذ العديدة، ولو حفلتُ بكل ذلك لبقيتُ منشغلا مثل مشارك في سباق قوارب. غير أن حاشية اقترحت بسخاء أنه، بدل معالجة الستائر، ربما أفضل أن أنقل أثمن قطع الأثاث (أريكتين مطرزتين و»منضدة ملكية» ثقيلة) من مجال الشمس ثم أعيدها، لكن وجب أن أفعل ذلك بأناة كَيْلا أخدش أفاريز الجدار. للأسف، لا أستطيع استنساخ البرنامج المدقق لهذه التغييرات، لكن أعتقد أنني أتذكر أنه كان يفترض بي أن أقطع المسار الطويل قبل أن آوي إلى السرير، والمسار القصير أول الأمر في الصباح. انفجر عزيزي «شايد» ضاحكاً عندما قُدتُه في جولة معاينة، وجعلتُه يكتشف بنفسه بعضاً من بيض الفصح ذاك. الحمد لله، فقد بدد مرحه الصاخب جو الخسارة الوشيكة الذي كان مفروضاً أن أثوي فيه. إذ شنَّف أذنيّ، من جانبه، بعدد من النكات حول روح القاضي الجافة وأسلوبه المتكلف داخل المحكمة، إذ انطوت أغلب تلك النكات بلا شك على مبالغات فولكلورية، بينما كان بعض منها تلفيقات بادية، لكنها لم تكن جميعها مؤذية. لم يأت بقصص سخيفة، لم يفعل صديقي الكهل اللطيف ذلك أبداً، حول الظلال المرعبة التي سلطها رداء القاضي «غولدسوورث» على عالم الإجرام، أو حول هذا الوحش أو ذاك المضطجع في السجن الذي يفتك به حتماً الظمأ للانتقام ـــ تفاهات صفيقة روّجها ذوو الألسنة البذيئة والقلوب المتحجرة ـــ لدى جميع أولئك الذين تنعدم عندهم ببساطة القصص الرومانسية، والتنائي، والسماوات القرمزية المكسوة بجلد الفقمة، والكثبان المعتمة في مملكة أسطورية. لكن لنكتف من هذا. لنعد إلى نوافذ شاعرنا. لا تحذوني الرغبة في تحريف جهاز نقدي لا لبس فيه، وتطويعه لينطبق على الظاهر السافر في رواية ما.

سيستحيل عليَّ اليوم أن أصف بيت «شايد» من حيث الأثاث، أو في الواقع من حيث أي شيء آخر غير تلك اللمحات والنظرات الخاطفة، والفرص المحاطة بأطر النوافذ. كما أشرت آنفا (انظر التوطئة)، طرح حلول الصيف مشكلة بصرية؛ ذلك أن الأوراق الزاحفة لم تكن دائماً على اتفاق تام معي، إذ خلطت بين نظارة خضراء أحادية الزجاج وسدادة عاتمة، وبين فكرة الوقاية وفكرة الانسداد. في تلك الأثناء، علمت (يوم ثالث يوليوز حسب أجندتي) ـــ ليس من «جون» وإنما من «سيبيل» ـــ أن صديقي شرع في نظْمِ قصيدة طويلة. وإذ لم أره منذ بضعة أيام، صدف أن حملت إليه بعض المطبوعات من علبة بريده الموضوعة على الطريق، بجوار منزل «غولدسوورث» (والتي اعتدت على تجاهلها، كونها مملوءة على الدوام بالمنشورات والإعلانات المحلية ودلائل تجارية وذلك النوع من القمامة) ووجدت نفسي أمام «سيبيل» التي حجبتها شجيرة عن عيني الصقرية. كانت تضع قبعة من قش وقفازي بَسْتَنة، وهي جاثمة على ركبتيها أمام مشتل ورود، تشذّب أو تربط شيئاً ما. ذكرني سروالها البني الضيق بجوارب المندولين(21) (كما أسميتها مازحاً) التي اعتادت زوجتي ارتداءها. طلبت مني عدم مضايقته بتلك الإعلانات، وأضافت خبر «شروعه في كتابة قصيدة طويلة فعلاً.» شعرت بالدم يعلو وجهي، وتمتمت بشيء ما حول عدم إطلاعي على أي نتف منها بعد. استوت في جلستها، وأزاحت الشعيرات السوداء والشيباء عن جبينها، وحدقت فيَّ، ثم قالت: «ماذا تقصد بعدم إطلاعك على أي نتف منها؟ لا يكشف أبداً أي شيء غير مكتمل. أبداً. أبداً. بل لن يناقشها معك حتى ينتهي منها تماماً.» لم أستطيع أن أصدق ذلك، لكن سرعان ما اكتشفت في حديث مع صديقي المتكتم على نحو غريب أن زوجته لقنته الدرس جيداً. كلما سعيت إلى إخراجه من تكتمه بواسطة نوادر مبهجة مثل: «على من يعيشون في بيوت زجاجية ألا يكتبوا قصائد»، يتثاءب ويكتفي بهز رأسه فقط، ويرد قائلاً إنه «يتعين على الأجانب أن يبتعدوا عن الأقوال المأثورة.» بيد أن الإصرار على اكتشاف ما كان يفعل بالمادة الحية والساحرة والنابضة والمتلألئة التي أغدقتها عليه، والرغبة الشديدة في أن أراه يشتغل (وإن حُرمتُ من ثمرة عمله)، ثبت أنهما مُمِضَّان وخارجان عن السيطرة تماماً، وأفضيا بي إلى الانغماس في طقس تجسس لم يكن ليوقفه أي اعتبار من اعتبارات الكبرياء.

ظلت النوافذ، كما هو معروف، بمثابة السلوان للأدب المكتوب بضمير المتكلم عبر العصور. لكن هذا المراقب لم يستطع أبداً أن ينافس بمحض الصدفة بطل من هذا الزمان(22) المتنصت على الأبواب أو الحاضر في كل مكان في الزمن المفقود، إنما مُنِحْتُ بين الفينة والأخرى لحظات تعقب مبهج. عندما تعطلت نافذتي البابية بسبب شجرة دردار نمت نموا هائلا، عثرت، في آخر الشرفة، على زاوية مكسوة باللبلاب، استطعت من خلالها أن أرى واجهة بيت الشاعر رؤية رحبة بالأحرى. وإذا أردت أن أرى جهته الجنوبية، نزلت خلف مرأبي ونظرت، من خلف شجرة التوليب، عبر الطريق الملتوية في المنحدر، إلى عدة نوافذ نفيسة مضاءة، لأنه لم يسدل الستائر أبداً (هي تفعل ذلك). وإذا تُقْتُ إلى الجهة المقابلة، كل ما كنت أفعله هو المشي صعدا إلى قمة حديقتي حيث حارستي من فصيلة العرعر الفواح تراقب النجوم، والتباشير، ورقعة الضوء الشاحب تحت مصباح الشارع الوحيد على الطريق في الأسفل. ما إن استحضرت مطلع الفصل هنا حتى تغلبت على المخاوف الشخصية والاستثنائية التي تناقش في مكان آخر (انظر التعليق على البيت ٦٢)

وتنعّمتُ بالأحرى بأن أتابع في الظلام امتدادَ أرضي الصخرية المليئة بالأعشاب الضارة نحو الشرق، التي تنتهي في غيضة سَنْطٍ مرتفعة أعلى بقليل من جهة بيت الشاعر الشمالية.

أتيحت لي الفرصة، ذات مرة في طفولتي الغيداء والرهيبة، قبل ثلاثة عقود، أن أرى رجلا يباشر الاتصال بالله. تسكعتُ حتى وصلت إلى ما كان يسمى بـ«قصر الورد»، خلف كنيسة الدوق في مسقط رأسي «أونهافا»، خلال فترة استراحة من حصة ترديد التراتيل. وإذ تلكأتُ هناك، أدلّك ربلتي العاريتين وأنعشهما تباعاً على عمود أملس، سمعت الأصوات الفاتنة البعيدة تتمازج في مرح صبياني خافت. حال حقد عارض وانزعاج من غيرة فتى بعينه دون انضمامي إليها. دفعني صوت خطوات متسارعة إلى أن أرفع نظرتي الكئيبة عن فسيفساء القصر المجزأ؛ عن التويجات الوردية الحقيقية المنحوتة من حجر الدم، والأسلات الكثيرة، شبه الملموسة، المنحوتة من المرمر الأخضر. نحو تلك التويجات والأسلات كان يسير ظل أسود؛ هو ظل كاهن شاب طويل وشاحب ذي أنف طويل وشعر أسود، رأيته مرة أو مرتين، حيث ذرع خارجاً من مجلس الكنيسة، وتوقف وسط الباحة دون أن يراني. زمّ شفتيه الرقيقتين بسبب تقزز أثيم. كان يضع نظارة. بدت قبضته المحكمة كأنها تمسك بقضبان سجن خفية. لكن لم يكن ثمة حدٌّ لقسط النعمة الذي قد ينعم به إنسان ما. تحولت نظرته فجأة إلى نظرة طرب وتبجيل. لم أر قط مثل تلك الغبطة المتوهجة من قبل، لكني سأدرك بعضاً من ذلك البهاء، أو من تلك الطاقة الروحية والرؤية الربانية التي صارت، الآن، منعكسة، في أرض أخرى، على وجه الكهل «جون شايد» القاسي والدميم. كم كنت سعيداً بأن أهَبَني ذلك السهر على امتداد الربيع لأن أراقبه في مهمته الرائعة في منتصف الصيف! عرفت حق المعرفة متى وأين أعثر على أفضل المواقع التي أتابع منها معالم إلهامه. كنت أبحث عنه بمنظاري وأركز عليه من بعيد في أماكن عمله المختلفة؛ خلال الليل، في الضوء البنفسجي بمكتبه بالطابق العلوي حيث يتراءى لي في مرآة مواتية كتفاه المحدودبان وقلمه الرصاص الذي ظل يخلل به أذنيه (يتفقد الرصاص بين الفينة والأخرى، بل ويتذوقه)؛ وفي الضحى، يتوارى في الظلال المتقطعة في مكتبه بالطابق الأول حيث يرتحل قدح شراب
متلألئ بهدوء من خزانة الملفات إلى منضدة القراءة، ومنها إلى رف الكتب، هناك يختفي، إن اقتضت الحاجة، خلف تمثال «دانتي»؛ وفي يوم حار، بين كروم رواق صغير أشبه بالعريش، عبر أكاليلها كنت ألمح قطعة قماش زيتي، يتكئ عليها بمرفقه، وقبضتُه المدورة اللحيمة تسند صدغه وتفركه. غالباً ما حرمتني عوارض الرؤية والإضاءة وتشويش الإطار أو الأوراق، من مشاهدة وجهه بوضوح. ربما رتبت الطبيعة الأمر على ذلك النحو حتى تخفي عن مفترسٍ محتمل أسرارَ الإبداع. إنما في بعض الأحيان، عندما كان الشاعر يتمشى جيئة وذهابا في حديقته، أو يجلس لحظة على المقعد في طرفها الآخر، أو يستريح تحت شجرته الجوزية المفضلة، أصير قادراً على تمييز سيماء الولع العاطفي والطرب والوقار، التي كان يتابع بها الصور وهي تعبر عن نفسها في ذهنه، فأدرك أن ربّنا كان معه في تلك اللحظة، مهما يقول صديقي اللأدري لإنكار ذلك.

في بعض الليالي، يصير البيت مظلما من جوانبه الثلاثة عندما يأوي أهله إلى الفراش قبل وقت طويل من الموعد المعتاد، فأتمكن من المراقبة من المواضع الثلاثة المواتية، حيث يظل ذاك الظلام عينه يخبرني أنهما في البيت. سيارتهما مركونة جنب المرأب ـــ لكني لا أستطيع أن أصدق أنهما

غادرا مشياً، ما داما سيتركان مصباح الشرفة منيراً في تلك الحالة. أقنعتني اعتبارات واستنتاجات لاحقة أن ليلة الحاجة الماسة التي قررت فيها أن أتحقق من المسألة كانت يوم ١١ يوليوز، تاريخ إتمام «شايد» قطعته الثانية. كانت ليلة حارة وحالكة وعاصفة. انسللتُ عبر الغيضة خلف بيتهما. ظننت في البداية أن هذا الجهة الرابعة كانت مظلمة أيضاً، ومن ثمة صارت المسألة محسومة، وأني أملك الوقت لأحس بارتياح غريب قبل أن ألاحظ مربع ضوء خافت أسفل نافذة صالون خلفي صغير لم أُدْعَ إليه أبداً. كان مفتوحاً على مصراعيه. أضاء مصباح طويل ذو ظُلَّة أشبه بالرق أرضيةَ الصالون، إذ مكنني من رؤية «سيبيل» و»جون»، حيث جلست هي على طرف أريكة، جاعلة رجليها على جانب واحد، ومديرة ظهرها لي، بينما كان هو جالسا على وسادة قرب الأريكة حيث تركت أوراق لعب مبعثرة بعد جولة من لعبة تطبيق الصبر، وبدا أنه يجمعها ويكومها بأناة. كانت «سيبيل» ترتجف تارة وتتمخط تارة ثانية؛ بينما كان وجه «جون» مبقعاً ومبللاً كله. لم أكن حينها مطلعاً على نوع الورق الذي استخدمه صديقي بالضبط في الكتابة، فلم أتمالك نفسي عن التساؤل كيف يمكن تبعث نتيجة لعبة ورق على ذرف الدموع. وإذ بذلتُ وسعي لأرى بشكل أفضل، حيث وقفت على ركبتي عند حاجز شجيرات بقس رخوة على نحو مرعب، نحيت الغطاء الطنان لوعاء قمامة جانباً. قد ينسب هذا طبعاً إلى فعل الريح. كانت «سيبيل» تكره الرياح. نهضت فجأة من مقعدها. صفقت النافذة بقوة، وأسدلت ستارتها الصارّة.

انسللت عائداً إلى بيتي الكئيب بقلب منقبض وذهن حائر. بقي القلب منقبضا، لكن الحيرة زالت بعد بضعة أيام، على الأرجح في عيد القديس «سويثين»، لأنني وجدت في دفتر يومياتي الصغير في ذلك التاريخ أن مذكرة «نزهة المساء مع ج. ش.»(23) المرتقبة مشطوبةٌ بغضب جعل الرصاص ينكسر في منتصف جرّة القلم. بعد أن انتظرت صديقي وطال انتظاري التحاقَه بي في الممر الضيق، إلى أن انقلبت حمرة الغروب إلى رماد الغسق، مشيت إلى باب منزله. ترددتُ، فرجحت مقدار الظلمة والصمت، ثم شرعت أطوف حول المنزل. هذه المرة، لم ينبعث أي وميض من الصالون الخلفي، لكن لحظت، بفضل الضوء العادي الساطع في المطبخ، طرف مائدة مطلية بالأبيض، تجلس إليها «سيبيل»، يعلو وجهها سيماء اغتباط شديد، حتى إن المرء ليفترض أنها ابتكرت وصفة جديدة للتو. كان الباب الخلفي مواربا، وإذ قرعته انفتح، وابتدأتُ الحديث بعبارة جذِلة طروب، أدركت أن «شايد»، الجالس على الطرف الثاني من المائدة، كان مستغرقاً في قراءة مكتوب ما لها، حسبتُه جزءاً من قصيدته. انتفضا معاً. انفلتت منه شتيمة بذيئة، وخبط على المائدة جماعَ الجذاذات
المفهرسة التي كانت بين يديه. في وقت لاحق، عزا هذا الهياج المزاجي إلى أنه حسب، بسبب نظارته الخاصة بالقراءة، صديقاً مرحباً به بائعاً متطفلاً. لكن يجب أن أقول إن ذلك صدمني، بل أصابني بصدمة عميقة، وجعلني متأهبا وقتئذ لأن أستشف معنى شنيعاً في كل ما تبِع ذلك. قالت «سيبيل»: «حسناً، اجلس وتناول فنجان قهوة» (الظافرون كرماء). قبلت لأنني أردت أن أعرف ما إذا كانت القراءة ستتواصل في حضوري. لم تتواصل. قلت لصديقي: «ظننت أنك ستذهب معي في جولة.» اعتذر قائلاً إن مزاجه ليس رائقاً، ثم واصل تنظيف تجويف غليونه بعنف بالغ كأنه كان يحفر قلبي.

لم أدرك فحسب حينئذ أن «شايد» كان يقرأ مقاطع جامعة من قصيدته بانتظام لـ»سيبيل»، بل اتضح لي الآن أيضاً أنها جعلته، بالانتظام ذاته، يلطف أو يحذف من النسخة المصححة كل ما له صلة بالتيمة «الزمبلية» البديعة، التي ظللت أزوده بها، والتي آمنت بسذاجة، من غير أن أطلع على تطور العمل، أنها ستصير الخيط الغني الناظم في حبكته!

في مكان أعلى على التل المشجر ذاته، انتصب منزل الطبيب «ساتن» المكسو بالألواح، ومازال منتصبا كما أتصور. هناك في القمة نفسها، يجب ألا تزحزح الأبدية فيلا الأستاذ «س.» الفائقة الحداثة، التي يمكن للمرء أن يلمح من شرفتها، إلى الجنوب، البحيرات الثلاث الملتصقة الأكبر والأشد حزنا التي تسمى بـ«أوميغا» و»أوزيرو» و»زيرو» (الأسماء الهندية التي حرّفها المستعمرون الأوائل بطريقة تسمح بتكييف اشتقاقات خادعة وتوريات مبتذلة). وفي الجانب الشمالي من التل، يصل شارع «دالويتش» بالطريق السيار المؤدي إلى جامعة «ووردسميث»، التي لن أكرس لها هنا سوى بضع كلمات، جزئيا لأن جميع أنواع الكتيبات الواصفة ينبغي أن تكون متاحة للقارئ عبر مراسلة مكتب الدعاية في الجامعة، وإنما أساساً لأنني أرغب، لأختصر هذه الإشارة إلى «ووردسميث» أكثر من الملاحظات حول منزليْ «غولدسوورث» و»شايد»، في أن أنقل حقيقة بعد الكلية عنهما أكثر مما يبعد أحدهما عن الثاني. لربما هي المرة الأولى التي يصيَّر فيها ألم المسافة الفاتر عبر أثر أسلوبي، وتجد فكرة طوبوغرافية تعبيرها اللفظي في سلسلة من الجمل المختصرة.

بعد أن يلتف الطريق السيار على طول نحو أربعة أميال إلى وجهة شرقية في الغالب، عبر حيّ سكني مرشوش ومسقي على نحو حسن ذي مروج متدرجة بطرق مختلفة على منحدري الجانبين، يتفرع إلى فرعين: أحدهما ينحرف يساراً إلى «نيوواي» ومطارها المرتقب، بينما يواصل الثاني إلى حرم الجامعة. ها هنا قصور الجنون العظيمة، والمهاجع المخططة بطريقة مثالية ـــ أمكنة الموسيقى الصاخبة ـــ وقصر الإدارة الفخم، والجدران الآجرية، والقناطر، والساحات الموشاة بالسجاد الأخضر والحجر الأخضر شبه الكريم، ومنزل «سبانسر» وبركته المليئة بالزنابق، والكنيسة، وقاعة القراءة الجديدة، والمكتبة، والصرح الأشبه بالسجن الذي يضم أقسامنا ومكاتبنا (الذي سيسمى منذ الآن بقاعة «شايد»)، والجادة الشهيرة المحفوفة بكل الأشجار التي ذكرها شكسبير، وأزيز بعيد، وأثر غيمة، وقبة المرصد الفيروزية، وذؤابات وريشات طخاف شاحبة، وملعب كرة القدم ذو المدرجات الرومانية المزودة بستائر من خشب الحور، المهجور أيام الصيف إلا من فتى ذي عينين حالمتين يحلّق ـــ فوق حبل حاجز طويل في حلقة طنانة ـــ بطائرة نموذجية تعمل بمحرك.

افعل شيئاً، يا عزيزي يسوع.

البيت ٤٩: جوزة

شجرة جوز. كان شاعرنا يشترك مع الأساطين الإنجليز في ملكة زرع الشجر النبيلة في الشعر بنسغه وظلاله. قبل سنوات عديدة، استنسخت «ديزا»، ملكة ملكنا التي كانت تفضل أشجار الجكرندة والجنكة، رباعية في ألبومها من ديوان الأشعار القصيرة لـ«جون شايد» كأس هيب، الذي لا أستطيع الإحجام عن اقتباسه هنا (من رسالة تلقيتها يوم ٦ أبريل ١٩٥٩ من جنوب فرنسا):

الشجرة المقدسة

ورقة الجنكة، بلون ذهبي، عندما تسقط،

تصير بلون عنب مُسْقَط،

هي فراشة قديمة، نوعها

دَنِفُ الذيوع.

عندما شُيدت الكنيسة الأسقفية الجديدة في «نيوواي» (انظر التعليق على البيت ٥٤٩)، أبقت الجرافات على قوس من تلك الأشجار المقدسة التي غرسها بستاني عبقري (ريبورغ) في آخر الشارع المعروف باسم شكسبير بالحرم الجامعي. لا أعرف إن كان ذلك ذا صلة بالموضوع أم لا، لكن ثمة لعبة شد وجذب في البيت الثاني، حيث «الشجرة» في اللغة «الزمبلية» هي «غرادوس».

البيت ٥٧: طيف أرجوحة ابنتي الصغيرة يتهادى

بعد هذا البيت، شطب «شايد» تشطيباً خفيفاً على الأبيات التالية في المسودة:

النور ملائم: مصابيح القراءة تلعاء؛

لكل الأبواب مفاتيح. مهندسك الحداثي

متواطئ مع المحللين النفسيين:

عندما يصمم غرف حجرات نوم الآباء، يصر

على أبواب بلا أقفال لعل المريض المقبل

للدجال المقبل يعثر، عندما ينظر إلى الخلف،

وكل شيء مهيأ له، على المشهد الأول.

البيت ٦١: مشبك التلفاز الضخم

في النعي الفارغ بالأحرى، السخيف للغاية، الذي أوردته في تعليقاتي على البيتين ٧١ ــ ٧٢، اتفق أن هناك اقتباساً من قصيدة مخطوطة (تلقيتها من «سيبيل شايد») يقال إن «شاعرنا ألفها كما يبدو في أواخر يونيو؛ إذاً، قبل أقل من شهر من وفاة شاعرنا. من هنا، فهي آخر قصيدة قصيرة كتبها شاعرنا.»

ها هي:

الأرجوحة

الشمس الغاربة التي تضيء أسلات

مشبك التلفاز الضخم

فوق السطح؛

ظل مقبض الباب الذي

يصير عند الغروب مضرب «بايسبول»

فوق الباب،

الكاردينال الذي يحب أن يجلس

ويردد «تشيب ويت»، تشيب ويت»، «تشيب ويت»(24)
فوق الشجرة؛

الأرجوحة الصغيرة التي تتأرجح فارغة

أسفل الشجرة: تلكم الأشياء

قلبي منها يتفطَّر.

أترك لقارئ شاعري أن يقرر إن كان يرجح أنه كتب هذا أياماً قليلة فقط قبل أن يكرر تيماته الصغيرة في هذا الجزء من القصيدة. أشك في أن هذا الأمر يمثل محاولة مبكرة جدّاً (إذ لا تحمل أي حاشية تشير إلى السنة، لكن لا بد أنها تعود إلى ما بعد وفاة ابنته مباشرة)، استخرجها «شايد» من أوراقه القديمة، بحثا عما يمكن استعماله في نار شاحبة (القصيدة التي لا يعرفها صاحبنا الذي كتب النعي).

البيت ٦٢: في الغالب

انتابني الجزع على حياتي، في الغالب، وفي كل ليلة تقريباً، طيلة ربيع سنة ١٩٥٩. فالعزلة هي ملعب الشيطان. لا أستطيع أن أصف أغوار وحدتي وكربي. كان هناك، بالطبع، جاري الشهير على الجانب الآخر من الممر، ثم اتخذت في وقت ما شريكاً في السكن شاباً ماجناً (لا يعود إلى البيت في الغالب إلا بعد منتصف الليل بوقت طويل). بيد أنني أود أن أشدد على تلك النواة الصلبة الباردة في الوحدة، التي تؤذي روح كل مهجّر من وطنه. إذ يعرف الجميع كيف حُمل «زمبليون» إلى المقصلة: ملكتان، وثلاثة ملوك، وأربعة عشر دعيا من أدعياء المُلْك ماتوا ميتة عنيفة، إما شنقاً أو طعناً أو تسميماً أو إغراقاً، في غضون قرن واحد فقط (١٧٠٠ ــ ١٨٠٠). بات قصر
«غولدسوورث» منزويا على نحو خاص بعد ذلك المنعطف في
الغسق الذي يشبه كثيراً غروب شمس العقل. إذ بدا لي كل شيء ــ الخشخشات الخاطفة، وآثار أوراق العام السابق، ونسيم خامل، وكلب يطوف على حاويات القمامة ــ شبيها بمتربص متعطش للدماء. كنت أنتقل من نافذة إلى أخرى، حيث كانت قلنسوتي الحريرية تتبلل بالعرق، ويصير صدري العاري مثل بركة ذائبة، بل تجرأت، في بعض الأحيان، على تحدي مخاوفي في الشرفة، مدججاً ببندقية القاضي. أفترض أنني اعتدت وقتئذ، في تلك الليالي التنكرية الربيعية حين تدبّ الحياة الجديدة في الأشجار التي تحاكي بقسوة حشرجات الموت القديم في دماغي، اعتدت حينئذ،

في تلك الليالي الرهيبة، على استطلاع نوافذ منزل جاري، آملاً في بصيص مواساة (انظر تعليقاتي على البيتين ٤٧ ــ ٤٨). ما الذي لم أعطه للشاعر الذي يعاني نوبة قلبية أخرى (انظر البيت ٦٩١ والتعليق عليه)، مما يستوجب استدعائي مرة أخرى إلى بيتهما، نوافذه كلها مُنارة، في سراة الليل، التي طفحت بدفقة عظيمة دافئة من التعاطف، وفناجين القهوة، والمكالمات الهاتفية، ووصفات الأعشاب «الزمبلية» (التي تجترح المعجزات)، و»شايد» المنبعث يبكي في أحضاني («اهدأ، اهدأ، يا «جون»»). لكن بيتهما صار، في ليالي مارس تلك، مظلما مثل تابوت. وعندما كان يقودني التعب الجسدي والبرد الكئيب، في النهاية، إلى سريري المزدوج المنزوي في الطابق العلوي، أبقى يقِظاً وأحبس نفسي ــ كما لو كنت أحيا الآن تلك الليالي الخطيرة في بلدي، حيث قد تدخل شرذمة ثوار مهتاجين وتجرجرني إلى جدار مغمور بنور القمر. يتناهى إليَّ أزيز سيارة مسرعة أو هدير شاحنة كمزيج غريب بين سكينة حياة ودية وشبح منيّة مخيف: هل يقف ذلك الشبح عند بابي؟ هل يأتيني أولئك السفاكون الأشباح؟ هل يرمونني بالرصاص دفعة واحدة ــ أم يهرّبون الدارس المخدَّر إلى «زمبلا»، «رودنايا زمبلا»، ليواجه هناك دورقاً باهراً وصفّاً من القضاة المبتهجين على كراسي التحقيق؟

اعتقدت أحياناً أن التدمير الذاتي وحده قادر أن يفعمني بأمل تضليل القتلة الذين يتقدمون بلا شفقة في داخلي، في طبلتي أذني، في نبضي، في جمجمتي، بدل ذلك الطريق السيار المتواصل الذي ينعطف فوقي وحول قلبي ما إن يغالبني النعاس في النهاية حتى تكسِر نومي عودةُ «بوب»، ذلك السكير البغيض الذي لا ينسى، إلى ما كان في السابق سرير «كانديدا» أو «دي». طردته في النهاية، كما أشرت إلى ذلك بإيجاز في التوطئة؛ بعد ذلك، وطوال ليال عدة، لم يخفف مخاوفي النبيذُ، ولا الموسيقى، ولا الصلاة. من ناحية أخرى، صارت تلك الأيام الربيعية الوديعة محتملة تماماً. راقت محاضراتي الجميع. وأصررت على حضور كل الأعمال الاجتماعية المتاحة لي. لكن بعد المساء البهيج ظهر ثانية الخطو الغادر، الدَّلْف الأَزْوَر، ذاك الزحْف البطيء، ثم تلك الاستراحة، فالخشخشة المستأنَفة.

لقصر «غولدسوورث» أبواب عديدة. مهما بذلتُ من جهد في التحقق منها ومن مصاريع النوافذ في الطابق الأسفل وقتَ النوم، لم يفتني أبداً أن أكتشف، صباح اليوم الموالي، شيئاً ما مفتوحاً، منفلتاً، مواربا، مفكوكاً إلى حد ما، شيئاً ما مراوغاً ذا مظهر مشبوه. ذات ليلة، عاد القط الأسود، الذي رأيته قبل بضع دقائق يتسلل إلى القبو حيث رتبت له مرحاضاً في مكان جذاب، للظهور فجأة فوق عتبة باب صالة الموسيقى، في غمرة سهادي وشريط «فاغنر»، يقوس ظهره ويرتدي ربطة عنق من الحرير الأبيض، لم يكن بمقدوره أبداً، بالتأكيد، أن يضعها وحده. اتصلت بالرقم ١١١١١، ثم صرت، بعد بضع دقائق، أتحدث عن متهمين محتملين مع شرطي تلذذ كثيراً بعصير الكرز. لكن أيا كان من اقتحم البيت لم يترك أثراً. لكَمْ يسهل على شخص وحشي أن يجعل ضحية دهائه تظن أنها تعاني جنون الاضطهاد، أو يطاردها قاتل فعلاً، أو تعاني الهلوسات. هلوسات! حسناً، عرفت أنه كان هناك، من بين بعض المعلمين الشباب الذين رفضت عروض صداقتهم، مزَّاحاً صاحب مقالب شريرة. عرفت ذلك منذ اليوم الذي عدت فيه إلى البيت من لقاء ممتع وناجح جدّاً بين الطلبة والأساتذة (نزعت خلاله

معطفي بحماسة وأريْتُ العديد من التلاميذ الراغبين بعض طرق الإمساك بالخصم المضحكة التي يستخدمها المصارعون «الزمبليون») وعثرت في جيب معطفي على ملحوظة مجهولة موجعة تقول: «بك هلـ..ت حادة، يا رفيق»، وهي تعني «هلوسات» بجلاء، رغم أن ناقداً ماكراً قد يستنتج من العدد القليل من نقاط الحذف التي لم يستطع السيد «أنون» أن يتهجاها إلا بصعوبة، وإن كان يدرس طلبة السنة الأولى الإنجليزية.

يسعدني أن أخبر أن مخاوفي اختفت إلى غير رجعة بعيد عيد الفصح. انتقل إلى غرفة «ألفينا» أو «بيتي» مستأجر آخر، اسمه «بالثازار»، أمير الطين، كما لقّبتُه، كان يغرق في النوم بانتظام جوهري في الساعة التاسعة، ويستيقظ في السادسة صباحاً ليغرس نباتات رقيب الشمس («هيليوتروبيوم تورجينيفي»)(25). إنها الوردة التي يستثير عطرها بكثافة سرمدية الغسق، ومقعد الحديقة، وبيتاً من خشب مصبوغ في أرض شمالية نائية.

البيت ٧٠: التلفاز الجديد

بعد هذا، تأتي في المسودة (بتاريخ ٣ يوليوز) أبيات قليلة غير مرقمة ربما توخى الشاعر استعمالها في أجزاء لاحقة من القصيدة. لم تحذف في الواقع، لكنها مرفقة بعلامة استفهام في الهامش ومحاطة بخط متموج يخترق بعض الحروف:

ثمة أحداث، وقائع غريبة، تذهل

العقل برمزيتها. فهي مثل

تشبيهات ضاعت في التيار بلا حبل،

لم تتشبث بأي شيء. كذا ذاك الملك الشمالي،

الذي لم ينته هروبه اليائس من السجن

نهاية سعيدة إلا لأن

نحو أربعين من أتباعه به تشبهوا

في تلك الليلة، وفرارها قلّدوا ـــ

لم يكن ليبلغ الساحل الغربي لو لم تنتشر بدعة انتحال شخصية الملك الهارب، بين أنصاره السريين، المتهورين الرومانسيين البطوليين. إذ لبسوا كنزات حمراء وقبعات حمراء حتى يبدوا مثله، وظهروا هنا وهناك، موقعين شرطة الثورة في اضطراب كبير. كان بعض المخادعين أصغر بكثير من الملك، لكن هذا لم يكن مهما، بما أن صوره في أكواخ أهل الجبال والمتاجر البسيطة في القرى الصغيرة حيث يمكن للمرء أن يشتري الديدان وكعكة الزنجبيل وشفرات «زيليتكا»(26)، لم تشخ منذ أن كلل بتاج الملك. وأضيفتْ لمسة كاريكاتورية ساحرة خلال المناسبة المعروفة عندما شوهد مقلِّد سعيد، من سطيحة فندق «كرونبيك» الذي تحمل مصاعده الهوائية السياحَ إلى نهر «كرون» الجليدي، يطفو في الهواء مثل عثة حمراء، يلاحقه شرطي سيء الطالع بلا قبعة، يجلس خلفه على بعد مقعدين، ببطء كأنما في حلم. ومن دواعي السرور أن يضيف المرء أن الملك المزيف نجح، قبل بلوغه الرصيف العائم،
في الفرار عبر نزوله برجاً من الأبراج التي تدعم سلك الجر (انظر أيضاً تعليقاتي على البيتين ١٤٩ و١٧١).

البيت ٧١: والداي

استحسن البروفيسور «هورلي»، بحماسة محمودة، أعمال «جون شايد» التي نشرت في غضون شهر بعد وفاة الشاعر. جاء ذلك في مجلة أدبية هزيلة، يغيب عني اسمها في كل لحظة، إذ أُطلِعتُ عليها في شيكاغو حيث قطعت رحلتي بالسيارة من «نيوواي» إلى «سيدارن» لبضعة أيام، في هذه الجبال الخريفية الكالحة.

لم يعد التعليق حيث ينبغي أن تسود معرفة هادئة مكاناً لنسف العوار المتعذر في ذلك النعي القصير. أشرت إليه ببساطة لأنني اكتشفت فيه بعض التفاصيل الهزيلة حول والديْ الشاعر. درس والده «صامويل شايد»، الذي توفي سنة ١٩٠٢ في سن الخمسين، الطب خلال شبابه، وأصبح نائب رئيس شركة خاصة بالتجهيزات الجراحية في «إكستن». بيد أن شغفه الأساس تجلى فيما يسميه ناعينا المفوه بـ«دراسة قبيلة الريش»، مضيفاً أن «طائراً حمل اسمه: «بومبيسيلا شايدي» (لا بد أنه «شايدي»، فعلاً). ساعدته والدته، واسمها «كارولين لوكين» عند الولادة، في عمله، حيث رسمت الرسوم الرائعة الواردة في كتابه طيور المكسيك، التي أتذكر أنني رأيتها في بيت صديقي. ما لا يعرفه الناعي هو أن «لوكين» اسم مشتق من «لوك»، كما يشتق منه «لوكوك» و»لوكسن» و»لوكاشيفيتش». وهو يمثل واحداً من الأمثلة العديدة التي ينشأ فيها اسم رب الأسرة الموروث، عديم الملامح ظاهريا لكن الحي والشخصي، في أشكال عجيبة، حول الحصاة العادية لاسم مسيحي. فآل «لوكين» عائلة عريقة في «إيسيكس». وتشتق أسماء أخرى من المهن مثل «رايمر» و»سكريفنر» و»لينر» (الذي يلمع الرقوق) و»بوتكين» (صانع الجُزَم، والأحذية

الفاخرة) وآلاف الأسماء الأخرى. كان معلمي، وهو اسكتلندي، يسمي كل بناية قديمة آيلة للانهيار بـ«منزل «هورلي».» لكن كفى من هذا.

ويمكن للقارئ أن يطلع على بعض الأخبار الأخرى حول دراسات «جون شايد» الجامعية وسنوات منتصف عمره الخالي من أحداث مهمة على نحو غريب، في مقال الأستاذ. ولو لم ينعش المقالة، إذا صح هذا التعبير، ببعض المعالم الخاصة، لباتت قطعة تافهة في رمتها. هكذا، لم ترد به سوى إشارة واحدة إلى تحفة صديقي (رزماتها المكوّمة بعناية كانت، وأنا أكتب هذه السطور، معرضة للشمس فوق طاولتي شأنها شأن سبائك معدنية رائعة كثيرة جدّاً)، حيث دونتُ هذا ببهجة مَرَضية: «قبيل وفاة شاعرنا المبكرة، يبدو أنه كان منشغلاً بكتابة قصيدة سيرية.» إذ حُرِّفت ظروف وفاته كلية على يد الأستاذ، وهو تابع قدري لنبلاء الصحافة اليومية الذين زوروا ـــ لأسباب سياسية ربما ـــ دوافع الجاني ونواياه دون انتظار محاكمته ـــ التي لم تكن لتجري في هذا العالم للأسف (انظر في النهاية تعليقي الختامي). لكن السمة الأبرز في النعي القصير، بالطبع، تكمن في أنه لا يتضمن إحالة واحدة إلى الصداقة البهية التي سطعت خلال الشهور الأخيرة من حياة «جون».

لم يستطع صديقي أن يستحضر صورة والده. على النحو ذاته، عجز الملك، الذي لم يكن هو الآخر قد بلغ الثالثة تماماً عندما توفي والده الملك «أَلْفِين»، عن استدعاء وجهه، رغم أنه تذكر جيداً تماماً، وهو أمر غريب، الطائرة الصغيرة الأحادية السطح المصنوعة من الشوكولاتة التي كان يمسك بها، وهو وليد ريان، في تلك الصورة الأخيرة ذاتها (يوم عيد ميلاد سنة ١٩١٨) للطيار الكئيب صاحب السروال القصير، إذ تمدد في حضنه مكرها ومتضايقا.

ويدين «ألفين الغامض» (الذي دام حكمه بين سنتي ١٩٠٠ و١٩١٨، لكن اضطرابا يشوب الفترة الممتدة بين ١٩٠٠ و١٩١٩ في معظم التراجم السيرية، مرده إلى تغيير التقويم المتزامن معها من الأسلوب القديم إلى الجديد) بلقبه لـ«أمفيتياتريكوس»، وهو كاتب ظريف ينشر شعر المناسبات في المجلات الليبرالية (كما كان مسؤولاً عن إطلاق اسم «أورانوغراد» على عاصمتي!). لم يكن يحدّ شرود الملك «أَلفِين» أي حدّ. إذ كان متكلماً ضعيفاً لا يملك في جعبته سوى بضع عبارات من اللغتين الفرنسية والدنمركية. لكن كلما كان عليه أن يلقي خطابا في رعاياه ـــ في جماعة من الريفيين «الزمبليين» الفاغرة أفواههم في وادٍ بعيد حيث تحطمت طائرته ـــ طفقت بعض التبدلات الخارجة عن السيطرة تعمل في ذهنه، ثم يرتدّ إلى تلك العبارات، ينكّهها ببعض اللاتينية حسب سياق الحديث. معظم النوادر المرتبطة بعوارض ذهوله الساذجة سخيفة وبذيئة لدرجة أنها ستدنس هذه الصفحات. لكنني أجدني أميل إلى أن أقدم هنا واحدة منها، لا أظن بصفة خاصة أنها مضحكة، استحثت «شايد» على قهقهات (واستحضرتها، في قاعة الأساتذة، بتنويعات فاحشة)، أقدمها كعيّنة (وكمثال تصحيحي). ذات صيف قبل الحرب العالمية الأولى، عندما عرج إمبراطور مملكة أجنبية عظمى (أدرك أن الاختيار محدود جدّاً لأن الأباطرة قلة)، في زيارة مجاملة استثنائية للغاية، على بلدنا القاسي الصغير، قاده والدي ومترجم «زمبلي» شاب (أترك تحديد جنسه مفتوحا)، في سيارة

مصممة خصيصاً له، اشتراها حديثا، في فسحة في البادية. كان الملك «ألفين» يسافر، كما جرت العادة، دون موكب حراسة، إذ بدا هذا الأمر، وسياقته الرشيقة، يثيران قلق ضيفه. وفي طريق العودة، قرر الملك «ألفين» التوقف، على بعد نحو عشرين ميلا من «أونهافا»، لإجراء بعض الإصلاحات. بينما كان يصلح المحرك، قصد الإمبراطور والمترجم ظلال بعض الصنوبرات على قارعة الطريق السيار. لم يدرك الملك «ألفين»، عندما عاد إلى «أونهافا»، أنه ترك أحدهم وراءه، إلا تدريجيا بعد تكرار أسئلة مسعورة بالأحرى (إذ خلد سؤال «أي إمبراطور؟» بوصفه مأثورته المشهودة الوحيدة). على العموم، لطالما أوعزت إلى شاعري أن يسجل أي مساهمة من مساهماتي (أو ما ظننته مساهمات)، كتابةً طبعا، لكن دون إفشائها في أحاديث تافهة. وعلى أي حال، فالشعراء بشر أيضاً.

امتزج شرود الملك «ألفين» على نحو غريب بشغف بالأشياء الميكانيكية، خاصة الآلات الطائرة. ففي سنة ١٩١٢، استطاع أن يرتفع بـ«طائرة مائية من نوع «فابر» أشبه بالمظلة، وكاد يغرق في البحر بين «نيترا» و»إندرا». إذ حطم طائرتي «فارمان»، وثلاث آلات «زمبلية»، وطائرة أثيرة من نوع «ديمان سانتوس دوموازيل». وفي سنة ١٩١٦، صنع له «ضابطه المساعد» المخلص طائرة أحادية السطح خاصة جدّاً من نوع «بليندا ٤». كانت هذه طائر الهلاك عند العقيد «جوزيف غوسيف» (الذي أصبح فيما بعد مظلِّيا رائدا، وصار في سن السبعين أحد أعظم المظليين في كل العصور). كان الملك «ألفين»، في صباح دجنبر الصحو، غير القارس الذي اختارته الملائكة لتقبض روحه النقية الوديعة، يحاول وحده أن ينجز حركة لولبية عمودية خادعة أطلعه عليها الأمير «أندري كاشورين»، الطيار البهلواني الروسي الشهير وبطل الحرب العالمية الأولى، في «غاتشينا». حصل خطأ ما، فشوهدت طائرة «بليندا» الصغيرة تغوص بشكل خارج عن السيطرة. كان العقيد «غوسيف» (الذي صار وقتئذ دوق «رال») والملكة يحلقان خلفه وفوقه بطائرة «كودرون» ذات السطحين، حيث التقطا صوراً عديدة لما بدا في البداية ارتقاءً أصيلاً وجميلاً، لكنه انقلب حينئذ إلى شيء آخر. وفي اللحظة الأخيرة، نجح الملك «ألفين» في إعادة التوازن لطائرته وأخضع الجاذبية من جديد، عندما طار، مباشرة بعد ذلك، ليرتطم بسقالة فندق ضخم بني وسط أرض ساحلية كأن المراد المحدد اعتراض طريق ملك. أمرت الملكة «بليندا» بدكّ هذه البناية غير المكتملة، المهترية
على سيء، وتعويضها بنصب تذكاري تافه من الصوان، تعلوه طائرة مصنوعة من البرونز بصورة بعيدة عن الواقع. ذات يوم، اكتشف «تشارلز زايفير»، الذي كان يبلغ حينها ثماني سنوات، المطبوعات الصقيلة من الصور المكبرة، التي تصور الفاجعة برمتها، في درج خزانة كتب سكرتير. في بعض هذه الصور الرهيبة، يُرى كتفا الطيار غير العابئ على نحو غريب وخوذته الجلدية؛ وفي الصورة قبل الأخيرة من هذه السلسلة، قبيل الارتطام القاصم الذي أثار غبارا أبيض، يُرى الملك بوضوح رافعاً يده علامة النصر والأمان. انتابت الطفل كوابيس فظيعة بعد ذلك، لكن والدته لم تكتشف أبداً أنه رأى تلك السجلات اللعينة.

تذكرها ـــ بغير وضوح: فارسة، طويلة القامة، جامحة، شجاعة، متوردة الوجه. طمأنها ابن خال من العائلة الملكية أن ابنها سيكون آمناً وسعيداً تحت وصاية السيد «كامبل» الرائع الذي علّم العديد

من الأميرات المطيعات الصغيرات استعراضَ الفراشات والاستمتاع بقصيدة مرثية اللورد رونالد(27). قدم حياته قربانا، إن جاز التعبير، على المذابح المحمولة لعدد هائل من الهوايات، بدءاً بدراسة أرضات الكتب إلى صيد الدب. كان بمقدوره أن ينشد ماكبث من البداية حتى النهاية خلال نزهات سيراً على الأقدام. لكنه لم يحفل بأخلاق من هم في عهدته، وآثر سيدات على أخريات، ولم يتدخل في تعقيدات اللواط في «زمبلا». في سنة ١٩٣٢، سافر إلى قصر غريب، بعد أن لبث في العمل عشر سنوات، عندما بدأ أميرنا، البالغ سبع عشرة سنة، يوزع وقته بين الجامعة وكتيبته. كانت تلك أزهى فترة في حياته. لم يستطع أبداً أن يحسم فيمَ كان يستمتع به أكثر؛ أهو دراسة الشعر ـــ خاصة الشعر الإنجليزي ـــ ، أم حضور الاستعراضات، أم الرقص في الحفلات التنكرية مع الفتيان ـــ الفتيات والفتيات ـــ الفتيان. ماتت أمّه فجأة يوم ٢١ يوليوز ١٩٣٦، بسبب مرض دموي غامض أصاب والدتها وجدتها. تحسنتْ حالها في اليوم السابق ـــ فالتحق «تشارلز زايفير» بحفلة راقصة كانت ستقام طيلة الليلة فيما سمي بـ«قبة الدوق في غريندلوود»، هي في الوقت الحاضر مسألة جنسية متغايرة رسمية، منعشة بالأحرى بعد بعض التسليات السابقة. في نحو السابعة الرابعة صباحا، بينما الشمس تلهب الأشجار وجبل «فالك» البركاني الوردي، أوقف الملك سيارته القوية أمام إحدى بوابات القصر. كان الجو لطيفاً جدّاً، والشروق شاعريا للغاية، حتى إنه قرر رفقة الأصدقاء الثلاثة قطع المسافة الباقية سيراً، عبر غيضة الزيزفون، إلى السرادق «البافوني» حيث نزل الضيوف. كان هو و»أوتار»، وهو صديق أفلاطوني، يرتديان سترتين، لكنها أضاعا قبعتيهما الرسميتين بسبب الرياح في الطريق السيار. انتاب انطباع غريب الأربعة كلهم، ما إن وقفوا أسفل الزيزفونات الصغيرة في المشهد الذي رسمته الجدران الداخلية المتقابلة وعززته الظلال والظلال المعكوسة. كان «أوتار»، وهو نبيل دمث ومثقف ذو أنف كبير وشعر خفيف، مصحوبا بخليليتيه «فيفالدا»، البالغة من العمر ثماني عشرة سنة (التي تزوجها لاحقاً)، و»فلور» ذات سبعة عشر ربيعاً (التي سنلتقي بها في تعليقين آخرين)، وهما ابنتا الكونتيسة «دو فايلر»، الوصيفة المفضلة لدى الملكة. سيتوقف المرء تلقائيا عند تلك الصورة، كما يفعل عندما يقف في لحظة زمنية مميزة، فيعرف عبر استعادة الماضي أن حياته ستشهد تغيراً جذريّاً. هنا إذاً كان «أوتار»، ينظر بوجه حائر إلى النوافذ البعيدة في جناح الملكة. هناك كانت الفتاتان، جنباً إلى جنب، بسيقانهما النحيفة، تلتحفان دثاراً متلألئاً، وأنفاهما الصغيران ورديان، وعيونهما خضراء ناعسة، وأقراطهما تقبض على لظى الشمس وتطلقه. كان هناك بعض الأشخاص، كما يحدث دائماً مهما كانت الساعة، قرب هذه البوابة التي يمر بها طريق متصل بالطريق السيار الشرقي. جلست امرأة بدوية تحمل كعكة صغيرة خبزتها بيدها، هي بلا شك والدة الحارس الذي لم يأت بعد لإراحة «ناثْديثْ» (ابن الليل) الشاب الأسود غير الحليق في مخفره الموحش، على صخرة أسطوانية تنظر بافتتان أنثوي إلى الشموع التي تتحرك من نافذة إلى أخرى مثل يراعات. توقف عاملان، وهما يمسكان بدراجتيهما، يحدقان في تلك الأضواء الغريبة، بينما ظل سكير ذو شارب أشبه بشارب الفقمة

يترنح ويربت على جذوع الزيزفون. يلتقط المرء تفاصيل بسيطة في هذه الحيوات البطيئة. لاحظ الملك أن وحلا مشوبا بالحمرة لطخ إطارات الدراجتين، وأن عجلتيهما الأماميتين موجهتان معاً إلى الوجهة ذاتها، إحداهما توازي الثانية. فجأة، جاءت الكونتيسة تجري على طريق شديد الانحدار بين شجيرات الليلك ـــ على مسافة قصيرة من جناح الملكة ـــ وتتعثر بأهداب فستانها المبطّن. وفي اللحظة ذاتها، من جهة القصر الأخرى، نزل جميع المستشارين السبعة، وهم في كامل أبّهتهم

الرسمية حاملين، كما يحمل كعك الخوخ، نسخا من مختلف شارات الملك، الأدراج الحجرية بخطى واسعة، في عجلة مهيبة، لكنها تجاوزتهم بمسافة ونفثت الخبر. شرع السكير يغني أغنية بذيئة حول «كارلي ـــ غارلي»، ثم سقط في الخندق الهلالي. ليس سهلاً أن تصف، بوضوح في تعليقات موجزة على قصيدة، مختلف مسالك قصر محصن. هكذا، إذ صرتُ واعيا بهذه المشكلة، أعددتُ لـ»جون شايد»، في وقت ما خلال يونيو، عندما كنت أسرد له الأحداث التي أشرت إليها بإيجاز في بعض ملاحظاتي (انظر التعليق على البيت ١٣٠، على سبيل المثال)، خريطةً مرسومة ببراعة كبيرة لغرف قصر «أونهافا» وشرفاته ومعاقله وأماكنه الترفيهية. ما لم تتعرض للتلف أو السرقة، فإن صورة هذه الخريطة المرسومة بعناية بحبر ملوّن على قطعة كبيرة (ثلاثين إنْشاً على ثلاثين) من الورق المقوى، ربما مازالت موضوعة حيث رأيتها آخر مرة في منتصف يوليوز، فوق الصندوق الأسود الكبير، مقابل المكواة القديمة، داخل كوة الرواق الصغير المؤدي إلى ما سمي بمخزن الثمار. وإذا لم تكن هناك، يمكن البحث عنها في مكتبه بالطابق العلوي. راسلت السيدة «شايد» حول هذا الأمر، لكنها لم ترد على رسائلي. وإذا كانت ما تزال موجودة، أودّ أن أستعطفها، من غير أن أرفع صوتي، بتذلل شديد، كما قد يتذلل أصغر رعايا الملك تشفُّعا لاستعادة حقوقه على الفور (فالخريطة خريطتي، وهي موقعة توقيعاً واضحاً بالتاج الأسود لملك الشطرنج باسم «كينبوت»)، أن ترسلها، موضبة بشكل جيد، مع وضع ملحوظة تجنب الطي على الظرف، عبر البريد المضمون إلى ناشري بغية نسخها في الطبعات اللاحقة من هذا العمل. تراجع ما تيسر مما امتلكته من طاقة تماماً في الآونة الأخيرة، وبات هذا الصداع الموجع الآن يمنعني من الجهد الفكري والبصري الذي سيتطلبه رسم خريطة أخرى مثل هذه. إذ يوجد الصندوق الأسود فوق صندوق آخر بنّي أو بني داكن، بل أكبر منه، وأظن أنه يوجد ثعلب أو قيوط محشوٌّ جنبهما في زاويتهما المظلمة.

البيت ٧٩: الماضويّ

كُتِب بيتان في مقابل هذا في هامش المسودة، لا يُقرأ منهما سوى الأول. وهو يقول:

المساءُ آنُ مديحِ النهارِ

أشعر أنني متأكد إلى حد كبير أن صديقي كان يحاول أن يدمج هنا شيئاً سمعني هو والسيدة «شايد» أقتبسه في لحظاتي المرحة، أعني رباعية بديعة مأخوذة مما يماثل قصائد «إلدر إيدا»(28) في ثقافتنا «الزمبلية»، في ترجمة إنجليزية مجهولة (هل هي ترجمة «كيربي»؟):

يمدح الحكيم النهار عند الغروب،

والزوجة عندما ماتت،

والجليد بعد العبور، والعروس

عندما تعثرت، والفرس عند الاختبار.

البيت ٨٠: مهجعي

كان أميرنا شغوفا بـ«فلور» كأنها شقيقته، لكن من غير أدنى ذرة شك في اشتهاء المحارم أو التباسات جنسية شاذة ثانوية. كانت ذات وجه شاحب صغير، عظما وجنتيه بارزان، وعينين مشرقتين، وشعر أسود مجعد. شاع أن النحات والشاعر الاجتماعي «أرنور» وجد فيها ما كان يبحث عنه، بعد جولة بكأس خزفي وخفّ سيندريلا لشهور، واستخدم نهديها وقدميها في منحوتته ليليث تستعيد آدم. لكني لست خبيراً في هذه المسائل الدقيقة بالتأكيد. قال «أوتار»، عاشقها، إنك عندما تسير خلفها، وتدرك هي أنك تسير خلفها، يتأرجح ذانك الردفان الممشوقان ويتلاعبان بفنية بليغة، تضاهي ما تعلمته فتيات عربيات في مدارس خاصة على يد قوّادين باريسيين شنقوا بعدئذ. قال إن كاحليها الهشّين، اللذين تضعهما الواحد قرب الآخر في مشيتها المتأنقة والمائجة، صارا بمثابة «الحليّ الثمينة» في قصيدة «أرنور» حول «ميراغارل» («فتاة السراب»)، التي «سيهديها ملك أحلام في براري الزمن الرملية ثلاثة آلاف جمل وثلاث فسقيات.»

////

On sagaren werem tremkin tri stana

////

Verbalala wod gev ut tri phatana

(حددتُ علامات التوكيد).

لم يكترث الأمير بهذه الثرثرة السخيفة بالأحرى (التي وجهتها كلها والدتها، على الأرجح)، إذ ظل ينظر إليها، ولتسمحوا لي بتكرار ذلك، بوصفها مجرد شقيقة، متطيبة وأنيقة، ذات برطمة مصبوغة وطريقة عابسة، باهتة، غالية(29) في التعبير عن النزر القليل الذي تأمل التعبير عنه. سلاَّه نفورها الهادئ من الكونتيسة المنفعلة والثرثارة. أحبّ الرقص معها ـــ معها وحدها. يكاد لا يتضايق نهائيا حينما تدعك يده أو عندما تلصق شفتيها المفتوحتين في صمت بخدّه الذي سبق أن سخّمه الفجر المضني بعد الحفلة الراقصة. لم يبدُ أنها تمانع عندما يهجرها إلى رغبات رجالية. ثم تلتقي به مجددا في عتمة سيارة أو في الضوء القاتم في ملهى بالابتسامة المكبوتة والغامضة لابنة خال محبّة.

كانت الأيام الأربعون الفاصلة بين وفاة الملكة «بليندا» وتتويجه ربما الفترة الأصعب في حياته. لم يشعر بأي تعلق بوالدته، حيث ارتدّ الندم العضال والممض الذي أحس به حينئذ خوفا جسديا مرضيا من شبحها. أجبرته الكونتيسة، التي بدا أنها كانت قريبة منه وتُهَسْهِس بجانبه طيلة الوقت، على حضور جلسات المائدة المستديرة مع وسيط أمريكي خبير، جلسات هبّت فيها وقتئذ روح الملكة، مستعملة النوع نفسه من اللويحة التي اعتادتها في حياتها لتدردش مع «ثورمودوس تورفاووس» و»أ. ر. والاس»، إلى كتابة ما يلي بالإنجليزية: «يا «تشارلز» خذ خذ ارْع الحب زهرة زهرة زهرة.» وقد حمل طبيب نفساني، غارق تماماً في رشاوى الكونتيسة إلى درجة يبدو، حتى من مظهره الخارجي، مثل إجاصة عفنة، الأميرَ على الاطمئنان إلى أن رذائله قتلت والدته دون وعي، وأنه سيواصل «قتلها في داخله» إن
هو لم يقلع عن اللواط. فمكيدة القصر هي عنكبوت شبحية توقعك في شركها بخبث أكبر كلما أتيتَ حركة يائسة. كان أميرنا شابا، عديم الخبرة، شبه محموم بالأرق. يكاد لا يقاوم على الإطلاق.
أنفقت الكونتيسة ثروة لرشوة فرّاشه، وحارسه الشخصي، بل وجزء أكبر من حجاب القصر. أخذت تنام في حجرة انتظار صغيرة بجوار غرفة نوم عزوبيته، وهي حجرة دائرية رحبة رائعة تقع في أعلى البرج الشرقي الجنوبي الشاهق والضخم. كان هذا مفزع والده، الذي مازال متصلا بزلاّقة رائعة في الجدار، تؤدي إلى مسبح مستدير في الصالة السفلى، لعلّ الأمير يبدأ نهاره مثلما اعتاد والده أن يبدأ بفتح لوحة قرب سريره العسكري، ويتدحرج في قناة الزلاّقة؛ ومن ثمة، ينطلق نحو الماء المتلألئ. أقام «تشارلز زايفير»، لغايات أخرى غير النوم، وسط الجناح المغطى بالسجاد الفارسي ما سمي بـ«باتيفوليا»؛ أي وسادة بيضوية ضخمة محشوة بريش الإوز على نحو فاخر، يعادل حجمها ثلاثة أسرّة. في هذا العشّ الفسيح صارت تنام «فلور»، ملتفة على نفسها في وسطه المجوّف، تحت غطاء مصنوع من فرو باندا ضخم خالص أرسلته حديثا من التِّبِت جماعة من المهنّئين الآسيويين بمناسبة اعتلائه العرش. كان للحجرة، حيث مهجع الكونتيسة، درج داخلي وحمام خاص، لكنها موصولة كذلك عبر باب جرّار يؤدي إلى الرواق الغربي. لا أعرف أي نصيحة أو أمرٍ تلقته «فلور» من والدتها، لكن ثبت أن الصغيرة المسكينة غاوية زرية. ظلت تحاول، مثل مجنونة هادئة، أن تصلح كمان الحب المكسور أو تجلس في وضعيات مؤلمة تقارن بين نايين قديمين، كلاهما ذوا نغم حزين وضعيف. في تلك الأثناء، كان يسترخي، بزي تركي، على أريكة والده الوثيرة، قدماه ممدودتان على متّكئها، يقلب صفحات جزء من كتاب تاريخ زمبلا، مستنسخا بعض المقتطفات منه، باحثا من وقت لآخر داخل زوايا مقعده السفلى عن زوجي نظارة

قديمتي الطراز خاصتين بالسياقة، أو خاتم مرصع بحجر أسود، أو لفافة شوكولاتة فضية مكورة، أو نجمة نيشان أجنبي.

كانت شمس الغروب دافئة. لم تكن ترتدي في اليوم الثاني من تعايشهما السخيف سوى منامة فوقية بلا أزرار، ولا كمّيْن. أغاظه أن يرى أطرافها العارية الأربعة وجحورها الثلاثة (حسب التشريح «الزمبلي»). وإذ يذرع المكان جيئة وذهابا، يفكر في خطاب اعتلاء العرش، كان يقذف إليها، من غير أن يختلس النظر إليها، بسراويلها أو فستان من قماش وَبَري. وفي بعض الأحيان، كان يجدها، وهو عائد إلى الأريكة المريحة القديمة، جالسة عليها، تتأمل بحزن صورة محارب قديم في كتاب التاريخ. يطردها من أريكته، وعيناه ما تزالان مركزتان على كرّاسة الكتابة. تتوجه لتتمدد على المقعد القريب من النافذة تحت أشعة الشمس التي يتراقص فيها الغبار. لكنها حاولت، بعد برهة، أن تعانقه. اضطر إلى إبعاد رأسها ذي الشعر الأسود المجعد المُحْتَفَر بيدٍ، بينما يكتب باليد الثانية أو ينزع مخالبها الوردية الصغيرة، واحداً تلو آخر، من رُدْنه أو وشاحه.

لم يطرد حضورُها في الليل الأرقَ عنه، لكن أبعده، على الأقل، عن شبح الملكة «بليندا» الجبار. كان يبدد الوقت، بين الوصب والوسن، بالتخيلات الخسيسة، كأن ينهض ويصب بعض الماء البارد من دورق على كتف «فلور» العاري حتى يطفئ النور الواهن لشعاع القمر المسلط عليه. كان غطيط الكونتيسة جهيراً في سريرها. خلف دهليز حراسته، (هنا بدأ يغرق في النوم)، داخل الرواق البارد المظلم، كان هناك خدامه الجدد، طورٌ كامل من الفتيان الموهوبين من «تروث» و»توسكاني» و»ألبانولاند»، منبطحين جميعاً فوق الرخام المصبوغ في ثلاثة أو أربعة أكوام قبالة الباب المغلق، بعضهم يغفو، والبعض الآخر يئن.

استيقظ ليجدها واقفة، وفي يدها مشط، أمام مرآته الكبيرة المتحركة ـــ أو بالأحرى، مرآة جده ـــ ، وهي مرآة عجيبة فعلاً، ذات درفات ثلاث منارة إنارة لُجّية، وقعها صانعها «سودارغ أوف بوكاي» بماسةٍ. كانت تدور حول نفسها أمام المرآة؛ كان ثمة جهاز خفي يعكس عددا غير نهائي من العراة في أغوارها، بنات معروضات في جماعات رشيقة وحزينة، تغيض في البعد الشفاف، أو تنقسم إلى حوريات فردية، لا بد أن بعضهن يشبهن، كما همست، جداتها عندما كن شابات ـــ ريفيات صغيرات يمشطن شعورهن في مياه ضحلة على مدّ البصر، وحينئذ تظهر عروس البحر الحزينة من حكاية قديمة، ثم لا شيء.

في الليلة الثالثة، انبعث وقع خطو قوي وخبط أذرع في الأدراج السفلى، فظهر رئيس المستشارين وثلاثة نواب عن الشعب ورئيس حرَس جديد. لعل الطريف في الأمر هو أن يغضب نواب الشعب أكثر من غيرهم من أن تصير حفيدة عازف كمان ملكة. كان في ذلك نهاية الحب الطاهر بين «تشارلز زايفير» و»فلور» التي كانت جميلة ولم تصبح بعد قبيحة (شأنها شأن بعض القطط التي تكون أقل شناعة من أخرى بالنسبة للكلب الأليف الذي يطلب منه أن يتحمل الرائحة الكريهة لجنس غريب). انقلبت السيدتان عائدتين إلى ملحقة القصر، بحقائبهما البيضاء وآلاتهما الموسيقية القديمة.

تلا ذلك مسحة ارتياح لطيفة ـــ ثم انفتح باب حجرة الانتظار بارتطام مرح، ووقع تمثال الملاك الصغير كومة واحدة.

عاش محنة أكثر تأثيراً ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك رفقة «ديزا»، دوقة «باين»، التي تزوجها سنة ١٩٤٩، كما تصف ذلك التعليقات على الأبيات ٢٧٥ و٤٣٣ ـــ ٤٣٤، التي سيصل إليها دارس قصيدة «شايد» في الوقت المناسب. ليس هناك ما يستعجل ذلك. تلت ذلك فصول أصياف هادئة. كانت «فلور» المسكينة تحوم في الجوار، وإن ظلت مستترة عن الأعين. صادقتها «ديزا» بعد وفاة الكونتيسة العجوز في الدهليز المزدحم لمعرض الحيوانات الزجاجية سنة ١٩٥٠، عندما خرّبت النار جزءاً منها، بينما كان «غرادوس» يساعد لواء رجال الإطفاء على إخلاء مساحة داخل البهو بغية إعدام مضرمي النّار غير النقابيين، أو على الأقل الشخصين (السائحين الدنمركيين المحيّرين) اللذين حسب أنهما مشعلاً الحريق. ربما شعرت ملكتنا الشابة ببعض التعاطف الغامض تجاه وصيفتها الشاحبة التي كان الملك يراها، بين الفينة والأخرى، تضيء برنامج حفلة موسيقية بالنور المائل المنبعث من نافذة قوطية، أو يسمعها تدندن لحنا خافتا في الصالون ب. ثمة تلميح ثان إلى مخدعه الجميل الذي كان ينام به أيام العزوبة في التعليق على البيت ١٣٠، بوصفه مكان «أَسْره المترف» في بداية الثورة «الزمبلية» المملة التي لا لزوم لها.

البيت ٨٥: رائية البابا

«بيوس» العاشر، «جوزيبي ميلكيوري سارتو»، ١٨٣٥ ـــ ١٩١٤؛ شغب منصب البابا من ١٩٠٣ إلى ١٩١٤.

الأبيات ٨٦ ـــ ٩٠: عمتي «مود»

«مود شايد»، ١٨٦٩ ـــ ١٩٥٠، هي شقيقة «صامويل شايد». عندما ماتت، لم تكن «هازل» (التي رأت النور سنة ١٩٣٤) قد أصبحت «رضيعة» بالمعنى الحرفي الصحيح، كما يدل على ذلك البيت ٩٠. وجدت رسومها شنيعة، لكن مثيرة للاهتمام. كانت العمة «مود» بعيدة عن العنوسة. لا بد أن تقلباتها المزاجية المغالية والهازئة صدمت أحياناً سيدات «نيوواي» المتكلفات.

الأبيات ٩٠ ـــ ٩٣: غرفتها، الخ.

يأتي في المسودة، بدل النص النهائي ما يلي:

..... غرفتها

أبقيناها على حالها. توافقها عندنا

ترسم أسلوبها ثانية: التابوت الورقي

(شرنقة إله القمر ماتت وجفّت)

الإحالة إلى ما يعرّفه قاموسي بأنه «فراشة كبيرة، مذيّلة، خضراء باهتة، تتغذى يرقتها على الجوز. أظن أن «شايد» غيّر هذا المقطع لأن اسم فراشته تضارب مع «القمر» في البيت اللاحق.

البيت ٩١: توافه

من بينها سجل قصاصات ظلت العمة «مود» تلصق فيه، على امتداد سنوات (١٩٣٧ ــ ١٩٤٩)، قصاصات ذات طبيعة مضحكة أو غريبة على نحو لاإرادي. سمح لي «جون شايد» ذات يوم بنقل قصاصتي السجل الأولى والأخيرة في مذكرتي، حيث افترضت أنهما كانتا متصلتين أورع اتصال. كلتاهما مقصوصتان من المجلة العائلية نفسها «لايف»، المعروفة فعلاً بتزمّتها فيما يتعلق بألغاز الذكورة؛ من ثمة، يمكن للمرء أن يتخيل مدى اندهاش تلك العائلات أو دغدغتها. الأولى مأخوذة من العدد الصادر يوم ١٠ مايو ١٩٣٧، ص. ٦٧، وهي تشهر مخلب إبزيم السروال (بالمناسبة، إنه اسم لازب وممض بالأحرى). إذ تُظْهِر سيّدا شابا يشع رجولة وسط صديقات منتشيات عديدات، بينما تقول العبارة: ستندهش من أن ذبابة سروالك يمكن أن تتحسن بشكل هائل. والثانية مأخوذة من العدد الصادر يوم ٢٨ مايو ١٩٤٩، ص. ١٢٦، وهي تشهر تبّان ورقة التين من نوع «هانس». إذ تظهر حواءً عصرية تسترق النظر، على نحو مبجل، خلف أصيص شجرة المعرفة، إلى آدمي شبق شاب يرتدي لباساً داخليّاً عاديّاً، لكن نظيفاً، بينما واجهة تبانه المعلن عنه مظلَّل على نحو ظاهر ومحكم، والعبارة تقول: لا شيء يتغلب على ورقة التين.

أعتقد أنه يجب أن تكون هناك مجموعة هدّامة خاصة من أشباه الأطفال المجنحين ــ من الشياطين الصغار البُدُن الصلعان الذين أمرهم إبليس بإلحاق ضرر شنيع بأماكن مقدسة.

البيت ٩٢: مكبس الورق

انتابت صورةُ تلك الفظاعات القديمة شاعرَنا بشكل غريب. لقد قصصت قصيدة من قصائده القديمة، من جريدة أعادت نشرها مؤخرا، يحتفظ فيها متجر الذكريات أيضاً بمشهد طبيعي يعجب به السائح:

منظر جبلي

بين الجبل والعين

تسدل روح المسافة

حجاب شَفٍّ غرامي أزرق،

نسيج السماء نفسه.

يدرك النسيمُ الصنوبرات،

وأَلْحَقُ بالتهليل السائد.

لكننا نعرف جميعاً أنه لن يدوم،

الجبل لِوَهَنه الشديد لا ينتظر ـــ

حتى لو تناسل فيَّ وصار زجاجا

كما في مكبس الورق.

البيت ٩٨: هوميروس «تشابمان»

هي إشارة إلى عنوان سونيتة «كيتس» الشهيرة (غالبا ما تقتبس في أمريكا) التي نقلت، بسبب شرود طابع، على نحو مضحك، من مقالة أخرى إلى تقرير حول حدث رياضي. للاطلاع على أخطاء مطبعية قوية أخرى، انظر التعليق على البيت ٨٠٢.

البيت ١٠١: لا حرَّ يحتاج إلى إله

عندما ينظر المرء إلى أعداد المفكرين والشعراء التي لا حد لها في تاريخ الإبداع الإنساني الذي تعزز فيه العقيدةُ حريةَ العقل بدل أن تحجمها، لا بد للمرء أن يسائل حكمة هذه القولة المأثورة البسيطة (انظر كذلك التعليق على البيت ٥٤٩).

البيت ١٠٩: الإريديول

هي غيمة قزحية الألوان، أو السحابة اللؤلؤة في اللغة «الزمبلية». أظن أن مصطلح «الإريديول» بدعة من بنات أفكار «شايد». إذ كتب فوقها، في النسخة المنقحة (الجذاذة التاسعة، الموقعة بتاريخ ٤ يوليوز)، بقلم الرصاص، عبارة: «ريش الطاوس». و»ريش الطاوس» هو جسم صنف من الذباب المصطنع، يسمى كذلك بـ«آلدر». هذا ما يخبرني به مالك هذا النزل، وهو صياد سمك متحمس. (انظر أيضاً «ومضات متلألئة غريبة» في البيت ٦٣٤.)

البيت ١١٩: الطبيب «ساتن»

هذا الاسم توليف لحروف مأخوذة من اسمين هما: أحدهما يمثل البداية هو «سات» ( )Sut والثاني النهاية هو «تن» (ton). وهما طبيبان متميزان، تقاعدا عن العمل منذ زمن طويل، إذ سكنا في تلّتنا. كانا كلاهما صديقين من أصدقاء «شايد» القدامى. كان لأحدهما ابنة، هي رئيس نادي «سيبيل» ـــ وهذا هو الطبيب «ساتن» الذي أتصوره في تعليقاتي على البيتين ١٨١ و١٠٠٠. كما ترد الإشارة إليه في البيت ٩٨٦.

البيتان ١٢٠ ـــ ١٢١: كانت خمس دقائق بقدر أربعين أوقية من الرمل الصقيل، الخ.

كتب في الهامش الأيسر وموازاة معه: «في العصور الوسطى، كانت ساعة واحدة تعادل ٤٨٠ أوقية من الرمل الناعم أو ٢٢٥٦٠ ذرة.»

لا أستطيع التحقق من هذا التصريح أو من حسابات الشاعر حول الدقائق الخمس؛ أي ثلاثمائة ثانية، طالما أنني لا أرى كيف يمكن تقسيم ٤٨٠ على ٣٠٠ أو العكس، لكن ربما لأني متعب فقط. في اليوم (٤ يوليوز) الذي كتب فيه «شايد» هذا، كان «غرادوس»، القاتل المحترف، يتأهب لمغادرة «زمبلا» بسبب هفواته الثابتة عبر نصفي الكرة الأرضية (انظر التعليق على البيت ١٨١).

البيت ١٣٠: لم أنطِّط كرة أبداً، ولا حرّكتُ مضربا

بصراحة، لم أبرع أبداً، أنا أيضاً، في كرة القدم أو الكريكيت؛ فأنا فارس مقبول، ومتزلج قوي وإن كنت غير تقليدي، ومتزحلق جيد، ومصارع مخاتل، ومتسلق صخور متحمس.

تلي البيت ١٣٠ في المسودة أربعة أبيات أهملها «شايد» لصالح تلك التي أبقاها في النسخة المصححة (البيت ١٣١، الخ.). تأتي هذه البداية الخاطئة على النحو الآتي:

إذ يلعب الأطفال في قلعة عثروا

في خزانة قديمة مليئة بالدمى، خلف

الحيوانات والأقنعة، على باب جرار

[أربع كلمات مشطوبة بشدة] رواق سرّي ــــ

ظلت المقارنة معلّقة. من المحتمل أن شاعرنا اعتزم ضمها إلى تقرير حول وصوله إلى حقيقة غامضة ما بين ثنايا الطفولة الباهتة. ليس بمقدوري التعبير عن مدى تأسفي لكونه حذف هذه الأبيات. أنا آسف، لا بسبب جمالها الجوهري فحسب، الذي هو جمال عظيم، وإنما أيضاً لأن الصورة التي تتضمنها أوحت بشيء تلقّاه «شايد» عني. سبق لي أن لمّحت، في مجرى هذه التعليقات، إلى مغامرات «تشارلز زايفير»، ملك «زمبلا» الأخير، وإلى الاهتمام الشديد الذي أبداه صديقي بالقصص العديدة التي حكيتها له عن ذلك الملك. ذلك أن الجذاذة المفهرسة، التي احتفظت بهذه الصيغة البديلة، مؤرخة بيوم ٤ يوليوز، وهي تحمل صدى مباشرا لجولاتنا أثناء الغروب في ممرات «نيوواي» و»دالويتش» العطرة. «أخبِرْني المزيد»، كان يقول، وهو يفرغ غليونه إذ ينقره على جذع شجرة زان. كنت ألبّي طلب صديقي بسرور، بينما تتلكأ الغيمة الملونة، فيما تجلس السيدة «شايد» مستمتعة في هدوء بمسرحية تلفزيونية، بعيداً في البيت المضاء على التلة.

وصفت بكلمات بسيطة الوضع الغريب الذي وجد الملك نفسه فيه خلال الأشهر الأولى من الثورة. راوده الشعور المضحك بكونه القطعة السوداء الوحيدة فيما قد يسمه واضع مشكلات الشطرنج بنموذج الملك الوحيد المحاصر في الزاوية. ربما ظل الملكيون، أو الديمقراطيون المعتدلون على الأقل، يحولون دون أن تتحول الدولة إلى استبداد حديث مألوف، إذ استطاعوا التعامل مع الذهب المزور والكتائب الموجهة التي كانت تصبها دولة

بوليسية قوية في الثورة «الزمبلية» من قاعدتها ذات الموقع الممتاز على بعد أميال في البحر. رفض الملك التنازل عن العرش، رغم حالة اليأس الناتجة عن الوضع. بات سجينا متغطرسا ومتجهما، حيث صار محبوسا في قصره الحجري الوردي الذي يسمح برج إحدى زواياه للمرء بأن يرى، بواسطة منظار ميداني، شبابا رشيقين يغطسون في مسبح نادٍ رياضي في حكاية ملفقة، بينما يلعب السفير الإنجليزي الذي يرتدي بنطلونا قديما كرة المضرب مع المدرب الباسكي في ملعب ترابي أبعد من الجنة. كم كانت الجبال واضحة، وبأي رقة رسمت على طاق السماء الغربي!

كانت أحداث عنف بشعة واعتقالات وإعدامات تحدث كل يوم، في مكان ما بمدينة الضباب، لكن المدينة الكبرى واصلت الحياة بانسياب كما جرت العادة، حيث كانت المقاهي تعجّ بالرواد، ويقدم المسرح الملكي مسرحيات رائعة، فيما كان القصر فعلاً المكان الذي اشتمل على قتامة أقوى تركيزا. فرض مفوَّضون ذوو وجوه صخرية وأكتاف مربوعة انضباطاً صارماً بين القوات الذين يحرسون الداخل والخارج. وانتهت الحيطة الشديدة إلى إغلاق أقبية النبيذ وإجلاء جميع الخادمات من الجناح الجنوبي. وانصرفت الوصيفات، بالطبع، منذ زمن طويل، عندما نفى الملك ملكته إلى فيلَّتها في الـ»ريفييرا» الفرنسية. الشكر للسماء لأنها تجنبت تلك الأيام الرهيبة في القصر القذِر!

كان باب كل غرفة محروسا. وكان بصالة المآدب ثلاثة حراس، وما لا يقل عن أربعة يتسكعون في المكتبة التي بدت زواياها المظلمة حِمى لظلال الخيانة. وكان لكل غرفة من غرف حشَم القصر الباقين طفيلي مسلح، يشرب الرمّ المحرم رفقة خادم كهل أو يتخطى حدود اللياقة مع خادم شاب. وفي قاعة المبعوثين الفسيحة، يمكن للمرء أن يكون واثقاً دائماً من وجود مهرجين سفهاء يحاولون الانسلال داخل الدروع الفولاذية الخاصة بفرسانها المجوّفين. ويا لها من رائحة الجلود والتيوس داخل الغرف الفسيحة التي كانت فواحة، في السابق، بعبير القرنفل والليلك!

تألفت هذه الرفقة الهائلة من مجموعتين: مجنّدون جهلة ذوو طلعات ضارية، لكنهم في الواقع غير مؤذين تماماً، وهم ينحدرون من جزيرة «ثول»؛ ومتطرفون متكتمون ومهذبون للغاية، قادمون من مصنع الزجاج الشهير حيث اندلعت شرارة الثورة أول الأمر. بمقدور المرء الآن أن يكشف (بما أنه آمن في باريس) أن هذه الوحدة ضمّت ملكيّاً شجاعاً واحداً على الأقل، متنكراً ببراعة كبيرة حتى إنه جعل زملاءه غير المرتابين من الحرس يبدون مثل مقلِّدين عاديين. في الواقع، كان «أودن» أحد أبرز الممثلين في «زمبلا»، حيث كان يحظى بالتصفيق في المسرح الملكي في كل الأمسيات خارج أوقات العمل. إذ ظل الملك على اتصال، من خلاله، بالعديد من الأتباع، والنبلاء الشباب، والفنانين، ورياضيي المدارس، والمقامرين، وأنصار «الوردة السوداء»، وأعضاء نوادي المسايفة، ورجال آخرين يسايرون الموضة ويهوون المغامرة. هدَرَت الشائعات. قيل إن الأسير سيحاكم قريباً أمام محكمة خاصة. لكن قيل أيضاً أنه سيقتل رميا بالرصاص أثناء نقله المزعوم إلى مكان عزل آخر. ورغم أن الفرار كان يناقش يوميا، إلا أن قيمة خطط المتآمرين كانت جمالية أكثر منها عملية. إذ تم تجهيز زورق ذي محرك قوي في مغارة ساحلية (الشرم الأزرق) قرب «بلاويك» غرب «زمبلا»، خلف سلسلة الجبال العليا التي تفصل المدينة عن البحر. كانت

انعكاسات الماء الشفاف المترجرج المتخيلة على الجدار الصخري مغرية. لكن لا أحد من المخطِّطين كان قادراً على اقتراح كيفية هروب الملك من قصره واجتياز حصونه بأمان.

اتهم الملك، ذات يوم من أيام غشت، في مطلع الشهر الثالث من أسره المترف بالبرج الجنوبي، باستخدام مرآة غندور يدوية وأشعة الشمس لإرسال إشارات من نافذته العالية. لم تنمّ سعة المشهد الذي كانت تستشرفه على أنها مساعدة على الخيانة فحسب، بل ولدت عند الناظر شعوراً مرحاً بالتفوق على سجّانيه المقيمين بالطابق السفلي. ومن ثم، نقلت معدات الملك، ذات مساء، إلى غرفة مهملات كئيبة تقع في الجناح نفسه من القصر، لكن في طابقه الأول. قبل سنوات عديدة، كانت غرفة لباس جده «ثورغوس» الثالث. وبعد وفاة «ثورغوس» (سنة ١٩٠٠)، حُوِّل مهجعه المزخرف إلى ما يشبه الكنيسة؛ بينما سرعان ما تحللت الحجرة المجاورة، المجردة من مراياها الطويلة المتعددة وأريكتها الحريرية الخضراء، إلى ما بقي منها الآن منذ نصف قرن، إلى وجارٍ قديم به صندوق مقفل في زاوية وآلة خياطة عتيقة في زاوية أخرى. وهي موصولة عبر رواقٍ مرصوف بالرخام، يمتد على طول جانبها الشمالي، ثم ينعطف مباشرة بشكل حاد نحو غربها، ليشكل دهليزاً في زاوية القصر الجنوبية. تطل النافذة الوحيدة على ساحة داخلية في الجهة الجنوبية. كانت النافذة سابقاً عبارة عن لوح زجاجي ملون رائع، به رسم طائر ناري وصياد منبهر، لكن لاعب كرة قدم حطّم مؤخراً مشهد الغابة الخرافي، فأُوصِد لوحُها العادي الجديد من الخارج. وعلى جدار الجانب الجنوبي، علقت صورة ضخمة في إطار مخملي أسود، فوق خزانة مطلية بالأبيض. إذ عتَّقت الشمسُ نفسُها التي اتهمت بإرسال رسائل من البرج، بأفعالها العابرة والشاحبة، لكن المتكررة آلاف المرات، بالتدريج هذه الصورةَ التي أظهرت المظهر الرومانسي والكتفين العريضين العاريين للممثلة المنسية «إريس أخت»، التي قيل إنها ظلت خليلة «ثورغوس» طيلة سنوات عديدة، انتهت بوفاتها المفاجئة سنة ١٨٨٨. في المقابل، ثمة باب ذو مظهر تافه، في جدار الجانب الشرقي، شبيه في لونه الفيروزي بباب الغرفة الآخر الوحيد (المنفتح على الرواق)، لكن المغلق برتاج على نحو آمن، كان يؤدي في السابق إلى مهجع الكهل المتهتك؛ لكنه فقد الآن أكْرته الفضية، وتتاخمه على جدار الجانب الشرقي منحوتتان متلاشيتان تعودان إلى فترة خراب الحجرة. كانتا من النوع الذي لا يفترض في الواقع أن نراه، من الصور التي توجد فقط كمفاهيم عامة للصور تلبية للحاجات الزخرفية البسيطة في ردهة ما أو غرفة انتظار. كانت إحداهما برثاثة وكآبة لوحة الحفلة الفلمنكية لـ»تينييه»، بينما كانت الثانية معلقة في وقت سابق ببيت الحضانة الذي ظل مرتادوه النُّعَّس يظنونها تصف أمواجاً مُزبدة في مستواها الأول بدل الأشكال المشوشة لأغنام كئيبة التي تكشفها الآن.

تنهد الملك وبدأ يخلع ملابسه. وضع سريراً قابلاً للطي ومنضدة قبالة النافذة، في الزاوية الشمالية الشرقية. وجد الباب الفيروزي شرقا، وباب الرواق شمالا، باب الخزانة غربا، والنافذة جنوبا. خلع عنه وصيف خادمه السابق سترته السوداء وسرواله الأبيض. جلس الملك بمنامته على حافة السرير. عاد الرجل بخفين من جلد الماعز المدبوغ، وأَحْذَاهما قدمي سيده الفاترتين، ثم غادر حاملاً الحذاء الذي نزعه عنهما. توقفت نظرة الملك الشاردة عند النافذة الموارِبة. كان بمقدوره أن يرى الساحة المضاءة بضوء خافت حيث جلس جنديان على مقعد حجري، أسفل شجرة حور

مسيجة، يلعبان لعبة الحظ. كان ليل الصيف ساكنا، لكن لم تلح نجوم في سمائه، إذ كانت تتراءى في البعيد اختلاجات برق صامت. ظلت عثة أشبه بخفاش ترفرف حول المصباح المنتصب فوق المقعد ـــ إلى أن أرداها المقامر بقبعته. تثاءب الملك، واضطرب لاعبا الورق تحت ضوء المصباح، وذابا في لمعان دموعه. انتقلت نظرته البَرِمة من جدار إلى آخر. كان باب الرواق مفتوحاً قليلاً، قدر ما يجعله قادراً على سماع خطوات الحارس جيئة وذهاباً. فوق الخزانة، شمخت «إريس أخت» بكتفيها ونظرت بعيداً. ثمة جدجد يصرصر. كان ضوء مصباح المنضدة قويّاً حقّاً بما يكفي لتسليط وميض ساطع على المفتاح المذهب في قفل باب الخزانة. فجأة، أحدثت تلك الشرارة المسلطة على ذلك المفتاح احتداما عجيبا انتشر في كامل عقل السجين.

سنعود الآن من منتصف غشت ١٩٥٨ إلى ما بعد ظهيرة ذات يوم من أيام مايو قبل ثلاثة عقود، عندما كان فتى قويا أسمر في الثالثة عشرة من عمره، ذا خاتم فضي يزين سبابة يده المسفوعة. كانت والدته الملكة «بليندا» قد سافرت للتو إلى فيينا وروما. كان له مُلاعبون أعزاء كثر، لكن لا أحد منهم استطاع أن ينافس «أوليغ»، دوق «رال». في تلك الأيام، كان أبناء العائلات الراقية اليافعون يرتدون، أيام الأعياد ـــ التي كانت تكثر خلال ربيعنا الشمالي الطويل ـــ قمصانا صوفية بلا أكمام، وجوارب قصيرة بيضاء مع أحذية سوداء ذات إبزيم، وسراويل ضيقة جدّاً وقصيرة جدّاً نسميها بـ«هوتينغوينز». أتمنى لو أستطيع أن أزود القارئ بأشكال وأجزاء مقصوصة من ألبسة كما في صور الدمى الورقية الموضحة لأطفال مسلحين بمقاصّ. كان من شأن ذلك أن يضيء قليلاً تلك الأماسي الحالكة التي تخرب دماغي. كان كلا الفَتَيين وسيمين، ذوي سيقان طويلة، من فتيان الصبا في «فارانج». في الثانية عشرة، صار «أوليغ» أفضل لاعب في قلب الهجوم بالمدرسة الدوقية. عندما كان يتجرد من ملابسه ويشرق في ضباب الحمام، كانت أعضاؤه الذكرية الوقحة تتناقض مع حسنه الأنثوي تناقضاً صارخاً. كان إلهاً متناسقاً صغيراً. في عصر ذلك اليوم، صقل مطر غزير الأوراق الربيعية في حديقة القصر. آه، كم أسقط من الليلك الفارسي وطوح به خلف ألواح النوافذ الفياضة بالخضرة، المبقّعة بلون أرجواني! كان على المرء أن يلعب في الداخل. تأخر «أوليغ». فهل كان سيأتي أصلاً؟

حدث أن نبش الأمير الشاب عن مجموعة من الدمى الثمينة (وهي هدية من عاهل أجنبي اغتيل مؤخرا)، تسلى بها هو و»أوليغ» خلال عيد فصح سابق، ثم تركها جانباً كما يحصل لتلك اللعب الفنية الخاصة التي تسمح لوهم المتعة بأن يظهر كامل أثره دفعة واحدة قبل أن تنكفئ إلى النسيان في المتاحف. ما كان يرغب في إعادة اكتشافه الآن، على نحو خاص، هو سيرك دمى متقن تحتويه علبة كبيرة بحجم صندوق لعبة الكروكي. تعطش إليه، إذ تذكرت عيناه ودماغه وما تناسب في دماغه مع طرف إبهامه، بشكل واضح، البهلوانيين الشباب السُّمر ذوي الأرداف اللماعة، ومهرجاً أنيقاً وحزيناً ذا طوق، وخاصة ثلاثة فيلة صغيرة الحجم مثل جراء، من خشب مصقول لها مفاصل متقنة حتى إنها تمكنك من أن تجعل الفيل الضخم الأملس ينتصب واقفاً على قدمه الأمامية أو يقعي بقوة فوق برميل أبيض صغير مطوق بالأحمر. مضى أقل من أسبوعين منذ زيارة «أوليغ» الأخيرة، عندما سمح للفتيين بمشاركة السرير نفسه لأول مرة، حيث اختلط الإحساس بإساءة

السلوك، ومشهد ليلة مماثلة أخرى، الآن في ذهن أميرنا الشاب مع الحرج الذي آذن باللجوء إلى ألعاب أقدم وأكثر براءة.

لم يعرف أستاذه للغة الإنجليزية، الذي ألزم الفراش بعد أن التوى كاحله في نزهة في غابة «ماندیفیل»، موضع ذلك السيرك، إلا أنه نصح بالبحث عنه في غرفة مهملات قديمة في آخر الرواق الغربي. ذهب الأمير بنفسه إلى هناك. أإلى ذلك الصندوق الأسود المغبر؟ بدا سلبيا على نحو مروع. كان المطر يسمع أكثر من هنا بفضل القرب من مزراب طويل. ماذا عن الخزانة؟ دار مفتاحها المذهب بصعوبة. كانت الرفوف الثلاثة كلها والمساحة أدناها مملوءة بأشياء مختلفة: لوحة لبقايا حالات غروب عديدة؛ كأس مليئة بفيشات؛ آلة عاجية لهرش الظهر؛ نسخة من الطبعة الثانية والثلاثين لمسرحية تيمون الأثيني التي ترجمها خاله «كونمال»، شقيق الملكة، إلى اللغة «الزمبلية»؛ جردل أطفال خاص بالشاطئ؛ ماسة زرقاء وزنها خمسة وستون قيراطاً أضيفت مصادفة، خلال طفولته، من مجموعة حِلِيّ والده الراحل إلى الأحجار والأصداف في ذلك الجردل؛ قطعة طبشور؛ ولوح مربع يحمل تصميم أشكال متداخلة للعبة ما منسية منذ زمن طويل. كان على وشك أن يبحث في مكان آخر داخل الخزانة عندما سقط شيء ما، وهو يحاول أن يزيح قطعة مخمل أسود علق طرف منها لسبب مجهول بالرّفّ، فتحرك الرفّ، لكن تبين أنه لن ينزع بسهولة، وانكشف أسفل
حاشيته الأبعد، في خلفية الخزانة، ثقب مفتاح ظهر أن المفتاح المذهب نفسه كان مناسباً له.

أفرغ الرفّين الآخرين، بنفاذ صبر، من كل محتوياتهما (الملابس والأحذية القديمة أساساً)، وأزاحها كما فعل بالرفّ الأوسط، وفتح الباب المتحرك في خلفية الخزانة. نسي الفيلة، وصار يقف على عتبة ممر سرّي. أطبقت عتمتها الحالكة على كل شيء، لكن شيئاً ما في صداه الكهفي أنبأ، وهو يصدر نحنحة جوفاء، بأمور عظيمة، فهرع الأمير إلى مهجعه ليجلب مصباحين وعداداً يقيس الخطوات. بينما هو عائد، وصل «أوليغ». كان يحمل زهرة توليب. صارت خصلاته الشقراء الناعمة مقصوصة منذ زيارته الأخيرة إلى القصر. قال الأمير الشاب في قرارة نفسه: نعم، عرفت أنه سيكون مختلفا. لكن عندما قطّب «أوليغ» حاجبيه وانحنى مقتربا ليسمع عن الاكتشاف، أدرك الأمير، عبر الدفء الوَبِر لتلك الأذن القانية والإيماءة الحية التي رحبت بالتحقيق المقترح، أنه لم يحصل أي تغيير في رفيق فراشه العزيز.

ما إن جلس السيد «بوشان» على حافة سرير السيد «كامبل» من أجل لعبة شطرنج ورفع قبضته قصد اختيار القطع، حتى أخذ الأمير «أوليغ» إلى الخزانة السحرية. كانت الأدراج الحذرة والصامتة ذات السجاد الأخضر في سلم سرّي تقود إلى ممر أرضي مرصوف بالحجر. لم يكن «أرضيا»، على وجه التدقيق، سوى لمسافات قصيرة، حيث يواصل، بعد أن يشق طريقه أسفل الرواق الجنوبي المحاذي لغرفة المهملات، أسفل سلسلة من الشرفات، فأسفل شارع شجر البتولا في الحديقة الملكية، ثم أسفل الشوارع المتعارضة الثلاثة: شارع الأكاديمية وجادة «كوريولانوس» وممر «تيمون» الذي مازال يفصله عن وجهته النهائية. ما عدا ذلك، تكيف الممر، في مساره الخفي ذي الزوايا الكثيرة، مع البنيات المختلفة التي اتبعها، ينتفع هنا من متراس ليلائم نفسه في

جانبه مثل قلم رصاص في غمد مذكرة جيب، وينفذ هناك عبر أقبية إيوان كبير، كثيرةٌ منافذه المظلمة التي تحول دون الانتباه إلى المدخل السرّي. ربما نشأت، خلال السنوات التي تلت ذلك، بعض الروابط الخفية بين الممر المهجور والعالم الخارجي عبر تداعيات العمل العشوائية في طبقات البناء المحيطة، أو عبر لكزات الزمن نفسه العمياء؛ لأن من شأن فتحات وفجوات سحرية هنا وهناك، ضيقة وعميقة جدّاً حتى إنها قد تدفع المرء إلى حافة الجنون، أن تُكتشَف من خلال بركة ماء مصرف راكد وآسن تدل على وجود خندق، أو من خلال رائحة الأرض والحديقة العكرة التي تشير إلى الاقتراب من منحدر زلق. وفي مكان ما حيث يزحف الممر عبر قبو فيلا دوق ضخمة، ذات دفيئات مشهورة بمجموعاتها من نباتات الصحراء، تغيّر وقع الأقدام للحظات بسبب وجود طبقة رمل خفيفة. كان «أوليغ» يسير في الأمام؛ ردفاه الرشيقان المكسوان بقطن نيلي ضيق مستنفران في حركتهما، بينما بدت وضاءته القويمة، بدل مِشْعله، تنير بوثبات ضوئية السقف الخفيض والجدران المتراصة. خلفه يتراقص ضوء المصباح الكهربائي، الذي يحمله الأمير الشاب، على الأرض، ويضفي طبقة طحينية على فخذي «أوليغ» العاريين. كان الجو عفنا وباردا. ظل الجُحر العجيب متواصلا، حيث أخذ يسلك درجة تصاعدية طفيفة. سجل عداد قياس الخطى ١٨٨٨ ياردة عندما بلغا نهايته أخيراً. انزلق المفتاح السحري لخزانة غرفة المهملات بسهولة مفرحة في قفل باب أخضر يعترض طريقهما، حيث كان من شأنه أن يكمل الوعد الذي قطعه ولوجه السلس، لو لم يرغم انفجار أصوات غريبة قادمة من خلف الباب مستكشفينا على التوقف. كان هناك صوتان مروعان، لرجل وامرأة، يجلجلان تارة حد الانفعال، ويتضاءلان تارة ثانية إلى همسات جشاء، إذ كانا يتبادلان الشتائم باللغة الغوتية التي يتكلمها صيّادو «زمبلا» الغربية. زعقت المرأة خوفا من تهديد مقيت. تلا ذلك صمت مفاجئ، كسره الرجل الآن بهمسه عبارة موجزة تنم عن موافقة عرضية («جيد، عزيزتي»، أو «لم يكن الأمر ليصير أفضل»)، كانت أغرب من أي شيء سبق ذلك.

انعطف الأمير الشاب وصديقه، من غير أن يستشير أحدهما الآخر، في حالة ذعر سخيفة، وأخذا يركضان عائدين من حيث أتيا، بينما العداد يَتِكُّ إلى أقصى حد. «أف!» تأفف «أوليغ» ما إن أعيد الرف الأخير إلى مكانه. قال الأمير الشاب عندما دارا متوجهين إلى الأدراج: «ظهرك مليء بغبار الطباشير.» وجدا «بوشان» و»كامبل» قد أنهيا لعبتهما بالتعادل. كان وقت العشاء وشيكا. أُمِر الفتيان بغسل أيديهما. وكان قد حلّ محل رعشة المغامرة الأخيرة ضرب آخر من الإثارة. أغلقا على نفسيهما. تدفق ماء الصنبور من غير أن يلتفتا إليه. انغمسا معاً في حالة ذكورية، وأخذا يهدلان مثل حمامتين.

مرّت هذه الذكرى المفصلة، التي استغرق وصف بنيتها وترتيبها في هذا التعليق بعض الوقت، في ذاكرة الملك في غمضة عين. ثمة بعض المخلوقات من الماضي، وهذه واحدة منها، قد تبقى كامنة طيلة ثلاثين سنة، كما فعلت هذه، بينما يخضع موطنها الطبيعي لتغييرات كارثية. إذ كاد يموت بسبب التهاب رئوي، بعيد اكتشاف الممر السرّي. كان يجاهد في لحظة ما، خلال هذيانه، ليتبع قرصاً مضيئاً يسبر نفقاً لا نهاية له؛ وفي اللحظة اللاحقة، يحاول أن يعانق وركي عشيقه الوسيم الذائبين. أرسل إلى أوربا الجنوبية لبضعة فصول من أجل التعافي. وقد ساعدت وفاة «أوليغ» في

سنه الخامسة عشرة، في حادثة تزلج، على طمس واقعة مغامرتهما. وكان لا بد من قيام ثورة وطنية حتى يستعيد ذلك الممر السرّي واقعيته مرة ثانية.

فتح الملك الخزانة، بعد أن اطمأن إلى ابتعاد خطوات الحارس المزعجة مسافة كافية. صارت الآن فارغة، ما عدا من نسخة صغيرة الحجم من مسرحية تيمون الأثيني ظلت مطروحة في زاوية، وبعض الملابس والأحذية الرياضية القديمة المحشورة في الرّف السفلي. صار وقع القدمين يقترب الآن. لم يجرؤ على مواصلة معاينته، إذ أغلق باب الخزانة ثانية.

كان من الواضح أنه في حاجة إلى بضع لحظات من الأمان التام حتى ينفذ سلسلة من العمليات الصغيرة من غير أن يحدث جلبة كبيرة؛ كأن يلج الخزانة، ويغلقها من الداخل، ويحرك الرفوف، ويفتح الباب الخفي، ويعيد الرفوف، ويتسلل إلى العتمة الفاغرة، ويغلق الباب الخفي ويقفله. لنقل إنه يحتاج إلى تسعين ثانية.

خرج إلى الرواق. تقدم الحارس، وهو رجل وسيم بالأحرى، لكنه متطرف غبي على نحو لا يصدق، إليه على الفور. قال الملك: «لي بغية ملحة. أريد، يا «هال»، أن أعزف على البيانو قبل أن آوي إلى الفراش.» تقدمه «هال» (إذا كان هذا اسمه) متوجها نحو صالة الموسيقى حيث ظل «أودن»، كما كان الملك يعرف، يسهر على القيثارة المغطاة. كان أيرلنديا قوي البنية ذا سحنة ثعلبية، ورأس وردية مكسوة الآن بقبعة خليعة لعامل مصنع روسي. جلس الملك أمام بيانو «بيشتاين». وما إن صارا وحيدين، حتى شرح الوضع بإيجاز وهو يوقع نوتات بيد واحدة. تمتم «أودن» بانزعاج لاعب شطرنج دُلَّ على كيفية إنقاذ الجولة التي خسر، قائلاً: «لم أسمع عن أي ممر أبداً.» هل كان جلالته على يقين تام منها؟ كان جلالته كذلك. هل كان يفترض أنها تقود إلى خارج القصر؟ بالتأكيد إلى خارج القصر.

على كل حال، كان على «أودن» أن يغادر بعد بضع لحظات، كونه يمثل تلك الليلة الغرنوق، وهي تمثيلية ميلودرامية جميلة قديمة لم تؤدَّ، كما قال، منذ ثلاثة عقود على الأقل. قال الملك: «أنا مقتنع تماماً أن تمثيليتي غير كافية.» ردّ «أودن»: «للأسف.» قطب جبينه، وارتدى معطفه الجلدي ببطء. لا أحد بمقدوره أن يفعل شيئاً الليلة. لو طلب من القائد
أن يتركه يواصل العمل، لن يثير ذلك سوى الارتياب، إذ من شأن أدنى شك أن يكون قاتلاً. سيجد غداً فرصة ما لمعاينة وسيلة الفرار الجديدة تلك، إذا كانت هي الوسيلة، لا طريقاً مسدوداً. هل سيعد «تشارلي» (جلالته) بألا يُقْدِم على أي شيء إلى ذلك الحين؟ «لكنهم يقتربون أكثر فأكثر»، قال الملك ملمحاً إلى وقع الأقدام وجلبة الاندفاع المنبعثين من رواق الرسوم. «ليس حقّاً»، قال «أودن». «لا بوصة في الساعة، ربما اثنتان. يجب أن أذهب الآن»، أضاف وهو يشير برمش العين إلى الحارس المهيب المطهّم الذي جاء لتعويضه.

جندت الإدارة الجديدة خبيرين أجنبيين (انظر التعليق على البيت ٦٨١) للعثور على جواهر التاج التي اعتقدت اعتقادا راسخا لكن خاطئاً تماماً أنها مخفية في مكان ما بالقصر. استمر هذا العمل الصالح طيلة شهر. فنقل الروسيان، بعد أن فككا عمليّاً قاعة المجلس وعدة قاعات حكومية أخرى، نشاطاتهما إلى ذلك الجزء من الرواق، حيث وجدت لوحات «أيشتاين» الزيتية الضخمة التي سحرت أجيالا عديد من أمراء «زمبلا» وأميراتها. وإذ عجز «أيشتاين» عن التقاط الشبه، ومن ثمة اقتصر بحكمة على أسلوب تقليدي في التصوير الاحتفائي، أثبت نفسه واحداً من جهابذة الرسم الخادع المدهشين في التقاط أشياء مختلفة محيطة بنماذجه الجليلة العتيقة، بل وجعلها تبدو أكثر عتاقة بتباينها مع البتلة المتناثرة أو اللوح المصقول الذي يُصيّره بمثل هذا الحب أو المهارة. لكن «أيشتاين» لجأ كذلك، في بعض تلك اللوحات، إلى شكل غريب من الخداع، حيث كان يدرج، بين زخارفه من الخشب أو الصوف، الذهب أو المخمل، لوحة منجزة في الواقع من المادة التي حاكاها بالرسم في مكان آخر. بيد أن هذه العُدّة، التي تروم على ما يبدو تعزيز أثر قيمه الحسية واللحنية، تضمنت شيئاً هجينا ما، ولم تكشف نقيصة جوهرية في موهبة «أيشتاين» فحسب، بل أيضاً الحقيقة الأساسية التي مفادها أن «الواقع» لا يمثل موضوع، ولا غاية الفن الحقيقي الذي يخلق واقعاً خاصّاً به لا صلة له بمتوسط «الواقع» الذي تدركه العين الجماعية. لكن لنعد إلى تقنيّيْنا اللذين يقترب خبطهما من الرواق نحو المنعطف حيث يقف الملك و»أودن» على أهبة الفراق. عُلِّقت في هذا المكان لوحة تمثل حارس كنز سابق، وهو «الكونت كورنل» الهرم الذي رسم بأصابع تسترخي برشاقة على صندوق منقوش ومزركش، اشتمل جانبه الذي يواجه المشاهد على قطعة مستطيلة مصنوعة من البرونز الحقيقي، بينما صوَّر الفنان، على سطح الصندوق المظلل المرسوم بطريقة منظورية، طبقاً به نواة جوز مشطورة، ذات فصّين مثل مخ، منجزة بشكل جميل.

«سيفاجآن بالأمر»، همس «أودن» بلغته الأم، بينما كان الحارس البدين ينفذ في زاوية بعض شكليات النقر الواجبة بعقب البندقية، الأحادية بالأحرى.

يمكن التغاضي عن المهنيّيْن السوفياتييْن إذ يفترض أنهما سيعثران على حُقٍّ خلف المعدن الحقيقي. ففي اللحظة الراهنة، أوشكا أن يقررا نزع اللوحة المنقوشة أو إنزال الصورة. لكن يمكن أن نستبق الأحداث قليلاً، ونطمئن القارئ أن الحُقّ، الذي يشغل حفرة مستطيلة في الجدار، كان هناك فعلاً؛ غير أنه كان فارغاً، ما عدا من فتات قوقعة جوز مكسورة.

وفي مكان ما، ارتفع ستار حديدي، كاشفا حُقّاً آخر، مزيّن بالحوريات وأزهار النيلوفر. «سأحضر لك نايَك غدا»، صاح «أودن» بطريقة دالّة بالعامية، وابتسم ولوّح بيده، ثم تلاشى في السديم، ليتضاءل في عالمه التمثيلي البعيد.

قاد الحارسُ البدينُ الملكَ إلى غرفته وسلّمه إلى «هال» الوسيم. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف. آوى الملك إلى السرير. أحضر له الخادم، وهو وغد متقلب، شرابه المعتاد

قبل النوم، الممزوج بالحليب والكونياك، وأخذ خُفّيه ومنامته. صار الرجل عمليا خارج الغرفة عندما أمره الملك بإطفاء النور؛ على إثره امتدت ذراع إلى الداخل، فعثرت يد ترتدي قفازاً على المفتاح الكهربائي وأطفأته. كان البرق ما يزال يلمع هنا وهناك عبر النافذة. أنهى الملك مشروبه في الظلام، ووضع الكوب الفارغ فوق المنضدة، حيث أصدر رنيناً خافتاً عند اصطدامه بمصباح يدوي فولاذي جهّزته السلطات الحذرة في حال انقطاع الكهرباء، كما حدث مؤخراً بين فينة وأخرى.

جفاهُ النومُ. عندما أدار رأسه، رأى خط الضوء أسفل الباب. انفتح في هذه اللحظة برفق، فبرز سجّانُه الشاب الوسيم. تراقصت فكرة غريبة في ذهن الملك. لكن ما أراده الشاب ببساطة هو أن يحذر سجينه من نيته الانضمام إلى رفاقه في الساحة المجاورة، ويعلمه بأن الباب سيغلق إلى حين عودته. غير أن الملك السابق كان بمقدوره أن ينادي من النافذة، إذا أراد شيئاً ما. سأل الملك: «كم سيدوم غيابك؟» أجاب الحارس: «لا أدري». قال الملك: «ليلة سعيدة، أيها الفتى الطائش.»

انتظر أن يرتسم طيف الحارس في الضوء في الساحة حيث دعاه «الثوليون» الآخرون إلى لعبتهم. حينئذ، فتش الملك، تحت جنح الظلام الآمن، عن بعض الملابس على أرضية الخزانة، فارتدى فوق منامته ما كان يشعر به أشبه بسروال تزحلق وشيئاً ما بدا من رائحته مثل كنزة صوفية قديمة. وأفضت تحسسات إضافية إلى العثور على زوج من أحذية رياضية وعَمْرة صوفية ذات أهداب. ثم اختبر الأفعال التي تمرّن عليها ذهنيا من قبل. وبينما كان يزيل الرفّ الثاني، سقط شيء ما، لكن صوت ارتطامه بالأرض كان مكتوما، فخمّن ماهيته وأخذه معه بوصفه تميمة.

لم يجرؤ على أن يضغط على مفتاح مصباحه إلى أن يغتمر بعيداً بما يكفي، ولا أن يحتمل عثرة مجلجلة. هكذا، نزل الأدراج الثمانية عشرة غير المرئية جلوسا تقريباً مثل مبتدئ خجول يكشط مؤخرته أثناء نزوله على صخور جبل «كرون» المغطاة بالحزاز. صار الضوء الخافت الذي أرسله أخيراً رفيقه الأوفى، طيف «أوليغ»، وشبح الحرية. أحس بمزيج من الأسى والبهجة، نوع من الفرح العشقي، لم يشهد مثله منذ يوم تتويجه، عندما وقعت في أذنه بعض الفواصل الموسيقية الغنية والعميقة والجزيلة على نحو لا يصدق (لم يقدر أبداً على أن يتأكد من تأليفها ومصدرها الجسدي)، وهو يتقدم إلى عرشه، واستنشق رائحة زيت الخادم الوسيم الذي انحنى لينزع بتلة وردة من الموطئ، فصار الملك الآن يرى، على ضوء مصباحه، أنه كان ملتفعاً بملابس حمراء فاقعة قبيحة.

بات الممر السرّي أوسخ مما كان. صار اقتحام محيطه أوضح مما كان عليه الأمر يوم اكتشفه الفتيان المرتعدان اللذان كانا يرتديان قميصين هفهافين وسروالين قصيرين. واتسعت بركة الماء العفن البراق، على حافتها يسير خفاش مريض مثل أعرج يحمل مطرية مكسورة. أما امتداد الرمل الملون الذي تذكره، فحملت وقع قدم «أوليغ» الذي ظل مطبوعاً هناك منذ ثلاث وثلاثين سنة، خالدا مثل آثار غزال أليف لطفل مصري أنجزت منذ ثلاثة قرون على طوب نيلي أزرق جفّ

تحت الشمس. وفي مكان ما حيث يمضي الممر عبر أسس متحف، نزل إلى هناك، إلى المنفى والنفاية، بطريقة ما، تمثال بلا رأس لعطارد، مرشد الأرواح إلى العالم السفلي، وناجود مشقوق يحمل صورة شخصين أسودين يلعبان النرد أسفل نخلة سوداء.

وسِع المنعطف الأخير في الممر، الذي ينتهي إلى الباب الأخضر، ركاما من الألواح المنفصلة، تخطاه الهارب وهو يتعثر. فتح الباب، وأشرعه على مصراعيه، فأوقفته ستارة سوداء كثيفة. عندما بدأ يتلمس طريقه بين ثناياها العمودية بحثا عن مدخل ما، ترنحت عين المصباح اليائسة وانطفأ نورها الخافت. ألقى به، فهوى في فراغ مكتوم. أنْشَبَ الملكُ ذراعيه معاً في الطيات العميقة لثوب تنبعث منه رائحة الشوكولاتة، فذكرته حركته، رغم التباس اللحظة وخطرها، على نحو طبيعي، إذا جاز التعبير، بتموجات ستارة المسرح الهزلية، المضبوطة في البداية، الجامحة بعد ذلك، يحاول ممثل متوتر أن يجتازها دون جدوى. إذ حلّ هذا اللغز الغريب، في هذه اللحظة الشيطانية، لغز الممر حتى قبل أن يتسلل أخيراً عبر الستارة إلى غرفة المهملات ذات الإضاءة الخافتة، المليئة بأشياء مبعثرة، التي كانت في وقت سابق غرفة الممثلة «إريس أخت» بالمسرح الملكي. كانت ما تزال على ما أصبحت عليه بعد وفاتها؛ حفرة مغبرة في غرفة موصولة ببهو معين حيث يتجول الممثلون أحياناً خلال التمارين. كادت قطع مشاهد أسطورية معلقة على الجدار تخفي صور الملك «ثورغوس» ذات الإطار المخملي المغبر الكبير ـــ بشاربه الكث ونظارته المثبتة على عظمة الأنف وأوسمته ـــ كما كان في ذلك الوقت عندما مدّه الممر الممتد على طول ميل بوسيلة باذخة من أجل مواعيده مع «إريس».

طَرَف الهارب الذي يرتدي ملابس قرمزية، ثم اقتحم البهو الذي يؤدي إلى عدد من غرف الملابس. في مكان خلفه، ارتفعت عاصفة تصفيق قبل أن تتلاشى. وكان ثمة أصوات بعيدة تنم عن الاستراحة الفاصلة. مرّ أمام الملك العديد من الفنانين بأزياء تمثيلية، فتعرف على «أودن» من بينهم. كان يرتدي سترة مخملية ذات أزرار نحاسية، وبنطلوناً قصيراً وجوارب مخططة، هي لباس الصيادين «الغوتيين» يوم الأحد، فيما قبضته ما تزال تمسك بالسكين الكرتوني الذي أرسل به حبيبته إلى العالم الآخر. «يا إلهي»، قال عندما رأى الملك.

انتقى «أودن» شمْلتين من ركام ألبسة عجيبة، ثم دفع الملك نحو أدراج تنتهي إلى الشارع. في الوقت ذاته، صدرت موجة اهتياج عن مجموعة أشخاص كانوا يدخنون في صحن الدرج. فجأة، أشار دسّاس قديم، تولى منصب المدير المسرحي بفضل مداهنة العديد من المسؤولين المتطرفين، إلى الملك بأصبع مضطربة، لكنه لم يستطع أن ينبس بكلمات اعتراف بالنقمة اصطكت لها أسنانه، لفهاهته البليغة. حاول الملك أن يسحب حاشية قبعته على وجهه ـــ وكادت تخونه قدمه أسفل الأدراج الضيقة. في الخارج، كان المطر يهمي. انعكست صورته الشبحية القرمزية على بركة ضحلة. اصطفت عدة عربات في ممر عرْضي. هناك اعتاد «أودن» أن يترك سيارته الخاصة بالسباقات. ظن لبرهة قصيرة مرعبة أنها اختفت، لكنه تذكر حينئذ، بارتياح لذيذ، أنه ركنها تلك الليلة في زقاق مجاور. (انظر التعليق المهم على البيت ١٤٩).

البيتان ١٣١ ـــ ١٣٢: كنت ظلَّ شمعي الجناح اغتالهْ النأي الزائف على زجاج النافذهْ.

تستأنف القصيدة هنا النغم البديع للبيتين الأولين الواردين في مطلعها. إذ يتخلص تكرار تلك النغمة الممدودة من الرتابة بفضل التغيير البارع في البيت ١٣٢، حيث يعطي التصادي بين كلمته الثانية والقافية الأذنَ نوعاً من المتعة الباعثة على الاسترخاء، مثلما يفعل صدى أغنية حزينة شبه منسية، جرْسها أدلّ من كلماتها. واليوم، إذ أدى «النأي الزائف» واجبه المرعب بالفعل، وليست القصيدة التي بين أيدينا سوى «الظل» الوحيد المتبقي، فإننا لن نقرأ في هذين البيتين شيئاً آخر غير لعبة مرايا ووميض سراب. نستشعر قدرا مشؤوما، في صورة «غرادوس»، الذي يطوي أميالا وأميالا من «النأي الزائف» بينه وبين «شايد» المسكين. سيقابل، هو الآخر، في رحلته العاجلة والعمياء، انعكاسا سيقصمه.

ورغم أن «غرادوس» استفاد من جميع وسائل التنقل ـــ من سيارات مستأجرة، وقطارات محلية، وسلالم متحركة، وطائرات ـــ فإن عين العقل تراه بطريقة ما، وتشعر به عضلة العقل، وهو ينفذ عبر السماء دائماً، حاملاً حقيبة سفر سوداء بيدٍ ومظلة مطوية بغير إحكام باليد الثانية، في رحلة جوية متواصلة فوق البحر والبر. تكمن القوة الدافعة له في الفعل السحري لقصيدة «شايد» نفسه، في آلية الشعر ومداه نفسه، والمحرك الإيامبي القوي. إذ لم يحدث أبداً من قبل أن اتخذ تقدم القدر العنيد مثل هذا الشكل الحسي (للاطلاع على صور أخرى لنهج ذلك الصعلوك المتعالي، انظر التعليق على البيت ١٧).

البيت ١٣٧:(30) منحنيات دائرية

يقول قاموسي القديم الرثّ: «منحنى ثنائي الدائرة من الدرجة الرابعة». أعجز عن فهم علاقة هذا بركوب الدراجات الهوائية، وأشك في أن يكون لعبارة «شايد» أي معنى حقيقي. إذ يبدو أنه وقع هنا، مثل شعراء آخرين قبله، في سحر عبارة مضلِّلة.

لنأخذ مثالاً لافتاً للنظر: هل ثمة كلمة رنانة أكثر، ونيّرة أكثر، وموحية بجمال الكورال والنحت أكثر من «كورامان»؟(31) في الواقع، ما هي، من ناحية ثانية، إلا الرباط الخشن الذي يشدّ به راعٍ «زمبلي» مؤونته المتواضعة وبطانيته الرثة إلى أكثر أبقاره وداعة عندما يسوقها إلى المراعي النجدية.

البيت ١٤٣: دمية آلية

رأيتها صدفة! ذات مساء من شهر مايو أو يونيو، زرت صديقي لأذكره بمجموعة كتيبات ألفها جدّه، وهو كاهن غريب الأطوار، إذ قال لي مرة إنه خزنها في القبو. وجدته ينتظر، وهو غارق

في الكآبة، بعض الأشخاص (أظنهم أعضاء شعبته رفقة زوجاتهم) القادمين لتناول عشاء رسمي. قادني عن طيب خاطر إلى القبو، لكنه قال، بعد التنقيب بين أكوام من الكتب والمجلات المغبرة، إنه سيحاول إيجادها في وقت آخر. حينئذ رأيتها على الرف، بين شمعدان وساعة منبه بلا عقارب. وإذ ظن أنني قد أفكر أن الدمية كانت تخص ابنته الميتة، سارع إلى شرح أنها قديمة قِدَمه. كانت عبارة عن فتى زنجي صغير مصنوع من القصدير المصبوغ، في جانبه ثقب مفتاح، لا عرض معينا له إن صح القول، بل يتألف من مقطعين جانبيين منصهرين إلى حد ما، بينما باتت عربته اليدوية مائلة ومكسورة. قال، وهو ينفض الغبار عن كُمّيه، إنه احتفظ بها نوعاً من التذكار الذي يرمز إلى الموت، إذ غشيته نوبة إغماء غريبة ذات يوم، في طفولته، بينما كان يلهو بتلك الدمية. قاطعنا صوت «سيبيل» التي تنادي من الأعلى. لكن لا يهم. ستعمل الساعة الصدئة الآن ثانية، لأنني أملك المفتاح.

البيت ١٤٩: قدم على قمة جبل

لا تصل سلسلة «بيرا»، وهي سلسلة جبال وعرة يصل طولها إلى مائتي ميل، إلى الطرف الشمالي من شبه جزيرة «زمبلا» (المفصول أساساً عن برّ الجنون بقناة غير سالكة)، وتقسمها إلى جزأين: منطقة «أونهافا» الشرقية المزدهرة والبلدات الأخرى، مثل «أروس» و»غريندلوود»؛ والشريط الغربي الضيّق كثيراً بقراه العجيبة الخاصة بالصيادين ومنتجعاته الشاطئية المبهجة. والساحلان متصلان بطريقين سيارين مُسَفْلَتَيْن؛ يتحاشى أقدمهما العراقيل، إذ يسلك في البداية طريقاً على طول المنحدر الساحلي شمالا نحو «أوديفالا» و»بيسلوف» و»إنمبلا»، ثم ينعطف حينها غربا، عند أقصى نقطة في شمال شبه الجزيرة؛ أما
الأحدث، فهو عبارة عن طريق متقن، متعرج، ومهيأ على نحو رائع، يخترق سلسلة الجبال نحو الغرب، من شمال «أونهافا» إلى «بريغبورغ»، ويسمى في كتيبات السياحة بـ«طريق المناظر الخلابة». تعبر مساراتٌ عديدة الجبالَ في نقاط مختلفة، وتقود إلى معابر لا يتجاوز علوها خمسة آلاف قدم؛ بينما تعلوها بعض القمم بنحو ألفي قدم، وتحتفظ بثلوجها في منتصف الصيف. قد يميز المرء من قمة «غليترنتين»، وهي أعلاها وأوعرها، خلال الأيام الصحوة، بعيداً إلى الشرق، خلف خليج الدهشة، طيفاً قزحيّاً باهتاً سيقول البعض إنه روسيا.

بعد أن فرّ صاحبانا من المسرح، اعتزما أن يسلكا الطريق السيار لمسافة عشرين ميلاً شمالاً، ثم ينعطفا يساراً على طريق ترابي مهجور سيقودهما، في النهاية، إلى مخبأ الكارليين الرئيس، وهو عبارة عن قلعة بارونية من خشب التنوب تقع على السفوح الشرقية لسلسلة «بيرا». لكن اللجلاج المتيقظ انفجر أخيراً بكلام متشنج، فاشتغلت الهواتف بشكل مسعور. ما كاد الهاربان يقطعان عشرة أميال، حتى كشف بريق غامض في الظلام السادر أمامهما، عند تقاطع الطريقين السيارين القديم والجديد، حاجزاً طرقيّاً كان من حسناته على الأقل إلغاء سلك الطريقين معاً على الفور.

أدار «أودن» السيارة عائدا، وانعطف في أول فرصة نحو الغرب، في اتجاه الجبال. كان الطريق الضيق والوعر الذي ابتلعهما يمر بمخزن حطب، ويصل إلى سيل جارف، ويجتازه عبر ألواح مصطكة ضخمة، وسرعان ما ينقلب إلى طريق مليء بالحفر تعوقه بقايا جذوع. بلغا طرف غابة «مانديفيل». وصار الرعد يزمجر في السماء الداكنة الرهيبة.

وقف الرجلان بضع ثوان، ينظران إلى الأعلى. كان الليل والشجر يخفيان المرتفع. من هذا المكان قد يصل متسلق جيد معبرَ «بريغبورغ» فجرا ـــ إذا نجح في أن يدرك طريقاً سالكة بعد أن يتجاوز جدار الغابة المظلم. قررا أن يفترقا، أن يمضي «تشارلي» قدما إلى الكنز البعيد في الكهف المطل على البحر، ويتخلف «أودن» وراءه كطعم. قال إنه سيتقدمهم في مطاردة مرحة، وينتحل أقنعة مثيرة، ويتصل بباقي العصابة. والدته أمريكية، من «نيوواي» في «نيو إنغلند». قيل إنها أول امرأة في العالم تصطاد الذئاب، وحيوانات أخرى، كما أعتقد، من طائرة محلقة.

تصافحا، ومض البرق. ما إن انغمر الملك في السرخس المبلل المدلهمّ، حتى ذكرته رائحته، وليونته المخرّمة، ومزيج النباتات الناعمة والأرض المنحدرة بأيام نزهته في هذه الأماكن ـــ وفي جزء آخر من الغابة، لكن على السفح الجبلي ذاته؛ وفي حقل الجلاميد في الأعلى، لما كان فتى، حيث لوى السيد «كاميل» كاحله ذات مرة، فحمله خادمان قويان إلى أسفل السفح، وهو يدخن غليونه. هي بالأحرى ذكريات مترعة، على العموم. ألم تكن هناك مقصورة صيد في الجوار ـــ خلف شلالات «سيلفار» مباشرة؟ مكان جيد لصيد ديك الخلنج ودجاجة الأرض ـــ وهي رياضة استمتعت بها والدته الراحلة الملكة «بليندا»، التي تلبس التويد وتركب الخيول. الآن كما وقتئذ، يهطل المطر على الأشجار السوداء، فإذا توقف، سمعت نبض قلبك، وهدير السيل البعيد. كم الساعة؟ ضغط على جهاز التكرار في ساعته، فهسهس غير هيّاب، ثم رنّ معلنا أنها العاشرة وإحدى وعشرون دقيقة.

يعرف كل من حاول مواجهة سفح شديد الانحدار، في ليلة حالكة، عبر نباتات متشابكة ضارة، المهمة الجسيمة التي سيواجهها صاحبنا متسلق الجبال. ظل مثابرا طيلة أكثر من ساعتين، يتعثر بالجذوع، ويسقط في الوهاد، ويتشبث بالشجيرات غير المرئية، ويبارز جيشاً من أشجار الصنوبر. فَقَدَ شمْلته. تساءل إن لم يكن من الأفضل أن يلتف على نفسه
أسفل الدغل، وينتظر الفجر. فجأة، لمع ضوء مثل دبوس في الأمام، فوجد نفسه الآن مترنحاً في منحدر زلق في مرج جُزَّ عشبه حديثا. نبح كلبٌ. تدحرج حجر تحت قدمه. أدرك أنه كان قريباً من ضيعة منزلية على سفح الجبل. كما أدرك أنه سقط في حفرة موحلة عميقة.

عرض المزارع المغضن وزوجته المكتنزة أن يأويا الهارب المبتل، مثلما تفعل شخصيات حكاية مملة قديمة، إذ حسباه مخيّما غريب الأطوار انفصل عن مجموعته. سمحا له بأن ينشّف نفسه في مطبخ دافئ حيث قدما له وجبة دسمة تتألف من خبز وجبن وقدحاً من نبيذ العسل الجبلي. صارت مشاعره (بالامتنان، والإرهاق، والدفء الرغِد، والنعاس، وغير ذلك) واضحة جدّاً لا تحتاج إلى

وصف. كانت نار مشتعلة في جذور أرْز تطقطق في الموقد، فتجمعت جميع ظلال مملكته المفقودة لتتراقص حول كرسيه الهزاز، بينما يغفو بين تلك النار والضوء الواجف المنبعث من مصباح خزفي صغير، من جهاز معقوف بالأحرى، مثل مصباح روماني، معلق فوق رفٍّ حيث حلي خرزية تافهة وأجزاء صَدَفٍ صارت مثل جنود مجهريين يحتشدون في معركة مستميتة. استيقظ فجرا مع أول رنين لأجراس الأبقار، وهو يشعر بتصلب في العنق. وجد مضيفه في الخارج، في زاوية ندية مخصصة لقضاء الحاجات الطبيعية الوضيعة، فالتمس من المزارع الجبلي الطيب أن يريه أقصر طريق إلى المعبر. قال المزارع: «سأوقظ «غار» الكسول.»

ثمة أدراج تقود إلى علّية. وضع المزارع يده المغضنة على الدرابزين الملتوي، ثم وجه نداء حلقوميا نحو الظلام في الأعلى: ««غار»! «غار»!» رغم أن هذا الاسم يطلق على الجنسين معاً، فإنه اسم ذكر، على وجه التدقيق. توقع الملك أن يرى فتى جبليا عاري الركبتين يخرج من العلية مثل ملاك أسمر. بدلا من ذلك، ظهرت بنت شعثاء صغيرة ترتدي قميصاً رجاليّاً فقط يغطي ساقيها الورديين وحذاء ذا مقاس كبير. بعد هنيهة، ظهرت من جديد، كما في عملية تحول، شعرها الأصفر ما يزال مرسلا منحلا، لكنها غيرت القميص الوسخ بكنزة صوفية وسخة، وساقاها مغمدان في سروال قماشي مضلّع. قيل لها أن تقود الغريب إلى مكان يمكنه بلوغ المعبر بسهولة منه. طمست سيماء نعسانة وعابسة أي فتنة قد يتخذها وجهها المكوّر ذو الأنف الأفطس عند الرعاة المحليين. لكنها امتثلت عن طيب خاطر لرغبة والدها. كانت زوجته تدندن بأغنية قديمة، منشغلة بالقِدْر والمقلاة.

قبل المغادرة، التمس الملك من مضيفه، الذي كان اسمه «غريف»، أن يقبل قطعة ذهب قديمة اتفق أن كانت بجيبه، وهي المال الوحيد الذي بقي بحوزته. رفض «غريف» بقوة وبدأ، وهو ما يزال يعترض، في العمل الشاق المتمثل في فتح بابين ثقيلين أو ثلاثة وفكّ رتاجاتها. ألقى نظرة سريعة إلى المرأة العجوز، فتلقى غمزة تنم عن الموافقة، ووضع الدوقية فوق رف الموقد، متحاشيا أن تصدر رنينا، بالقرب من صدفة بنفسجية تدعم صورة ملونة تمثل ضابطاً أنيقاً من الحرَس رفقته زوجته عارية الكتفين ـــ «كارل» المحبوب، كما كان قبل عشرين سنة غريبة، وملكته الشابة، وهي ما تزال عذراء غاضبة ذات شعر أسود فاحم وعينين زرقاوين جليديتين.

تلاشت النجوم للتو. تبع الفتاة وكلب أغنام سعيد إلى الطريق المكسو بالأعشاب الذي كان يتلألأ بندى ياقوتي على ضوء فجر جبلي أشبه بضوء المسرح. بدا الجو ذاته مخضّبا وبراقا. كان الجرف الشديد الانحدار، الذي يصعد على طول الطريق، يرسل بردا قارسا كئيبا. لكن أشعة الشمس الرقيقة أخذت تحيك عينات دفء على الجانب الشاقولي الآخر، هنا وهناك، بين رؤوس أشجار التنوب النابتة على السفح. في المنعطف الموالي، لفَّ هذا الدفءُ الملكَ الهاربَ. نزلت فراشة سوداء تتراقص في منحدر كثير الحصى. أخذ الطريق يضيق شيئاً فشيئاً، وتردّى تدريجيا وسط ركام من الجلاميد. أشارت الفتاة إلى المنحدرات خلفه. أومأ برأسه قائلاً: «الآن، عودي إلى البيت. سأستريح هنا، ثم أواصل وحدي.»

خرّ وسط العشب قرب بقعة صنوبر متلبد، واستنشق الهواء البراق. تمدد الكلب اللاهث عند قدميه. ابتسمت «غار» لأول مرة. فالفتيات في جبال «زمبلا» هن، كما جرت العادة، مجرد آليات شهوة عابرة، ولم تكن «غار» استثناء في ذلك. ما إن استلقت بجانبه، حتى انحنت وحطت رأسها الأشعث على الكنزة الرمادية السميكة، كاشفة ظهرها العاري ونهديها المهلبين، وغمرت رفيقها المحرَج بكل حرافة الأنوثة المهملة. كادت تشرع في نزع ثيابها، لكنه أوقفها بإيماءة وانتصب واقفاً. شكرها على كل لطفها. ربت على الكلب البريء. شرع الملك يصعد المنحدر المعشوشب بخطى نشيطة، من غير أن يلتفت إلى الوراء مرة واحدة.

كان ما يزال يضحك على خيبة الفتاة عندما وصل إلى الصخور الضخمة المكومة حول بحيرة صغيرة كان قد بلغها مرة أو مرتين من جانب «كرونبورغ» الصخري منذ عدة سنوات. ألقى الآن نظرة خاطفة على وميض البركة من فجوة ديْماس طبيعي، وهو تحفة أبدعتها التعرية. كان الديماس منخفضا، حيث حنى رأسه حتى ينزل إلى الماء. على صفحته السرابية الصافية رأى انعكاسه القرمزي، لكن هذا الانعكاس لم يكن، على نحو غريب، يصل إلى ركبتيه، بل أبعد منهما، بسبب ما بدا، في أول وهلة، خدعة بصرية. فضلا عن ذلك، كان مصحوبا بالانعكاس المشوه بالتموجات لحيْدٍ ينتأ عاليا فوق موقعه الراهن. وأخيراً، أدى الأثر المنفعل بسحر الصورة إلى انكسار الانعكاس عندما استدار صنوُه ذو الكنزة الحمراء والقبعة الحمراء واختفى، بينما ظل هو، المراقب، ثابتا. تقدم الآن نحو حافة الماء، فقابله هناك انعكاس أصيل، أكبر وأوضح بكثير من الذي خدعه. حاذى البركة. هناك في السماء ذات الزرقة العميقة نتأت الحافة الفارغة حيث وقف ملك زائف للتو. سرت بين كتفيه قشعريرة خوف خارج عن السيطرة يسببه الجن. دمدم بابتهال مألوف، ورسم علامة الصليب على نفسه، ثم مضى بحزم نحو الممر. في نقطة عالية من قمة مجاورة، اعتمرت كومة حجارة منتصبة كتذكرة صعود قبعةً من الصوف الأحمر تكريما له. مضى متثاقلا. لكن اعتصر قلبه ألم مخروطي، يخزه أسفل الحلق. بعد برهة، توقف مجددا ليجري جردا للظروف، ويقرر ما إذا كان سيزحف على طول السفح شديد الانحدار المليء بالصخور أمامه، أم يسير يمينا على طول حزام معشوشب، زاهٍ بزهر كف الذئب، سار ملتويا بين الصخور المكسوة بالحزاز. اختار الطريق الثاني، وبلغ المعبر في الوقت المناسب.

تنوعت الصخور الضخمة التي وقعت على جانبي الطريق. في الجنوب، قسمت صخرةٌ وسفح معشوشب التلالَ المقببة (أو «التلال النتنة») إلى مساحتي ضوء وظل. وفي الشمال، انصهرت الجبال الخضراء والرمادية والزرقاء ـــ «فالبورغ» بقلنسوته الثلجية، و»موترابورغ» بولعه بالانهيارات الثلجية، و»بابورغ» (جبل «بيكوك»)، وجبال أخرى ـــ التي تفصلها وديان داجية ضيقة اقتحمتها شذرات سحابة قطنية الشكل، بدت موضوعة بين مجموعة التلال المتراجعة لتحول دون أن تحتك بعض أطرافها ببعض. خلفها، في الزرقة الأخيرة، لاح جبل «غليترنتين»، وهو عبارة عن حافة مسننة ذات صفيحة براقة. وفي الجنوب، غلّف ضباب رقيق حافات أبعد تتصل الواحدة منها بالأخرى في نسق لانهائي، عبر جميع درجات التلاشي الناعمة.

بلغ المعبر، وقهر الصوان والجاذبية. لكن المسافة الأخطر كانت تمتد أمامه. ثمة جهة الغرب سلسلة من السفوح المكسوة بالخلنج تقود نزولا إلى البحر الساطع. كان الجبل ما يزال، إلى حدود هذه اللحظة، يفصله عن الخليج. صار الآن عرضة لذلك السعير المقبب. أخذ في النزول.

بعد ثلاث ساعات، وطئت قدماه أرضاً منبسطة. استقامت امرأتان عجوزان، كانتا منهمكتين في العمل ببستان، بحركة بطيئة، وحدقتا فيه. كان قد تجاوز أجمة الصنوبر في «بوسكوبيل» وأخذ يدنو من مرسى «بلاويك»، عندما انعطفت سيارة شرطة سوداء في طريق عرْضي وتوقفت بالقرب منه. قال السائق: «بلغت المزحة مدى بعيداً جدّاً.» هناك مائة مهرج محشور في سجن «أونهافا»، ولا بد أن يكون الملك السابق بينهم. وسجننا المحلي أصغر من أن يسع مزيدا من الملوك. سيرمى المتخفي الموالي بالرصاص ما إن تراه العين. ما اسمك الحقيقي، يا «تشارلي»؟» أجاب الملك: «أنا بريطاني. أنا سائح.» «حسناً، على كل حال، انزع تلك الفوفة(32) الحمراء. والقبعة أيضاً. أعطنيهما.» رمى اللباسين في الجزء الخلفي من السيارة وانطلق.

واصل الملك طريقه. كان بمقدوره أن يحول الجزء العلوي من منامته الزرقاء المحشوة في سرواله الخاص بالتزحلق بسهولة إلى قميص فاخر. كانت هناك حصاة في حذائه الأيسر، لكن الضنى بلغ به حدا كبيراً يمنعه من فعل أي شيء حيالها.

تعرّف على مطعم شاطئ البحر حيث تغذى متخفيا قبل عدة سنوات رفقة بحاريْن مسلّييْن، مسلّييْن جدّاً. كان العديد من المتطرفين المدججين بالأسلحة يشربون الجعة في الشرفة المزينة بأصص الغرنوقي، وسط المصطافين المعتادين، كان البعض منهم منهمكاً في الكتابة إلى أصدقاء بعيدين. مدّت يدٌ ذات قفاز، بين أزهار الغرنوقي، بطاقة بريدية مكتوب عليها: اذهب إلى كـ. ر. رحلة سعيدة! انتهى إلى آخر الرصيف، بعد أن تظاهر بنزهة عابرة.

كان الوقت أصيلاً، عليلاً نسيمه على نحو جميل، أفقه الغربي كأنه فراغ مضيء يمتص القلوب المتعطشة. نظر الملك، الذي بلغ الآن النقطة الأخطر في رحلته، حواليه، مستقصيا المتنزهين القلة، وهو يحاول أن يحدد من قد يكونون عملاء شرطة مقنعين متأهبين للانقضاض عليه ما إن ينحني أسفل الحاجز ويتوجه نحو كهوف «ريبليسن». ثمة شراع واحد فقط مصبوغ بالأحمر الملكي يشوب المدى البحري ببعض الاهتمام البشري. كان هناك سائح روسي بدين ذو ذقن كبير وقفا لحيمة مثل جنرال، قرب الحاجز يلتقط صوراً لـ»نيترا» وإندرا» (وتعنيان «الباطن» و»الظاهر»)، وهما جزيرتان سوداوان بدا أنهما تخوضان في نقاشات سرية. لاحظت زوجته الشاحبة، المتدثرة بوشاح منمق بالزهور، قائلة بصوت أهل موسكو الرتيب: «كلما رأيت ذلك النوع من المسخ المرعب، لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في ابن «نينا». الحرب لحظة فظيعة.» «الحرب؟» تساءل زوجها، ثم أضاف: «لا بد أنه انفجار مصانع الزجاج سنة ١٩٥١ ـــ وليس الحرب.» سارا ببطء بمحاذاة الملك في الاتجاه الذي جاء منه. جلس رجل على مقعد رصيف

المشاة، أمام البحر، وعكازاه بجانبه، كان يقرأ جريدة أونهافا بوست التي تعرض في صفحتها الأولى «أودن» بزي المتطرفين و»أودن» في دور الغرنوق. لم يستوعب حرس القصر أبداً تلك الهوية من قبل، وهو أمر لا يصدق كما يبدو. في الوقت الراهن، عُرض مبلغ ضخم من أجل القبض عليه. كانت الأمواج تتلاطم على الحصى بإيقاع منتظم. كان وجه قارئ الجريدة قد جرح جروحاً غائرة في الانفجار المشار إليه منذ قليل. إذ لم تفضِ جميع فنون الجراحة التجميلية سوى إلى نسيج فسيفسائي بشع ذي رسوم وخطوط تتبدل أو تنصهر أو تنفصل، مثلما تتقلب الخدود والذقون في مرآة مشوّهة.

كاد مجال الشاطئ الممتد بين المطعم في بداية الممشى وصخور الصوان في نهايته يكون خاليا. في أقصى اليسار، كان ثلاثة صيادين يُحَمِّلون زورقَ جدفٍ بشباك كستنائية مثل عشب البحر. وتحت الرصيف مباشرة، جلست امرأة مسنة، ترتدي زيّاً مرقطاً وتتخذ من ورق الجريدة (شوهد الملك السابق...) غطاء للرأس، كانت تحيك على الحصى، مديرة ظهرها إلى الشارع. قدماها المضمدتان ممددتان على الرمل؛ وضع في جانبٍ خفَّيْن مطرزين، وفي الجانب الثاني كبّة صوف أحمر، تسحب خيطها الرئيسي بين الفينة والأخرى بهزة كوع ممعنة في القِدَم عند أي حائكة «زمبلية» لتدور كبة الصوف، فيرتخي الخيط. أخيراً، كانت هناك، على الرصيف، فتاة صغيرة بتنورة منتفخة تحدث جلبة، وهي تتحرك بمزلجتها بحيوية، لكن بشكل أخرق. فهل يمكن أن يتظاهر قزم في الشرطة بأنه طفلة ذات ضفائر؟

وقف الملك قرب المقعد، ينتظر أن يتراجع الزوجان الروسيان. طوى الرجل ذو الوجه الفسيفسائي جريدته. عرف الملك أنه «أودن» ثانية قبل أن ينبس ببنت شفة (في الفترة المحايدة الفاصلة بين نفث الدخان وانفجار الكلام). «هذا كل ما يمكن أن نفعله في وقت وجيز»، قال «أودن»، محركاً خده ليبرز كيف التصق الطلاء متعدد الألوان شبه الشفاف بوجهه، ليغير ملامحه وفق الشد. أضاف قائلاً: «جرت العادة ألا يمعن شخص مهذب النظر عن كثب في تشوه شخص مسكين.» قال الملك: «كنت أتحرى عن رجال شرطة بلباس مدني.» قال «أودن»: «ظلوا طوال اليوم يخفرون الرصيف. وهم يتعشون الآن.» قال الملك: «أنا عطشان وجائع.» «هناك طعام في الزورق. انتظر حتى يختفي الروسيان. لنتجاهل الطفلة.» «ماذا عن تلك المرأة في الشاطئ؟» «ذاك هو الشاب «بارون ماندیفیل» ـــ الفتى الذي دخل تلك المبارزة السنة الماضية. هيا نذهب الآن.» «ألا يمكن أن نأخذه أيضاً؟» «لن يأتي ـــ له زوجة ورضيع. هيا، يا «تشارلي»، هيا، يا صاحب الجلالة.» «كان وصيفي يوم تتويجي على العرش.» بلغا كهوف «ريبيلسن»، وهما على ذلك النحو من الثرثرة. أنا واثق من أن القارئ استمتع بهذا التعليق.

البيت ١٦٢: بلسانه الطاهر، الخ.

هذه طريقة ملتوية على نحو فريد لوصف قبلة خجلة لفتاة ريفية. لكن الممر برمته باروكيٌّ للغاية. كانت طفولتي سعيدة وسليمة جدّاً لتحتوي أي شيء يشبه من بعيد نوبات الإغماء التي يعانيها «شايد»: لا بد أنها رافقته، في حالته، مثل شكل ناعم من الصرع، انحراف أعصاب في الموضع ذاته، في المنعطف ذاته من المسار، كل يوم، طيلة أسابيع، إلى أن رممت الطبيعة العطب. من بمقدوره أن ينسى الوجوه الطيبة، المتلألئة بالعرق، لعمال السكة الحديدية ذوي الصدور النحاسية الذين يتكئون على مجرفاتهم ويتتبعون بعيونهم نوافذ القطار السريع العظيم الزاحف بحذر؟

البيت ١٦٧: ثمة زمن، الخ.

بدأ الشاعر القطعة الثانية (بجذاذته الرابعة عشرة) يوم ٥ يوليوز، أي يوم عيد ميلاده الستين (انظر أيضاً التعليق على البيت ١٨١، «اليوم»). أخطأتُ ـــ إنه عيد ميلاده الحادي والستين.

البيت ١٦٩: البقاء بعد الموت

انظر التعليق على البيت ٥٤٩.

البيت ١٧١: مؤامرة كبيرة

ظل المتطرفون، طيلة سنة كاملة تقريباً بعد هروب الملك، مقتنعين أنه و»أودن» لم يغادرا «زمبلا». لا يمكن أن يعزى الخطأ إلا إلى مسحة السذاجة التي تسري على نحو قدري في أعتى أنظمة الاستبداد. إذ تلقي الآلات المحمولة جوا وكل ما يرتبط بها تميمة حقيقية على أرواح حكامنا الجدد الذين منحهم التاريخ الرؤوف فجأة صندوقاً ممتلئاً بهذه الآلات الآزّة والمسرعة، ليلهوا بها. بدا لهم أن يمتنع هارب مهم عن الهروب عبر الجو أمراً مستحيلاً. ففي دقائق، بعد أن نزل الملك والممثل أدراج المسرح الملكي بسرعة، أُحصيت كل طائرة في السماء أو على الأرض ـــ هكذا كانت كفاءة الحكومة. وخلال الأسابيع الموالية، لم يسمح لأي طائرة خاصة أو تجارية بالإقلاع، وبات تفتيش مسافرين عابرين دقيقاً وطويلاً جدّاً، حتى إن الخطوط الدولية قررت إلغاء النزول في «أونهافا». وقعت بعض الحوادث، حيث أسقط منطاد قرمزي بحماسة، فغرق الملاح الجوي (وهو عالِم معروف في مجال الأرصاد الجوية) في خليج الدهشة . وتاه ربان من قاعدة «لابلاند»، كان محلقاً في مهمة إنقاذ، في الضباب، فضايقه مقاتلون «زمبليون» على نحو خطير حتى إنه حط على قمة جبل. وجدوا بعض الأعذار لكل هذا. أبقى على وهم وجود الملك في براري «زمبلا» متآمرون ملكيون استدرجوا كتائب كاملة إلى التحري في جبال وغابات شبه جزيرتنا الوعرة. بددت الحكومة قدراً سخيفاً من الطاقة في غربلة مئات المنتحلين المحشورين في سجون البلد

بجدية. تصرف أغلبهم كمهرجين لاستعادة حريتهم؛ بينما انهارت قلة، للأسف. ثم جاء خبر صاعق من الخارج، خلال ربيع السنة الموالية. كان الممثل «الزمبلي» «أودن» يخرج فيلما سينمائيا في باريس!

صارت التخمينات الآن تفيد حقّاً أنه إذا كان «أودن» قد هرب، فإن الملك فرّ أيضاً. ففي جلسة استثنائية للحكومة المتطرفة، تناقلت الأيدي، في صمت واجم، نسخة من جريدة فرنسية، جاء مقالها الرئيس بعنوان بارز: هل يوجد ملك «زمبلا» السابق في باريس؟ دفع الحنق الانتقامي، بدل استراتيجية الدولة، بالتنظيم السري، الذي كان «غرادوس» عضواً غامضاً فيه، إلى حوك مكيدة الفتك بالهارب الملكي. يا لهم من سفاحين أشرار! قد يضاهون قطاع طرق يتلهفون لتعذيب النبيل المحصن الذي زج بهم بشهادته في السجن مدى الحياة. عرف عن هؤلاء المدانين أنهم يندفعون هائجين لافتراض أن ضحيتهم المراوغ، الذي يتوقون إلى ليّ خصيته وتمزيقها بمخالبهم، جالس إلى مأدبة في عريش بجزيرة مشمسة، أو مستغرق في ملاطفة مخلوقة شابة جميلة في طمأنينة وأمان ـــ وهو يسخر منهم! يفترض المرء أنه ما من جحيم أسوأ من الغضب الممزوج بالعجز الذي يستشعرونه عندما تصلهم أخبار تلك البهجة اللذيذة العنيدة، وتغمرهم، وتدمر أدمغتهم الوحشية ببطء. إذ اجتمعت جماعة متطرفين متدينين بشكل خاص، أطلقت على نفسها اسم الظلال ، وأقسمت على مطاردة الملك وقتله أينما كان. بمعنى ما، كانوا توائم ظلال «الكارليين»، حيث كان للعديد منهم أبناء عمومة وخؤولة، بل أشقاء ضمن أنصار الملك. لا شك أن أصول الجماعتين معاً يمكن أن تُتَقَصَّى في طقوس طائشة متعددة تجري داخل تعاضديات طلابية ونوادي عسكرية، حيث يفحص تطورها من حيث صرعاتها وصرعاتها المضادة؛ لكن بينما يربط المؤرخ الموضوعي «الكارلية» ببهاء رومانسي وأصيل، فإن الجماعة التي ليست سوى ظل لها لا بد أن تستوقف المرء باعتبارها شيئاً قوطيا ومقرفا قطعا. لم تكن هيئة «غرادوس» الشاذة، التي يتقاطع فيها الجرذ مع السلطعون، أغرب من ظلال أخرى عديدة، منها مثلاً «نودو»، أخ «أودن» غير الشقيق الصريع الذي كان يغش في لعبة الورق، أو «ماندیفیلي» المجنون الذي فقد ساقاً وهو يحاول صناعة مادة مضادة. إذ ظل «غرادوس»، منذ فترة طويلة، عضواً في منظمات يسارية تافهة. لم يقتل أبداً، رغم أنه أوشك أن يفعل ذلك مرات عديدة طيلة حياته الكئيبة. أصر في وقت لاحق، عندما وجد نفسه مكلفا باقتفاء أثر الملك
واغتياله، على أن القرار اتخذ باللجوء إلى لعبة الورق ـــ لكن دعونا لا ننسى أن «نودو» هو الذي خلط الأوراق ووزعها. ربما كان أصلُ صاحبنا الأجنبي الباعثَ الخفيَّ وراء تكليف كهذا من شأنه ألا يعرض أيّاً من أبناء «زمبلا» لأن يجر على نفسه عار قتل الملك فعليا. يمكننا أن نتخيل المشهد جيداً: أضواء النيون المروعة داخل المختبر، في ملحقة من مصانع الزجاج حيث اتفق أن يعقد اجتماع جماعة الظلال ؛ أوراق السبيت مطروحة على الأرض المبلطة، والفودكا تحتسى بأنابيب الاختبار؛ والأيادي العديدة التي تربت على ظهر «غرادوس» المدور، وغبطة الرجل القاتمة وهو يتلقى تلك التهاني الغادرة بالأحرى. نقدر أن هذه اللحظة النبوئية جرت في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق ليلا، يوم ثاني يوليوز ١٩٥٩ ـــ الذي يصادف أيضاً التاريخ الذي سطّر فيه شاعر بريء الأبيات الأولى من قصيدته الطويلة.

هل كان «غرادوس» شخصاً مناسباً بالفعل لإنجاز المهمة؟ نعم ولا. ذات يوم من شبابه المبكر، عندما اشتغل صبي خدمات لفائدة شركة كبيرة وكئيبة يملكها مصنعو علب كرتون، ساعد ثلاثة من رفاقه بهدوء على نصب كمين لفتى من أبناء بلدة، أرادوا أن يضربوه لأنه فاز في سباق دراجات نارية وفق المعايير المتفق عليها. تزود «غرادوس» بفأس وأمر بقطع شجرة. غير أنها سقطت على نحو خاطئ، حيث لم تعرقل تماماً ممر البلدة الذي تسلكه ضحيتهم السعيدة عادة خلال الغسق المتنامي. كان الفتى المسكين، الذي يتقدم نحو المكان الذي يتربص فيه أولئك الأشراس، «لورينيا»(33) نحيفاً هشّ القوام، إذ لا بد أن يكون المرء دنيئاً بالفعل ليحسده على متعته الحميدة. والغريب تماماً هو أن قاتل الملك المستقبلي غلبه النعاس في خندق، بينما استلقوا هناك منتظرين؛ ومن ثمة، غاب عن الشجار القصير الذي أوسع فيه «اللوريني» الشجاع اثنين من المهاجمين ضربا وهزمهما بالضربة القاضية، بينما دهس الثالث وشلّه مدى الحياة.

لم يحقق «غرادوس» نجاحاً حقيقيّاً أبداً في مجال صناعة الزجاج الذي ما فتئ يعود إليه بين انشغالاته ببيع النبيذ وطباعة الكتيبات. بدأ حياته صانعاً للغواصين الديكارتيين ـــ عفاريت القناني الزجاجية التي تتمايل صعودا ونزولا في أنابيب مملوءة بالكحول المِيثيلي تباع على أرصفة الشوارع خلال أسبوع الشعانين. كما عمل وقّاداً، وومّاضاً في وقت لاحق، في مصانع حكومية، وكان مسؤولاً إلى حد ما، كما أعتقد، عن النوافذ الحمراء والعنبرية القبيحة على نحو ملحوظ في المرحاض العمومي الكبير بـ«كاليكسهافن» الصاخب لكن الملون حيث يتردد البحارون. ادعى أنه حسّن بريق وجلجلة ما سمي بالفزاعات التي يستخدمها مزارعو الكروم والبستانيون لتخويف الطيور. وقد صنفت التعليقات التي تحيل عليه بطريقة تجعل الأول (انظر التعليق على البيت ١٧ حيث يشار إلى بعض هذه النشاطات الأخرى) هو الأكثر غموضا، بينما تلك التي تليه تصير أوضح تدريجيا كلما اقترب «غرادوس» المتدرج في المكان والزمان.

أنتجت نوابض ومواسير بسيطة الحركات الداخلية لصاحبنا الذي يشبه الرجل الآلي. كان ينبغي أن يلقب بالطهراني الصارم. ثمة كراهية جوهرية، هائلة في بساطتها، تغلغلت في روحه الكليلة؛ إذ مقت الظلم والخداع. كره اتحادهما ـــ إذ ظلا مجتمعين على الدوام ـــ بشغف مكابِر لم يجد الكلمات، ولا احتاج إليها، للتعبير عن نفسه. مثل هذه الكراهية استوجبت الثناء لو لم تكن نتاجاً ثانويّاً لغباء الرجل العضال، حيث وسم بالظلم والخداع كل ما تجاوز فهمه. بَجّل الأفكار العامة، وفعل ذلك بثقة متفلسفة. صار التعميم ربانيا، والتخصيص شيطانيّاً. إذا كان شخص ما فقيراً والآخر غنيّاً، فالمسألة لا تهم بالتحديد ما الذي دمر الأول وجعل الثاني ثريا؛ ذلك أن الفرق نفسه جائر، وأن الفقير الذي لم يستنكر الأمر آثم مثله مثل الغني الذي تجاهل ذلك. ولم يكن الناس الذين عرفوا الكثير، كالعلماء
والكتاب والرياضيين والبلّوريين وغيرهم، أفضل حالا من الملوك أو القساوسة: كلهم تولوا حصة مجحفة من السلطة التي انخدع بها آخرون. إذ وجب على رفيق كريم صادق أن يترقب على الدوام بعض اللؤم الشاطر من جانب الطبيعة والجار.

أشبعت الثورة «الزمبلية» رغبات «غرادوس»، لكنها ولّدت عنده إحباطات أيضاً. يبدو حدثٌ من الأحداث المزعجة للغاية، عند استعادته، هو الأهم لأنه ينتمي إلى نظام الأشياء التي كان ينبغي على «غرادوس» أن يتعلم توقعها، لكنه لم يفعل. طيلة شهور عديدة، راوغ لاعب المضرب الماهر «يوليوس شتاينمان» (ابن صاحب الأعمال الخيرية الشهير)، وهو مقلد يتقمص شخصية الملك تقمصاً بارعاً، الشرطةَ التي دفعها إلى تخوم الغضب بمحاكاته حد الإتقان صوتَ الملك «تشارلز» المحبوب في سلسلة خطابات تهزأ بالحكومة، ألقاها عبر إذاعة سرية. عندما قبض عليه في النهاية، حُوكم أمام لجنة خاصة، كان «غرادوس» عضواً فيها، وحُكِم عليه الإعدام. لم يحسن فريق الإعدام عمله، حيث وجد الشاب الباسل، بعيد ذلك بوقت قصير، يتعافى من جروحه في مستشفى إقليمي. عندما علم «غرادوس» بهذا الخبر، طار طائره في إحدى نوبات غضبه النادرة ـــ لا لأن الواقعة افترضت وجود مكائد ملكية، بل لأن مجرى الإعدام الوضيء والصادق والمرتب حِيلَ دونه بطريقة قذرة وخادعة ومشوشة. هرع إلى المستشفى واقتحمه عاصفا، من دون أن يستشير أحدا، وعثر على «يوليوس» في جناح مكتظ، ونجح في إطلاق رصاصتين، دون أن يصيبه بهما معاً، قبل أن ينتزع منه ممرض ضخم المسدس. اندفع عائداً إلى مركز القيادة ورجع بعشرة جنود، لكن المريض كان قد اختفى.

تعتمل مثل هذه الأشياء في الصدر ـــ لكن ماذا بمقدور «غرادوس» أن يفعل؟ تشارك الأقدار المجتمعة في مؤامرة كاسحة ضد «غرادوس». إذ يلاحظ المرء بابتهاج مغفور أن أشباهه لم يمنحوا أبداً الافتتان النهائي بالإجهاز على ضحيتهم بأنفسهم. آه، «غرادوس» نشيط وقادر ومفيد وضروري في الغالب، بالتأكيد. عند درج المشنقة، ذات صباح رمادي قارس، كان «غرادوس» هو من يكنس ندف ثلج الليل عن الأدراج الضيقة، لكن وجهه المدبوغ الطويل لا ينبغي أن يكون آخر وجه يراه الرجل المجبر على صعود تلك الأدراج في هذا العالم. و»غرادوس» هو من يشتري الحقيبة الليفية الرخيصة التي سيدسها فتى محظوظ، وبداخلها قنبلة موقوتة، أسفل سرير نصير سابق. لا أحد يعرف أفضل من «غرادوس» كيفية نصب فخ عن طريق إعلان زائف، لكن الأرملة العجوز الثرية، التي يدبر لها هذه الحيلة، داهنها شخص آخر واغتالها. عندما ربط الطاغية المخلوع، عاريا يولول، إلى لوح خشبي في الساحة العمومية وقتل تدريجيا على يد الشعب الذي قطعه إربا إربا، وأكله، ووزع جسده الحي بين أفراده (كما قرأت عندما كنت شابا في قصة حول مستبد إيطالي، مما جعلني نباتيا مدى الحياة)، لم يشارك «غرادوس» في هذا القربان المقدس الجهنمي؛ بل أشار إلى الأداة الصحيحة وأشرف على التقطيع.

يجب أن يكون كل هذا كما ينبغي؛ إذ يحتاج العالم إلى «غرادوس». لكن «غرادوس» يجب ألا يقتل الملوك. لا ينبغي أن يستفز «فينوغرادوس» الرب أبداً، أبداً. لا ينبغي أن يستهدف «لينينغرادوس» الناس بقصبته قاذفة البازلاء، ولو في المنام، لأنه إن فعل، ستحضنه يدان غليظتان بشكل هائل ومشعرتان على نحو شاذ من الخلف وتعتصره، فتعتصره، ثم تعتصره.

البيت ١٧٢: الكتب والناس

وجدت في مذكرة جيب سوداء احتفظت بها لحسن الحظ بعض العيّنات، مدونة هنا وهناك، بين مقتطفات مختلفة أسعدتني بالصدفة (هامش من كتاب «بوسويل» حياة الدكتور جونسون، وتسجيلات حول الأشجار في الشارع الشهير بجامعة «ووردسميث»، واقتباس من القديس أوغسطين، وغير ذلك)، من حوارات «جون شايد» التي جمعتها قصد الإحالة إليها في حضور أناس قد تهمهم صداقتي مع الشاعر أو تزعجهم. إنني واثق من أن قارئه وقارئي سيغفران لي كسر مسار هذه التعليقات المرتب ويسمحان لصديقي البارز بالحديث عن نفسه.

قال، إذ أشار إلى مراجعي الكتب: «لم أقرّ أبداً بالثناء المطبوع، رغم أني تشوقت في بعض الأحيان إلى معانقة الصورة المتوهجة لهذا المثال أو ذاك من آية الفراسة، ولم أكلف نفسي أبداً عناء الإطلال من نافذتي وإفراغ مبولتي على صلعة كاتب مأجور مسكين. إذ أعدّ التقويض والتقريظ معاً مثل اللامبالاة.» قال «كينبوت»: «أفترض أنك تستبعد الأول بوصفه ثرثرة أبله والثاني بما هو فعل ودود تأتيه روح كريمة؟» رد «شايد»: «بالضبط.»

قال متحدثاً عن الأستاذ «بْنين»، رئيس شعبة اللغة الروسية المتورمة، وهو رجل منضبط حازم تجاه مرؤوسيه (من حسن الحظ، لم يكن الأستاذ «بوتكين»، الذي كان يدرس بشعبة أخرى، خاضعاً لـ»منشد الكمال» البشع ذاك): «كم هو غريب أن يفتقر المثقفون الروس إلى حس الدعابة، بينما يمتلكون ظرفاء رائعين أمثال «غوغول» و»دوستويفسكي» و»تشيخوف» و»زوشينكو» وذينك المؤلفيْن المشتركيْن في العبقرية «إلف» و»بتروف».

قال متكلما عن فظاظة شخص ضخم البنية نعرفه معا: «الرجل سخيف مثل مئزر طاهي الهواء الطلق.» أجاب «كينبوت» (وهو يضحك): «رائع!»

ثم قال عن موضوع إدراج تدريس شكسبير في الكلية: «بادئ ذي بدء، اصرف النظر عن الأفكار، والخلفية الاجتماعية، ومرّن الناشئ الغرّ على أن يرتعش، ويثمل بشعر هاملت أو لير، وأن يقرأ بنخاعه الشوكي، لا بجمجمته.» قال «كينبوت»: «أتستحب المقاطع الأرجوانية على نحو خاص؟» رد «شايد»: «بلى، يا عزيزي «تشارلز»، أتدحرج عليها مثلما يفعل كلب هجين ممتن على بقعة عشب دنسها دنمركي بدين.»

قلت عن آثار الماركسية والفرويدية واختراقاتهما الخاصة: «يظل أسوأ ما في العقيدتين الخادعتين على الدوام هو أيهما يصعب استئصالها.» قال «شايد»: «لا، يا «تشارلي»، هناك عوامل بسيطة: تحتاج الماركسية إلى دكتاتور، ويحتاج الدكتاتور إلى شرطة سرية، وتلك نهاية العالم. لكن بمقدور الفرويدي، مهما كان غبيا، أن يدلي، مع ذلك، بصوته في الاقتراع، رغم أنه يسعد بتسميته [يبتسم] بـالتلقيح السياسي.»

قال «شايد» عن أوراق الطلبة: «إنني كريم للغاية على العموم. لكن هناك بعض الترهات التي لا أتجاوز عنها.» علق «كينبوت»: «مثلا؟» «عدم قراءة الكتاب المطلوب. قراءته مثل أبله. البحث فيه عن رموز؛ فعلى سبيل المثال، «يستعمل المؤلف صورة الأوراق الخضراء المدهشة لأن نعت الأخضر رمز السعادة والإحباط.» كما جرت عادتي على تخفيض علامة الطالب على نحو كارثي إذا كان يستخدم كلمات مثل «بسيطة» و»صادقة» بمعنى تقريظي؛ مثلاً: «أسلوب «شيلي» بسيط جدّاً وجيد على الدوام»، أو «يايتس صادق دائماً.» هذا أمر شائع، وعندما أسمع ناقدا يتحدث عن صدق مؤلف، أعرف أن الناقد أو المؤلف أحمق.» قال «كينبوت»: «لكن قيل لي إن طريقة التفكير هذه تدرس في الثانوية؟» «ذاك هو المكان
الذي يجب أن تبدأ فيه المكنسة بالكنس. ينبغي أن يكون للطفل ثلاثون متخصصاً يلقّنونه ثلاثين موضوعاً، لا معلمة مرهقة تريه صورة حقل أرز وتخبره أنها هي الصين لأنها لا تعرف أي شيء عن الصين، أو أي شيء آخر، ولا تستطيع أن تشرح له الفرق بين خطوط الطول والعرض.» وافق «كينبوت»: «نعم، إنني متفق.»

البيت ١٨١: اليوم

أي يوم ٥ يوليوز ١٩٥٩، الأحد السادس بعد عيد الثالوث الأقدس. بدأ «شايد» كتابة القطعة الثانية «في الصباح الباكر» (هكذا يشير إلى ذلك في أعلى الجذاذة الرابعة عشرة). وواصلها طيلة النهار (حتى البيت ٢٠٨). كان يكرس المساء ومعظم الليل لما اصطلَح عليه كتّابه المفضلون من القرن الثامن عشر «صخب العالم وغروره.» بعد أن انصرف الضيف الأخير (على دراجة)، وأفرغت منافض السجائر، ساد الظلام خلف النوافذ كلها طيلة ساعتين. لكني رأيت بعد ذلك، في نحو الساعة الثالثة صباحا، من حمامي بالطابق العلوي أن الشاعر عاد إلى مكتبه في ضوء عرينه الليلكي، حيث انتهت هذه الحصة الليلية بالقطعة إلى البيت ٢٣٠ (الجذاذة الثامنة عشرة). وجدت، إثر رحلة أخرى إلى الحمام بعد ساعة ونصف، لحظة شروق الشمس، أن الضوء انتقل إلى حجرة النوم، وأطلقت العنان لابتسامتي، لأن استنتاجاتي تفيد أن ليلتين فقط مضتا منذ المرة التاسعة والتسعين بعد ثلاثة آلاف وتسعمائة ـــ لكن لا يهم. أطبق ظلام دامس ثانية على كل شيء بعد بضع دقائق، ثم عدت إلى الفراش.

في اليوم الخامس من يوليوز، وقت الظهيرة، كان «غرادوس» يمشي على أسفلت مطار «أونهافا» الذي غمره المطر، في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية، حاملاً جواز سفر فرنسي، وهو يتجه نحو طائرة تجارية متوجهة إلى «كوبنهاغن». تزامن هذا الحدث مع شروع «شايد» في الصباح الباكر (حسب توقيت الساحل الأطلسي) في تأليف مطالع أبيات القطعة الثانية، أو تدوينها بعد أن ألفها في السرير. عندما وصل، بعد نحو أربع وعشرين ساعة، إلى البيت ٢٣٠، كان «غرادوس»، بعد ليلة منعشة قضاها في بيت قنصلنا الصيفي في «كوبنهاغن»، وهو عضو مهم في جماعة الظلال ، قد دخل، رفقة هذا العضو، إلى متجر ملابس لأجل أن يتطابق مع صورته التي سترد في تعليقين لاحقين (٢٨٦ و٤٠٨). تجدد الصداع النصفي بشكل أسوأ اليوم.

أما أنشطتي الخاصة، فيؤسفني أنها كانت غير مُرضية إلى حد كبير من جميع وجهات النظر ـــ العاطفية والإبداعية والاجتماعية. بدأ هذا النحس المشؤوم عشية اليوم الذي اقترحت فيه بمنتهى الأريحية على صديق شاب ـــ كان مرشحاً لجولتي الثالثة في كرة الطاولة، وقد جُرِّد من رخصة سياقته بعد سلسلة مثيرة من مخالفات السير ـــ أن آخذه بسيارتي «كراملر» القوية على طول الطريق حتى ملكية والديه، وهي حقل صغير يقع على بعد مائتي ميل. أثناء حفلة استغرقت ليلة قضيتها بين حشود من الغرباء ـــ شباب، وكهول، وفتيات متخمات بالعطر ـــ في جو مطبوع بالألعاب النارية، ودخان الشواء، والتهريج، وموسيقى الجاز، والسباحة خلال الفجر، فقدت كل اتصال بالفتى الأبله، الذي اضطر إلى الرقص والغناء، فانخرطت في ثرثرة مملة على نحو لا يتصور مع أقارب الفتى. ووجدت نفسي، في الأخير، بطريقة ما يتعذر تصورها، منقولا إلى حفلة مختلفة في ملكية مختلفة حيث تناولت فطوراً بالفواكه والأرز، بعد ألعاب بيتية لا توصف كادت أن تنتهي بقص لحيتي، فاصطحبني مضيفي المجهول، وهو أبله كهل سكير، ببدلة السهرة وبنطلون الفروسية، في جولة عاثرة حول إسطبلاته. عندما حددت مكان سيارتي (بجانب الطريق، في غيضة صنوبر)، قذفت من مقعد السائق بسروالِيْ سباحة مبللين وشبشب فتاة فضّي. تلفت الفرامل خلال الليل. سرعان ما نفد البنزين في طريق ممتد مهجور. كانت عقارب الساعة الحائطية في كلية «ووردسميث» تعلن السادسة، عندما بلغت «أركادي»، معاهدا نفسي ألا أقع أبداً في شرك مماثل، وأنا أتطلع ببراءة إلى أن أجد العزاء في أمسية هادئة مع شاعري. لم أدرك أنني كدت أفوت عيد ميلاده، إلا عندما رأيت العلبة المسطحة المزينة التي كنت وضعتها فوق كرسي بالمدخل.

منذ فترة، لاحظت ذلك التاريخ على غلاف أحد كتبه، وتأملت بِلى ملابسه الصباحية الشنيع، وقِسْتُ ذراعي بذراعه ممازحا، واشتريت له من واشنطن رداءً حريريّاً بديعاً للغاية، إهاباً تِنّينِياً حقيقيّاً مشبعاً بألوان شرقية، مما يناسب «ساموراي». هذا ما احتوته العلبة.

نزعت ملابسي واستحممت بسرعة، وأنا أدندن بترنيمتي المفضلة. أخبرني بستانيَّ المتعدد المواهب، وهو يدلكني تدليكاً كنت في أمس الحاجة إليه، أن آل «شايد» سيقيمان تلك الليلة «مأدبة» عشاء كبيرة، وأنهما يتطلعان إلى مجيء السيناتور «بلانك» (ابن خال «جون» ورجل دولة مفوه دائم الحضور في الأخبار).

الآن، ما من شيء يمتع رجلاً منعزلاً أكثر من حفلة عيد ميلاد مرتجلة. وإذ ظننت ـــ بل شعرتُ يقينا ـــ أن هاتفي المهمل ظل يرن طيلة اليوم، اتصلت بابتهاج برقم آل «شايد». وكانت «سيبيل» هي من أجابت بالطبع.

ـــ «مساء الخير»، يا «سيبيل».»

ـــ «آه، أهلا، يا «تشارلز». هل كانت رحلة جميلة؟»

ـــ «حسناً، الحق أن...»

ـــ «انظر، أعلم أنك تريد أن تكلم «جون»، لكنه يستريح في هذه اللحظة، وأنا منشغلة للغاية. سيتصل بك لاحقاً، اتفقنا؟»

ـــ «لاحقاً، متى ـــ الليلة؟»

ـــ «لا، غدا، كما أظن. جرس الباب يرن. وداعا.»

غريب. لِمَ ينبغي أن تنصت «سيبيل» إلى جرس الباب، بينما هناك في الجوار، إلى جانب الخادمة والطباخة، فتيان مستأجران متدثران بسترتين بيضاوين؟ منعني فخر زائف من فعل ما كان ينبغي أن أفعله؛ أي أن أتأبط هديتي الملكية وأسير بهدوء نحو ذلك البيت غير المضياف. من يدري؟ قد أكافأ خلف الباب بجرعة من مشروب المطبخ «شيري». كنت ما أزال آمل أن يكون هناك خطأ، وأن «شايد» سيتصل. انتظرت بمرارة. لم يكن الأثر الوحيد لقنينة الشمبانيا التي شربتها بمفردي، في هذه النافذة تارة، وفي تلك تارة ثانية، فيَّ غير خُمار سيء.

بقيت أنظر، من خلف حجاب، من خلف بقْس، عبر حجاب المساء الذهبي وعبر ستارة الليل السوداء، إلى تلك الحديقة، ذلك الدرب، تلك الشُّرّاعة، وتلك النوافذ المرصعة بالجواهر. لم تغرب الشمس بعد، عندما سمعت هدير سيارة الضيف الأول، في الساعة السابعة والربع.
آه، رأيتهم جميعاً. رأيت الطبيب «ساتن» الشيخ، وهو سيد نبيل قصير القامة، بيضوي تماماً، ذو رأس ثلجي البياض، يصل في سيارة «فورد» متداعية، رفقة شقيقته السيدة «ستار»، وهي أرملة حرب. رأيت زوجين قيل لي لاحقاً حين تعرفت عليهما إنهما السيد «كولت»، وهو محام محلي، وزوجته، دخلا بسيارتهما «كاديلاك» النصفية ممر بيتي بالخطأ قبل أن يرجعا إلى الخلف بفورة من الأضواء المتلألئة. رأيت كاتباً كهلاً مشهوراً عالميّاً، محدودباً بثقل تشريفاته الأدبية وضحالته الخصيبة، يصل بتاكسي خارجاً من الأيام الخوالي المعتمة عندما كان هو و»شايد» محررين مشتركين في مجلة صغيرة. رأيت «فرانك»، عامل آل «شايد» المتعدد الوظائف، يغادر في سيارة أسفار. رأيت أستاذاً متقاعداً كان متخصصاً في علم الطيور، يأتي قادما من الطريق السيار حيث ركَن سيارته بشكل غير قانوني. رأيت عرّابة الفنون التي رعت معرض العمة «مود» الأخير، متكورة في سيارتها الصغيرة «بوليكس» التي تقودها صديقتها ذات الشعر المجعد، الأشبه بالفتى الوسيم. رأيت «فرانك»، عائداً بالسيد «كابلن»، الأعمى تاجر الكتب القديمة في «نيوواي» وزوجته، ذلك العُقاب الهَرِم. رأيت كوريا هو طالب دراسات عليا بسترة عشاء، قادما على دراجة هوائية، ورئيس الكلية بسترة فضفاضة مترجلا. رأيت الشابين ذوا السترتين البيضاوين من مدرسة الفندقة، وهما يباشران واجباتهما الرسمية، في النور والعتمة، من نافذة إلى أخرى، حيث يطوفان

مثل مريخيين بكؤوس المارتيني والمشروبات الغازية، وأدركت أنني أعرف أنحفهما حق المعرفة. وأخيراً، في الثامنة والنصف (عندما أخذت سيدة البيت، كما أتصور، تطقطق مفاصل أصابعها، علامة على عادتها في التعبير عن نفاد الصبر وضيق الصدر) انسلّت سيارة «ليموزين» سوداء طويلة، ذات صقال رسمي، جنائزي بالأحرى، بهالة في الممر. بينما هرول السائق الزنجي البدين إلى فتح باب السيارة، رأيت شاعري، وأنا أرثي لحاله، يخرج من بيته، بوردة بيضاء على عروة سترته، وابتسامة ترحيب عريضة تعلو وجهه المتوهج بالشراب.

في الصباح الموالي، ما إن رأيت «سيبيل» تقود السيارة لتحضر الخادمة «روبي» التي لم تنم في البيت، حتى انتقلت إلى بيتهما حاملاً العلبة المغلفة تغليفاً جميلاً على نحو يوحي بالعتاب والتأنيب. لاحظت، على الأرض أمام مرآبهما، كومة صغيرة من كتب مكتبة بدا أن «سيبيل» نسيتها هناك. انحنيت عليها مدفوعاً بشيطان الفضول. كان معظمها للسيد «فوكنر». وفي اللحظة الموالية، عادت، حيث احتكت عجلات سيارتها بالحصى خلفي تماماً. أضفت الكتب إلى هديتي، وضعت الكومة كلها في حُجرها. كان ذلك أمراً لطيفاً مني ـــ لكن ما كانت تلك العلبة؟ هي مجرد هدية إلى «جون». هدية؟ حسناً، ألم يكن عيد ميلاده البارحة؟ بلى، كان، لكن أليست أعياد الميلاد، مع ذلك، مجرد أعراف؟ أعراف أم لا، لكنه كان عيد ميلادي أيضاً، بفارق ضئيل قدره ست عشرة سنة، ذلك كل ما في الأمر. آه، يا إلهي! تهاني. وكيف جرت حفلتكم؟ حسناً، أنت تعرف طبيعة هذه الحفلات (هنا امتدت يدي إلى كتاب آخر في جيبي ـــ كتاب لم تتوقعه). نعم، ما هي؟ آه، هناك أناس عرفناهم طيلة الحياة، وأنت مطالب ببساطة أن تدعوهم مرة كل سنة، رجال مثل «بن كابلن» و«ديك كولت» اللذين كنا نذهب معهما إلى المدرسة، وابن الخال ذاك من واشنطن، والخدين الذي تعد رواياته متكلفة جداً في نظركما أنت و«شايد». لم ندْعُك لأننا عرفنا مدى ضجرك من مثل هذه الأمور. ألمع إليَّ هذا بالردّ.

قلتُ: «بمناسبة الحديث عن الروايات، تذكرين عندما جزمنا ذات مرة أنا وأنت وزوجك أن تحفة «بروست» الممحولة كانت خرافة غيلان هائلة، حلما هليونيا، منفصلة تماماً عن أي شعب ممكن في أي فرنسا تاريخية، تلبيسا جنسيا ومهزلة هائلة، معجما وشعراً عبقريّاً وشعره، لكن لا أكثر، مضيفات غير مهذبات على نحو متعذر، دعيني أتكلم من فضلك، بل ضيوفا أكثر فظاظة، وشجارات «دوستويفسكية» آلية وفروقاً «تولستوية» دقيقة في الغرور
تتكرر وتتمدد إلى حد لا يحتمل، مشاهد بحرية فاتنة، شوارع ذائبة، لا، لا تقاطعيني، ضوءاً وآثار ظلال تباري ظلال الشعراء الإنجليز العظام، باقة استعارات وصفها ـــ «كوكتو»، كما أعتقد ـــ بـ«سراب حدائق معلقة»، لم أنتهِ بعد، قصة غرام عبثي مطاطي وشائك بين نذل شاب أشقر («مارسيل» المتخيل) وفتاة شابة لا تحتمل، ذات نهد مستعار وعنق ثخين مثل «فرونسكي» (و«ليوفين»)، وخدّين أشبه بردفي الإله «كيوبيد»؛ لكن ـــ دعيني الآن أنهي بلطف ـــ كنا مخطئين، يا «سيبيل»، كنا مخطئين في أن نجحد شيطاننا الصغير حقه في القدرة على إثارة «اهتمام الإنسان»: إنه هناك، إنه هناك ـــ ربما بميسم القرن الثامن عشر بالأحرى، أو حتى القرن السابع عشر، لكنه هناك. من فضلك، انغمسي في هذا الكتاب [وأنا أقدمه لها]، أو أعيدي الانغماس

فيه والتحمي به، ستجدين فيه واسماً(34) اشتريته من فرنسا، أريد أن يحتفظ به «جون». وداعا، يا «سيبيل»، يجب أن أذهب الآن. أظنني سمعت هاتفي يرن.»

أنا «زمبلي» ماكر. تحسبا لذلك، حملت معي في جيبي الجزء الثالث والأخير من عمل «بروست» في طبعته الصادرة ضمن سلسلة مكتبة لابلياد سنة ١٩٥٤، حيث وسمتُ بعض المقاطع في الصفحات ٢٦٩ ــ ٢٧١. اعتزمت السيدة «دو مورتمارت»، بعد أن قررت ألا تكون السيدة «دو فالكورت» ضمن «أصفياء» سهرتها، أن تبعث لها رسالة في اليوم الموالي تقول: «عزيزتي «إديث»، أفتقدك. لم أنتظرك الليلة الماضية كثيراً (ستتساءل «إديث»: كيف لها أن تفعل على الإطلاق، وهي لم تدعني؟) لأنني أعرف أنك لست مولعة بهذا النوع من الحفلات التي تضجرك بالأحرى.»

كذلك كان عيد ميلاد «جون شايد» الأخير.

البيتان ١٨١ ــ ١٨٢: شمعية الجناح... الزيز

يرافقنا طائر الأبيات ١ ــ ٤ مرة ثانية. سيظهر من جديد في البيت الأخير من القصيدة، وسيغني زيز آخر، وهو ينسلخ عن جلده، مبتهجاً بالنصر في الأبيات ٢٣٦ ــ ٢٤٤.

البيت ١٨٩: «ستاروفر بلو»

انظر التعليق على البيت ٦٢٧. هذا يذكر المرء بلعبة الإوزة الملكية، لكنها تُلْعَب هنا بطائرات صغيرة من قصدير مصبوغ: لعبة إوزة برّية بالأحرى (اذهب إلى الخانة ٢٠٩).

البيت ٢٠٩: الانحلال التدريجي

الزمكان نفسه انحلال؛ يطير «غرادوس» إلى الغرب؛ وصل إلى «كوبنهاغن»، المدينة الرمادية ــ الزرقاء (انظر التعليق على البيت ١٨١). بعد غد (يوليوز ٧)، سيتابع طريقه إلى باريس. حث خطاه عبر هذا البيت ومضى ــ ليسوّد صفحاتنا ثانية عما قريب.

البيتان ٢١٣ ــ ٢١٤: قياس

قد يرضي هذا طفلا. نتعلم لاحقاً، في الحياة، أننا أولئك «الآخرون.»

البيت ٢٣٠: شبحٌ أليف

أخبرتني «جاين بروفوست»، سكرتيرة «شايد» السابقة التي زرتها مؤخراً في شيكاغو، عن «هازل» أشياء كثيرة أهمّ مما روى لي والدها. إذ أَثَرَ ألا يتحدث عن ابنته الراحلة. ولأنني لم أحسب هذا العمل حريا بالتحقيق والتعليق، لم أحثّه على أن يتحدث في الموضوع ويفضي لي بهمومه. صحيح أنه باح، في هذه القطعة، بسريرته تماماً. صارت صورته عن «هازل» واضحة ومكتملة تماماً؛ ربما مكتملة للغاية، من الناحية المعمارية، مادام القارئ لن يتمالك نفسه عن الإحساس بأنها بسطت ووسعت على حساب أمور أخرى أثرى وأندر من الأمور التي حلت محلها. لكن ليس بمقدور أي شارح أن يتنصل من التزاماته، مهما كانت المعلومة التي يجب أن يجمعها وينقلها تافهة. من هنا هذا التعليق.

يبدو أن «هازل»، البالغة من العمر ستة عشر ربيعا، انخرطت، في مطلع سنة ١٩٥٠، قبل حادثة الحظيرة بزمن طويل (انظر التعليق على البيت ٣٤٧)، في بعض التظاهرات «الحركية النفسية» المرعبة التي استمرت طيلة شهر تقريباً. في البداية، كما يعتقد المرء، أراد الشبح الضاجّ أن ينقع هذا الاضطراب في هوية العمة «مود» التي ماتت للتو. كان أول شيء عمد إليه السلة حيث أبقت كلبها شبه المشلول «سكاي تيريي» (السلالة التي تسمى في بلادنا بـ«الكلب الصفصافي الباكي»). أمرت «سيبيل» بإبادة الكلب مباشرة بعد دخول سيدته المستشفى، مما أثار غضب «هازل» التي احتدمت غيظا. ذات صباح، رميت هذه السلة مثل السهم من المقام «المصون» (انظر الأبيات ٩٠ ــ ٩٨) وسافرت على طول الممر، مارّة أمام باب المكتب حيث كان يشتغل «شايد»؛ رآها تطير وتدلق محتوياتها المتواضعة: لحاف رثّ، وعظم مطاط، ووسادة حائلة اللون إلى حد ما. وفي اليوم الموالي، انتقل مسرح العمل إلى حجرة الطعام حيث عُثِر على إحدى لوحات العمة «مود» الزيتية (السرو والخفاش) مقلوبة نحو الجدار. تلاحقت حوادث أخرى، مثل الرحلات القصيرة التي قامت بها قصاصاتها من الصحف (انظر التعليق على البيت ٩٠)، وجميع أنواع الطَرَقات بالطبع، خاصة في المقام، التي توقظ «هازل» من نومها الهادئ، بلا شك، في الغرفة المجاورة. لكن سرعان ما نضبت أفكار الشبح الضاج، تلك المتصلة بالعمة «مود»، فأصبح انتقائيا أكثر، إن جاز التعبير. إذ تمّت كل الحركات المبتذلة، التي تقتصر عليها الأشياء في هذه الحالة، من خلال هذه. تحطمت الطنجرات في المطبخ؛ عثر على كرة ثلج (قبل الأوان، ربما) في الثلاجة؛ رأت «سيبيل» مرة أو مرتين صحنا يطير مثل قرص ويرسو بأمان على الأريكة؛ ظلت المصابيح منارة في أرجاء مختلفة من البيت؛ تدحرجت الكراسي لتجتمع في مخزن المؤن الذي لا منفذ إليه؛ وجدت قطع رباط غامضة على الأرض؛ ترنح معربدون مستترون على الدرج في عز الليل؛ رأى «شايد» ذات صباح شتائي، عندما نهض وألقى نظرة على الطقس، أن طاولة مكتبه الصغيرة حيث أبقى معجم «ويبستر» الشبيه بالإنجيل مفتوحاً على حرف الميم، كانت منتصبة كمن ألقى بها خارج البيت، وسط الثلج (ربما ساهم هذا الأمر، على نحو لاشعوري، في صياغة الأبيات ٥ ــ ١٢).

أتصور أن آل «شايد»، أو «جون شايد» على الأقل، كابدوا خلال تلك الفترة إحساساً باضطراب غريب، كما لو أن أجزاء الحياة اليومية، التي تسير العالم بسلاسة، انفكّت، ثم أدركتَ أن إحدى عجلاتك تتدحرج إلى جانبك، أو أن مقودك انفصل. لم يفتأ صديقي المسكين يتذكر نوباته المفاجئة في طفولته المبكرة، ويتساءل إن لم تكن هذه متغيراً وراثيّاً جديداً في الموضوع ذاته، نَقَلَه التناسل. لم يكن إخفاء هذه الظواهر المرعبة والمهينة عن الجيران أقلّ هموم «شايد». كان مذعورا، تمزقه الحسرة. رغم أنه وهو و»سيبيل» لم يستطيعا أبداً حصرها في الزاوية، فإنهما لم يشكا أن تلك الفتاة الواهنة والضعيفة والخرقاء، التي بدت مهتمة أكثر من كونها فزِعة، كانت بطريقة استثنائية ما وكيلة القلق الذي يمثل في رأيهما (أنا الآن أقتبس كلمات «جاين بـ.») «امتداداً خارجيّاً أو طردا للجنون.» لم يتمكنا
من بذل جهد أكبر حيال ذلك، جزئيا لأنهما كرها الطب النفسي الحديث المؤمن بالتمائم، لكن أساساً لأنهما كانا خائفين من «هازل»، وخائفين من إيلامها. بيد أنهما أجريا مقابلة سرية مع الطبيب النطاسيّ المحافظ «ساتن»، إذ بفضلها تحسنت معنوياتهما. كانا يفكران في الانتقال إلى منزل آخر، أو على نحو أدق، كان أحدهما يقول للثاني بصوت عالٍ، حتى يسمعهما كل من قد ينصت إليهما، أنهما يعتزمان الانتقال، عندما رحل الشبح فجأة، كما حصل مع «الموسكوفيت»، تلك الريح المريرة، تلك العاصفة من الهواء البارد التي تهب على شواطئنا الشرقية طيلة شهر مارس؛ ثم ذات صباح، تسمع العصافير، فتتدلى الرايات مرتخية، وتعود معالم العالم إلى مكانها ثانية. توقفت الظواهر تماماً، ولم تذكر أبداً على الأقل، إن لم تكن نُسيت. لكن كم هو غريب أننا لا ندرك علامة غامضة في المعادلة القائمة بين هرقل الذي ينبثق من الجسد الواهن لطفلة عصابية وشبح العمة «مود» الصاخب. كم هو غريب أن عقلانيتنا تشعر بالرضا عندما نختار التفسير الأول بتأنٍّ، رغم أن العلم والقوة الخارقة، أعجوبة العضلة ومعجزة العقل، لا يقبلان التفسير معاً، مثلما هي جميع سُبُل ربّنا.

البيت ٢٣١: كم سخيفة، الخ.

تتفرع صيغة بديلة جميلة، مع وجود فراغ غريب، عن هذه النقطة في المسودة (المؤرخة يوم ٦ يوليوز):

غريب هو العالم الآخر حيث يقيم مَجَاهِضُنا،

والحيوانات الأليفة، والمنبعثون، والعاجزون، والمتعافون،

والعقول التي ماتت قبل أن تصل إلى هناك:

مسكين «سويفت» الهرم، مسكين ـــ ، مسكين «بودلير»

ما الذي يرمز إليه ذلك الخط الصغير؟ ما لم يضفِ «شايد» قيمة عَروضية إلى الحرف الصامت Baudelaire في «e»، وأنا متأكد تماماً أنه لن يفعل الأمر ذاته أبداً في قصيدة إنجليزية (بالمقارنة مع «رابلي» في البيت ٥٠١)، فإن الاسم المراد هنا ينبغي أن يقّطع بوصفه تفعيلة. نجد من ضمن شعراء ورسامين وفلاسفة وغيرهم، ممن شاع أنهم جنوا أو غاصوا في بلاهة الشيخوخة، العديد من الأسماء المناسبة. هل وجد «شايد» نفسه أمام تعدد كبير جدّاً، من دون أن يكون هناك اسم يساعد على الاختيار المنطقي، لذلك ترك فراغا، معولا على القوى العضوية الغامضة، التي تُسْعِف الشعراء، لِتملأه بما يناسبها؟ أم ثمة أمر آخر ـــ حدس غامض ما، هاجس نبوئي ما منعه من تهجية اسم رجل بارز صدف أنه كان أحد أصدقائه الحميمين؟ هل كان يتصرف ربما بحذر لأن قارئاً ما، من أهله، قد يعترض على ذكر ذلك الاسم عينه؟ وإذا بلغ الأمر ذلك الحد، فلِمَ يذكره بأي حال في هذا السياق المأساوي؟ إنها أفكار سوداوية ومقلقة.

البيت ٢٣٨: علبة زمرّد فارغة

أفهم هذا بوصفه الغشاء شبه الشفاف الذي خلفه على جذع شجرة زيزٌ بالغ زحف عليه، ثم انسلخ عن كسائه القشري. قال «شايد» إنه سأل ذات مرة قسما من ثلاثمائة طالب، حيث كان ثلاثة منهم فقط يعرفون شكل الزيز. أطلق عليه مستوطنون جهلة اسم «الجراد»، الذي هو الجندب بالطبع. ووقعت أجيال من مترجمي حكاية «لافونتين» الزيز والنملة في الخطأ السخيف نفسه (انظر التعليق على البيتين ٢٤٣ ـــ ٢٤٤). تكاد قطعة النملة، رفيقة الزيز، تحنط في العنبر.

كانت لصديقي، خلال جولاتنا عند الغروب، التي كانت عديدة جدّاً، تتسع على الأقل (وفق مذكراتي) خلال يونيو، لكنها تراجعت إلى جولتين خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من يوليوز (ستلخص في موضع آخر)، طريقة ذات غُنج بالأحرى في الإشارة بطرف عكازه إلى أشياء طبيعية عجيبة مختلفة. لم يكلّ أبداً، بواسطة هذه الأمثلة، من تصوير الانصهار الاستثنائي بين المنطقة الكندية ومنطقة الجزر الجنوبية، الذي «حصل»، حسب تعبيره، في تلك البقعة الخاصة من «أبالاتشيا» حيث تمازجت، في ارتفاعنا البالغ نحو ألف وخمسمائة قدم، أنواع الطيور والحشرات والنباتات الشمالية مع نظائرها الجنوبية. لم يبدُ «شايد»، مثل معظم مشاهير الأدب، مدركاً أن عاشقاً متواضعاً حصر الرجل العبقري المتحصن في الزاوية أخيراً واحتكره لنفسه في نهاية المطاف، يهتم إلى حد بعيد بمناقشته في الأدب والحياة أكثر من أن يقال له أن الـ»ديانا» (وهي زهرة على ما يبدو) توجد في «نيوواي» إلى جانب «أتلنتيس» (من المحتمل أنها زهرة أخرى)، وأشياء من هذا القبيل. أتذكر على نحو خاص جولة مسائية مغيظة (يوم ٦ يوليوز)، أنعم عليَّ بها شاعري بسخاء مهيب، جبْرا لإساءة مؤذية (انظر، انظر مرارا، التعليق على البيت ١٨١)، ومكافأة على هديتي الصغيرة (التي أظن أنه لم يستعملها أبدا)، بتحريض من زوجته التي أصرت على أن ترافقنا في شوط من الطريق إلى «دالويتش فوريست». ظل «شايد»، عبر جولات نبيهة

في التاريخ الطبيعي، يتجنبني، أنا الذي انتابني فضول هستيري حاد وخارج عن السيطرة لمعرفة أي شطر بالضبط أَكْمَلَه في مغامرات الملك «الزمبلي» خلال الأيام الأربعة أو الخمسة الأخيرة. إذ نهاني الفخر، عيبي المعتاد، عن الإلحاح عليه بأسئلة مباشرة، لكني ظللت أعود إلى مواضيعي السابقة ـــ الهروب من القصر، المغامرات في الجبال ـــ حتى أنتزع منه اعترافا ما. يتصور المرء أن شاعراً ما سينتهز الفرصة ببساطة، أثناء تأليف قصيدة طويلة وصعبة، للحديث عن انتصاراته ومحنه. لكن لا شيء من هذا القبيل! فكل ما تلقيته ردا على استفهاماتي اللطيفة والمتحفظة للغاية جملٌ مثل: «أجل، تسير بشكل جيد»، أو «لا، لا أتحدث عن ذلك.» تخلص مني أخيراً بنادرة مسيئة عن الملك «ألفريد» الذي قيل إنه كان يحب حكايات يرويها له نرويجي من الحاشية، لكنه يصرفه كلما انخرط في شأن آخر: «آه، ها أنت»، كان يقول الملك الجلف للنرويجي النبيل الذي جاء لينسج صيغة مختلفة بارعة من أسطورة نرويجية قديمة سبق أن رواها من قبل: «آه، هأنت من جديد!» وهكذا، أعزائي، اتفق أن صار منفي رائع، نظّام ملاحم شمالي ألهمته الآلهة، يعرف في أوساط التلاميذ الإنجليز باللقب الدارج: «هأنت».

مع ذلك! اتسم صديقي المتقلب الخاضع بلطف أكبر في مناسبة لاحقة (انظر التعليق على البيت ٨٠٢).

البيت ٢٤٠: ذاك الإنجليزي في «نيس»

ماتت جميع النوارس سنة ١٩٣٣ بالطبع. لكن المرء قد يحصل على اسم المنعِم عليها عبر إدراج إشعار في صحيفة دو لندن تايمز ـــ ما لم يكن ابتدعه «شايد». عندما زرت مدينة «نيس» بعد ربع قرن، وجدت هناك، بدل ذلك الإنجليزي، شخصية محلية، متسكعاً كهلاً ملتحياً، يأذن بإغراء السائح أو يشجعه، منتصباً مثل تمثال «فيرلين»، على رأسه الأشعث حط نورس قذر بمظهره الجانبي، أو يغفو تحت الشمس المشاعة، مستكينا في ارتياح وظهره إلى صفحة البحر الهادئة، على مقعد منزه، أسفله وضّب بعناية فُتَاتة زادٍ ملونة غير
محددة فوق جريدة، لتجفّ أو تتخمر. لم يكن ثمة إنجليز كثر يمشون هناك، بأي حال، رغم أنني رأيت بعضاً منهم شرق مدينة «مينتون»، على الرصيف حيث شُيّد نصب تذكاري ضخم على شرف الملكة «فكتوريا»، تعانقه النسمات بمشقة، لكن ستارة الافتتاح لم تزح عنه بعد، ليحل محل التمثال الذي انتزعه الألمان. وعلى نحو مثير للشفقة، برز القرن المتلهف في صولجانه المفضل من الستارة.

البيت ٢٤٦:... يا عزيزتي

يخاطب الشاعر زوجته. للمقطع الذي خصّصه لها (الأبيات ٢٤٦ ـــ ٢٩٢) فائدته البنيوية بما هو انتقال إلى تيمة ابنته. غير أنني أستطيع أن أصرح أن كل شيء لا يصير «على ما يرام» دائماً،

عندما كنا نسمع خطى «سيبيل» العزيزة، العنيفة والحادة، فوق رؤوسنا في الطابق الأعلى!

البيت ٢٤٧: «سيبيل»

هي زوجة «جون شايد»، سميت «إروندیل» عند ولادتها (وهو ليس اسما مقتبسا من وادٍ صغير يستخرج منه الحديد الخام، وإنما من الكلمة الفرنسية التي تعني «السنونو»). كانت تكبره ببضعة شهور. أعلم أنها من أصل كندي، شأنها شأن جدة «شايد» من والدته (ابنة عم جد «سيبيل»، إن لم أكن مخطئاً خطأً فادحاً).

منذ البداية، حاولت أن أبدي أكبر قدر من المجاملة تجاه زوجة صديقي. ومنذ البداية، نفرت مني وارتابت فيّ. علمتُ لاحقاً أنها اعتادت، عندما تريد أن تشير إليَّ أمام الملأ، أن تنعتي بـ«قراد فيل، نِبْر ملكي، دودة ماكاك، طفيلي عبقري شنيع.» أسامحها ـــ هي والجميع.

البيت ٢٧٠: فانيستي الدكناء

الأمر أشبه بقلب عالم يبحث عن تسمية أثيرة ليطلق اسم جنس الفراشة على معبود «أورفيوسي» في قمة التلميح المحتوم إلى «فانهومريغ»، «إستر»!(35) بهذا الصدد، علق بذاكرتي بيتان من إحدى قصائد «سويفت» (لا أستطيع أن أحددها في هذه الأدغال الموحشة):

عجبا! عندما أزهرت الـ»فانيسا»

تهادت مثل نجم «أتلانتا»

أما فراشة «فانيسا»، فستظهر ثانية في الأبيات ٩٩٣ ـــ ٩٩٥ (انظر التعليق عليها). اعتاد «شايد» أن يقول إن اسمها الإنجليزي القديم هو «دو ريد أدميرابل»، الذي اختزل لاحقاً في «دو ريد أدميرال»(36). إنها واحدة من الفراشات القليلة التي أحسب نفسي عارفا بها. يسميها «الزمبليون» «هارفالدا» (النذيرة) ربما لأنه يمكن بسهولة تمييز صورة لها منقوشة على شعار نبالة دوقات «باين». في خريف بعض السنوات، كانت تظهر في الغالب داخل حدائق القصر، وتحط على زهرة الخرام رفقة عثة نهارية طائرة. وقد رأيتُ «دو ريد أدميرابل» تتلذذ ببرقوق متحلّب، وبأرنب ميت. إنها من أكثر الفراشات مرحا. كان آخر شيء طبيعي لفت «جون شايد» انتباهي إليه، وهو سائر إلى موته، جنساً أليفاً مشابهاً لها (انظر، انظر الآن، تعليقي على الأبيات ٩٩٣ ـــ ٩٩٥).

ألاحظ نفحة من نفحات «سويفت» في بعض تعليقاتي. أنا أيضاً كئيب بطبعي، رجل جزِع وضجِر ومرتاب، رغم أنني أعيش لحظات جذل ونوبات ضحك.

البيت ٢٧٥: تزوجنا منذ أربعين سنة

تزوج «جون شايد» و»سيبيل سوالاو» (انظر التعليق على البيت ٢٤٧) سنة ١٩١٩، ثلاثة عقود بالضبط قبل أن يتزوج الملك «تشارلز» بـ«ديزا»، دوقة «باين». فمنذ بداية عهده (١٩٣٦ ــــ ١٩٥٨)، ظل ممثلون عن الأمة، وصيادو سمك السلمون، وزَجَّاجون غير منضوين في أي نقابة، وجماعات عسكرية وأقارب قلقون، وخاصة أسقف «بِسلوف»، وهو قديس كهل متفائل، يبذلون قصارى جهدهم لإقناعه أن يمتنع عن ملذاته الحافلة، لكن العقيمة، وأن يتخذ زوجة. لم يكن الأمر مسألة أخلاق، وإنما مسألة خلافة. وكما حصل في حالة بعض أسلافه من ملوك الحور الأجلاف الذين يتحرقون شوقاً إلى الغلمان، تجاهل رجال الدين عادات أعزبنا الشاب الوثنية، لكنهم أرادوا منه أن يفعل ما فعله ملك سابق يدعى «تشارلز» أكثر ممانعة منه بالأحرى؛ أي أن يقتطع ليلة وينجب وريثا بطريقة شرعية.

رأى «ديزا»، البالغة من العمر تسع عشرة سنة، لأول مرة ليلة العيد، يوم ٥ يوليوز ١٩٤٧، في حفلة تنكرية بقصر عمه. كانت ترتدي لباسا ذكوريا، مثل فتى «تيرولي»، ركبتاها معيبتان إلى حد ما، لكنها أنيقة وفاتنة. بعد ذلك، قادها هي وابني عمها (حارسين متنكرين في صورة بائعات الورود) في سيارته المقدسة الجديدة ذات الغطاء القابل للطي، عبر الشوارع لترى إنارة عيد الميلاد الهائلة، ورقصات الشعلة في المنتزه، والألعاب النارية، والوجوه المشوشة الشاحبة. تماطل طيلة سنتين تقريباً، لكن حَمَل عليه مستشاران مفوهان في قسوتهما، فاستسلم أخيراً. عشية زفافه، صلى أغلب الليل، منقطعاً وحيداً في رحابة كنيسة «أونهافا» الباردة. نظر إليه ملوك حور متعجرفون من النوافذ الياقوتية الأرجوانية. لم يتضرع إلى الرب أبداً بتلك الحماسة متوسلا الهدي والقوة (انظر فضلا عن هذا تعليقي على البيتين ٤٣٣ ــــ ٤٣٤).

بعد البيت ٢٧٤، ثمة بداية خاطئة في المسودة:

أحب اسمي: «شايد»، ظل، شبه «إنسان»

بالإسبانية...

يأسف المرء لأن الشاعر لم يواصل هذه التيمة ــــ فيجنب قارئه الحميميات المحرجة الموالية.

البيت ٢٨٦: بدخان طائرة وردي فوق وهج الغروب

دأبت، أنا أيضاً، على أن ألفت انتباه شاعرِي إلى جمال الطائرات الشاعري في سماء العشي. من كان يظن أن «شايد» كتب هذا البيت الهفاف (الأخير في جذاذته الثالثة والعشرين) في اليوم نفسه الذي طار فيه «غرادوس»، الملقب بـ«دوغري»، من «كوبنهاغن» إلى باريس، لينهي إذا المرحلة الثانية من رحلته المشؤومة! حتى في «أركادي» أجدني، يقول الموت في مكتوب على شاهدة القبر.

أتقنت جماعة الظلال بالأحرى تخطيط أنشطة «غرادوس» في باريس. كانت على حق إذ افترضت أن «أودن» ليس وحده من يعرف أين يوجد الملك، بل أيضاً قنصلنا السابق في باريس، الراحل «أوسوين بريتويت». فقررت أن يختبر «غرادوس» «بريتويت» أولا. كان ذلك الرجل النبيل يسكن وحيداً في شقة في «مودون». نادرا ما كان يذهب إلى أي مكان آخر، ما عدا المكتبة الوطنية (حيث يقرأ أعمالا ثيوصوفية ويحل ألغازاً شطرنجية في جريدة قديمة)، ولم يكن يستقبل زوارا. انبثقت خطة الظلال المتقنة من ضربة حظ. خامرها شك أن «غرادوس» يفتقد إلى العدة الذهنية ومواهب المحاكاة الضرورية لتشخيص ملكيّ متحمس، فاقترحت عليه أن من الأجدر أن يتظاهر بكونه مندوبا غير معني نهائيّاً بالسياسة، رجلاً محايداً بسيطاً لا يهتم سوى بالحصول على سعر جيد مقابل أوراق متنوعة لأطراف خاصة طلبت منه إخراجها من «زمبلا» وتسليمها لملاكها الشرعيين. حالفها الحظ، في إحدى حالاته المناهضة «للكارلية». كان لأحد أعضاء الظلال الأقل شأناً، سنسميه «بارون أ.» حَمْوٌ اسمه «بارون بـ.»، وهو رجل هرِم مسالم تقاعد منذ زمن طويل من الخدمة المدنية، وبات عاجزاً تماماً عن فهم بعض خصائص النهضة في النظام الجديد. كان، أو ظُنَّ (فالمسافةُ الاستعاديةُ تمجد الأشياءَ) أنه كان صديقاً مقرباً من الراحل وزير الشؤون الخارجية، والد «أوسوين بريتويت»؛ ومن ثمة، كان يتطلع إلى اليوم الذي سيصبح فيه قادراً على أن ينقل إلى «أوسوين» الشاب (الذي لم يكن، حسب فهمه، شخصاً مرغوباً فيه في النظام الجديد) حزمة أوراق عائلية ثمينة عثر عليها البارون المعفَّر صدفة ضمن ملفات مكتب حكومي. على حين غرة، أُخبر أن ذلك اليوم قد حان؛ إذ سترسل تلك الأوراق على الفور إلى باريس. كما سمح له أن يُصَدِّرها برسالة موجزة تقول:

ها هنا بعض الأوراق الثمينة التي تخص عائلتك. ليس بمقدوري أن أفعل شيئاً آخر سوى وضعها بين يدي ابن الرجل العظيم التي كان رفيق دراستي في «هايدلبورغ» وأستاذي في الخدمة الدبلوماسية. تطير الكلمات، وتبقى الكتابات(37).

تألفت الكتابات مدار الحديث من مائتين وثلاث عشرة رسالة طويلة تبادلها «زول بريتويت»، عم «أوسوين» الأكبر، عمدة مدينة «أوديفالا»، وابن عمه «فيرز بريتويت»، عمدة مدينة «أروس»، قبل نحو سبعين سنة. كانت هذه المراسلات، وهي مطارحات كئيبة حول تفاهات بيروقراطية وروايات لدعابات مبتذلة، خالية حتى من مثل الاهتمام المحدود الذي قد تحويه رسائل من هذا

النوع في نظر مؤرخ محلي ـــ لكن لم يكن ثمة، بالطبع، ما يمكن أن يشي بما سينفر حفيدا مرهفا مهتما بالأسلاف أو ما سيستهويه ـــ وهذا ما عرف به «أوسوين بريتويت» على الدوام بين موظفيه السابقين. أود أن أقتطع بعض الوقت هنا لأقطع اطراد هذا التعليق الجاف، وأثني بإيجاز على «أوسوين بريتويت».

كان من الناحية الجسدية رجلاً سقيماً أصلع الرأس، يشبه غُدّة شاحبة. كان وجهه عديم الملامح على نحو خاص. عيناه أشبه بخليط القهوة والحليب. يتذكر المرء أنه يرتدي دائماً رباطاً صباحيّاً. لكن هذا المظهر الخارجي التافه أخفى منزلة الرجل. أحيي هنا «بريتويت» الشجاع، من وراء موجات المحيط المتلألئة! فلتظهر يده ويدي للحظة تشدّ إحداهما على الثانية بحرارة عبر الماء فوق الأثر الذهبي لشمس رمزية. فلتمتنع أي شركة تأمين أو طيران عن نشر هذه الشارة في الصفحة الصقيلة لمجلة كعلامة إعلانية، أسفل صورة رجل أعمال متقاعد أدهشه وشرّفه أن يرى مضيفة الطيران تقدم له وجبة خفيفة مصورة بالألوان، مرفقة بأي شيء آخر تقدمه؛ بالأحرى، لتُجَلَّ هذه المصافحة السامية في عصرنا الكلبي المتسم بالعلاقات الجنسية المغايرة المضطربة، بوصفها رمزاً أخيراً، بل أبديّاً، يدل على الإقدام ونكران الذات. كم حلم المرء بحماسة أن تتشرب قصيدة صديق راحل آخر رمزاً مشابهاً، إنما
بصيغة لفظية، لكن ذلك لم يحدث... سدى يبحث المرء في نار شاحبة (آه، شاحبة، بالفعل!) عن دفء يدي، وهي تشد على يدك، أيها المسكين «شايد»!

لكن لنعد إلى سطوح باريس. تحالفت الشجاعة، في «أوسوين بريتويت»، مع الإخلاص والطيبوبة والكرامة وما يمكن أن يسمى بعبارة ملطفة بالسذاجة المحببة. عندما هاتفه «غرادوس» من المطار، وقرأ عليه رسالة «بارون بـ.» (دون العبارة اللاتينية) ليحرك شهيته، لم يفكر «بريتويت» سوى في المأدبة التي يدّخرها له. امتنع «غرادوس» عن الإفصاح عبر الهاتف عن طبيعة «الأوراق الثمينة»، لكن حدث بالفعل أن صار القنصل السابق يتطلع، في الآونة الأخيرة، إلى استرداد مجموعة طوابع قيّمة خلفها والده إرثا منذ سنوات عند ابن عم متوفى الآن. أقام ابن العم في البيت نفسه شأنه شأن «بارون بـ.». إذ ظل القنصل السابق، وهو ينتظر زائره، مبلبلا بكل هذه المسائل المعقدة والفاتنة التي تعتمل في ذهنه، يتساءل إن كان الشخص القادم من «زمبلا» محتالاً خطيراً، وعما إذا كان سيجلب جميع الألبومات دفعة واحدة أم تدريجيا حتى يرى ما قد يحصل عليه مقابل آلامه. ترجَّى «بريتويت» أن ينتهي الأمر تلك الليلة ذاتها، بما أنه سينقل إلى المستشفى في الصباح الموالي، وربما يجري عملية جراحية (كذلك كان، حيث مات بالمشرط).

إذا التقى عميلان سريان ينتميان إلى عصبتين متنافستين في معركة الدهاء، وأحدهما عديم الفطنة، فإن النتيجة قد تصبح مضحكة. ستصير مضجرة إذا كانا أبلهين معاً. أتحدى أي شخص أن يعثر في حوليات المؤامرة والمؤامرة المضادة على أي شيء أكثر سخافة وملا من المشهد الذي يشغله ما تبقى من هذا التعليق الواعي.

جلس «غرادوس»، غير مرتاح، على طرف أريكة (استلقى عليها ملك متعب قبل أقل من سنة). انحنى على حقيبته. مدّ لضيفه رزمة أوراق بنية كبيرة، ثم نقل ردفيه إلى كرسي قرب مقعد «بريتويت» حتى يراقب بارتياح صراعه مع الرباط. تفرّس «بريتويت» بصمت مذهل في ما فضّ رباطه أخيراً، ثم قال بعدئذ:

«حسناً، تلك هي نهاية حلم. لقد نشرت هذه المراسلة سنة ١٩٠٦ أو ١٩٠٧ ـــ لا؛ ١٩٠٦، مع ذلك ـــ على يد أرملة «فيرز بريتويت» ـــ بل ربما أتوفر على نسخة منها في مكان ما بين كتبي. فضلا عن ذلك، لم تكتب هذه بخط يد واضعها، بل هي نسخة طبق الأصل، أنجزها ناسخ من أجل الطباعين ـــ ستلاحظ أن العمدتين معاً يكتبان بالخط نفسه.»

«كم ذلك مثير للانتباه»، قال «غرادوس» ملاحظاً الأمر.

«بالطبع، أقدر الفكر المؤدب الذي يقف خلف ذلك»، قال «بريتويت».

«كنا متأكدين أنك ستفعل»، قال «غرادوس» مبتهجا.

تابع «بريتويت»: «لا بد أن «بارون بـ.» أبله إلى حد ما، لكني أكرر أن نيته الحسنة مؤثرة. أفترض أنك تريد بعض المال مقابل جلب هذا الكنز؟»

أجاب «غرادوس»: «ستكون المتعة التي تشعر بها بمثابة مكافأة لنا. لكن اسمح لي أن أقول لك بصراحة: لقد تجشمنا عناء كبيراً، ونحن نحاول إنجاز هذه المهمة كما ينبغي، حيث قطعت طريقاً طويلاً. غير أني أريد أن أقترح عليك ترتيباً صغيراً. ستكون لطيفاً معنا، وسنكون لطفاء معك. أعرف أن أموالك هي إلى حد ما...» (غمزة وإيماءة توحي بالخصاصة).

«صحيح تماماً»، تنهد «بريتويت».

«إذا سلكت طريقنا، لن يكلفك الأمر سنتاً واحداً.»

«آه، يمكنني أن أدفع ثمن شيء ما» (عبس وهز كتفيه).

«لسنا بحاجة إلى مالك» (رفع كفّه كما يفعل شرطي المرور). «لكن إليك خطتنا. عندي رسائل من بارونات آخرين إلى هاربين آخرين. في الواقع، لدي رسائل إلى الهارب الأكثر غموضاً على الإطلاق.»

صرخ «بريتويت» باندهاش صريح: «ماذا؟ هل يعلمون في الديار أن جلالته غادر «زمبلا»؟» (ليتني كنت قادراً على أن أصفع الرجل العزيز.)

«بالتأكيد، نعم»، قال «غرادوس» وهو يفرك يديه، ويلهث تماماً بمتعة حيوان ـــ هي مسألة غريزية بلا شك ما دام الرجل لم يستطع بالتأكيد أن يدرك بذكاء أن زلّة القنصل السابق ليست سوى التأكيد الأول لوجود الملك خارج البلاد: «بالتأكيد»، ردّد بشزَرٍ ذي معنى، «وسأكون مدينا لك إذا زكيتني بتوصية إلى السيد ز.».

عند هذه الكلمات انبلجت حقيقة كاذبة في ذهن «أوسوين بريتويت»، فتأوه في نفسه: بالطبع! كم أنا بليد! إنه واحد منا! أخذت أصابع يده اليسرى ترتعش بشكل لاإرادي كأنه يسحب عليها دمية «كيكابو»، بينما كانت عيناه تتابعان باهتمام إيماءة مخاطبه المبتذلة إلى الرضا. فالمتوقع أن يرسل وكيلٌ «كارليٌّ»، وهو يكشف عن نفسه إلى رئيس، إشارة مطابقة لـ«ز.» (إشارة إلى «زايفير») بأبجدية الصم، حيث تبقى اليد في وضع أفقي مع ثني السبابة بطريقة رخوة بالأحرى، وضمّ باقي الأصابع (انتقد كثيرون هذه الطريقة لأنها تبدو مائعة للغاية، فاستبدلت الآن بتركيبة أكثر رجولية). في المناسبات العديدة، التي ألقي فيها هذا التعبير على «بريتويت»، كان يتَقَدَّم الإعلانَ عنه، خلال لحظة تشويق ـــ بالأحرى فجوة في نسيج الزمن أكثر من بطء فعلي ـــ شيءٌ ما أشبه بما يسميه الفيزيائيون بالهالة، إحساسٌ غريب متوتر وضبابي في آن معاً، حنقٌ ساخن ـــ بارد لا يوصف، يجتاح النظام العصبي برمته قبل أن تحل به نوبة. وبهذه المناسبة أيضاً، شعر «بريتويت» بالخمرة الساحرة تصعد إلى رأسه.

قال بتوق شديد: «حسناً، أنا مستعد. أعطني الإشارة.»

نظر «غرادوس»، وهو يقرر المجازفة، إلى اليد في حُضن «بريتويت». بدت من غير أن يشعر صاحبها كأنها تحث «غرادوس» على همس يدوي. حاول أن يحتذي بما كانت تبذل قصارى جهدها أن تنقله ـــ إنها مجرد أصول الإشارة المطلوبة.

«لا، لا»، قال «بريتويت وافتر ثغره عن ابتسامة سمحة في وجه المبتدئ الأخرق. «اليد الأخرى، يا صديقي. جلالته أعسر، كما تعلم.»

حاول «غرادوس» ثانية ـــ لكن الحركة الحاثة الجامحة الصغيرة اختفت مثل دمية مرفوضة. جرّب «غرادوس»، وهو ينظر بخجل إلى أصابعه الخمسة الثخينة الغريبة، حركات راسم ظلال عاجز وشبه مشلول، وانتهى إلى رسمٍ غامض على شكل V علامة النصر. أخذت ابتسامة «بريتويت» تتلاشى.

عندما اختفت ابتسامة «بريتويت» (يعني الاسم ذكاء الشطرنج)، وقف عن كرسيه. سيذرع غرفة أوسع جيئة وذهابا ـــ لم يكن الأمر ليحدث في هذا المكتب المبعثر. أدخل «غرادوس» الأبله الأزرار الثلاثة كلها في عرى معطفه الضيق، وحرك رأسه مرات عديدة.

قال بنبرة رعناء طائشة: «أعتقد أن على المرء أن يكون نزيها. إذا جئتك بهذه الأوراق القيّمة، لا بد أن ترتب لي مقابلة في المقابل، أو تمدني بعنوانه على الأقل.»

صرخ «بريتويت» وهو يشير إليه بأصبعه: «أعرف من تكون. أنت مراسل! أرسلتك تلك الصحيفة الدنمركية الرخيصة التي توشك أن تخرجها من جيبك» (اضطرب «غرادوس» آليا لذلك وتجهم). «كنت آمل أن يكفوا عن مضايقتي! يا له من إزعاج بذيء! لا شيء عندك مقدس، لا السرطان، ولا المنفى، ولا الفخر بملك» (للأسف، ليست هذه حقيقة «غرادوس» وحده، بل له خلان في «أركادي» كذلك).

ظل «غرادوس» يحدق في حذائه الجديد ـــ البنّي الضارب إلى الحمرة بمقدمتيه المخرّمتين. ثمة سيارة إسعاف تشق طريقها نافدة الصبر، بصفارتها الإنذارية، عبر شوارع مظلمة في الأسفل على بعد ثلاثة طوابق. نفّس «بريتويت» عن انزعاجه برسائل الأسلاف الموضوعة على الطاولة. خطف الرزمة المرتبة بغلافها المنزوع، وألقى بها جميعاً في سلة الأوراق المهملة. سقط الخيط خارجها، قرب قدمي «غرادوس» الذي التقطه، وألحقه بـالكتابات.

قال «بريتويت» المسكين: «ارحل، من فضلك. أشعر بألم في أُرْبيتي، يدفعني إلى حافة الجنون. لم أنم منذ ثلاث ليال. أنتم الصحافيون عصبة عنيدة، لكني عنيد أيضاً. لن تعلم مني أبداً أي شيء عن ملكي. وداعا.»

أنصت عند صحن الدرج إلى وقع خطوات زائره، وهي تنزل وتبلغ باب المدخل الرئيسي. سمعه ينفتح وينغلق، ثم انطفأ على الفور ضوء الأدراج الآلي، رافقه صوت ركلة.

البيت ٢٨٧: تدمدمين وأنت تحزمين

الجذاذة (جذاذته الرابعة والعشرون التي يرد فيها هذا المقطع (الأبيات ٢٨٧ ــ ٢٩٩) مؤرخة بيوم ٧ يوليوز. أجد أسفل هذا التاريخ في مذكرتي الصغيرة هذه الخربشة: الطبيب «ألرت»، الثالثة والنصف بعد الزوال. شعرت ببعض التوتر، كما يفعل معظم الناس وهم يترقبون زيارة طبيب، وفكرت في أن أشتري شيئاً مسكنا في طريقي إليه ــ لأمنع النبض المتسارع من تضليل العلم الساذج. عثرت على القطرات التي أردت، حيث أخذت المشروب الفواح من الصيدلية، فرأيت وأنا أهمّ بالمغادرة آل «شايد» يخرجان من باب المتجر المجاور. كانت «سيبيل» تحمل حقيبة سفر جديدة. أبطلتْ الفكرةُ الرهيبةُ بأنهما ربما ذاهبان في عطلة صيف مفعولَ الدواء الذي ابتلعته للتو. يعتاد المرء بشدة على حياة أخرى تجري موازاة مع حياته حتى إن انحرافاً مفاجئاً في مسار القمر الصناعي الموازي يشعره بالذهول والخواء والغبن. ليس هذا فقط، فهو لم ينه بعد قصيدتـ«ـي»!

«هل تنويان السفر؟» سألت، وأنا أبتسم وأشير إلى الحقيبة.

رفعتها «سيبيل» إلى الأعلى من المقبضين، كأنها تمسك بأرنب، فتأملتها بعينيّ. قالت:

«نعم، في نهاية الشهر، بعد أن ينتهي «جون» من عمله.»

(القصيدة!)

«إلى أين، رجاء؟» (التفت نحو «جون»).

ألقى السيد «شايد» نظرة عجلى على السيدة «شايد»، فردّت نيابة عنه بطريقتها الحادة والمرتجلة المعتادة بأنهما لم يعرفا الوجهة بعد بالضبط ــ ربما تكون «وايومنغ» أو «يوتا» أو «مونتانا»، وربما سيستأجران كوخا في مكان ما على ارتفاع ستة آلاف أو سبعة آلاف قدم.

«بين الترمس والحور الرجراج»، قال الشاعر بوقار. (مستحضراً منظر المكان.)

بدأت أعد الارتفاع بالأمتار بصوت عالٍ، فوجدته عالياً جدّاً، لن يحتمله قلب «جون»، لكن «سيبيل» سحبته من الكمّ، مذكرة إياه بأن أمامهما المزيد من مشاغل التسوق. شعرت أنهما تركاني في علو يقع على نحو ألفي متر وتجشؤٍ بطعم النارديين.

لكن القدرَ ذا الأجنحة السوداء قد يبدي اهتماماً رائعاً أحياناً! بعد عشر دقائق، أخبرني الطبيب «أ.» ــ الذي عالج «شايد» أيضاً ــ بإسهاب بليد أن آل «شايد» استأجرا بيتاً في «سيدارن» بـ«يوتا» على حدود «إدومينغ»، بضيعة بعض أصدقائهما الذين سيسافرون إلى مكان آخر. توجهت من

عيادة الطبيب إلى وكالة أسفار. حصلت على خرائط وكتيبات. درستها. علمت أن ثمة، على سفح الجبل فوق «سيدارن»، تجمّعين أو ثلاثة من الأكواخ، فاستعجلت إرسال طلبي إلى مكتب مركز «سيدارن». بعد بضعة أيام، استأجرت لشهر غشت كوخا بدا، حسب الصور التي أرسلت، ضربا هجينا بين عزبة الموجيك ومأوى الـ»ز.»، لكن به حماما مبلّطا، وكراءه أغلى من قصرِ «الأبالاتشي». لم ننبس، لا أنا ولا آل «شايد»، ببنت شفة حول عنواننا الصيفي. لكني عرفت، وهما لم يعرفا، أنه هو نفسه. كلما اشتعلتُ غيظاً بسبب نية «سيبيل» الظاهرة في إخفائه عني، أراني أزداد عذوبة بظهوري المفاجئ بملابس «تيرولية» من خلف جلمود، وبابتسامة «جون» البلهاء لكن السارّة. لا بد أنني ارتكبت، خلال الأسبوعين اللذين تركت خلالهما شياطيني تملأ مرآتي السحرية لتطفح بتلك الأجراف الوردية والبنفسجية، والعرعر الأسود والطرقة الملتوية، والمريمية التي تتحول إلى عشب وزهور وارفة زرقاء، والحور الرجراج الشاحب مثل الموتى، وسلسلة لا نهائية من لقاءات «كينبوت» بسرواله القصير الأخضر مع صفوة من الشعراء ولفيف من زوجاتهم، خطأ فادحاً ما في تمائمي، لأن سفح الجبل جاف وكئيب، بينما بيت آل «هورلي» المتداعي عديم الحياة.

البيت ٢٩٣: هي

هي «هازل شايد»، ابنة الشاعر، رأت النور سنة ١٩٣٤، وماتت سنة ١٩٥٧ (انظر التعليق على البيتين ٢٣٠ و٣٤٧).

البيت ٣١٦: سكنت البيضاء حشيشة الأسنان غابتنا في ماي.

بصراحة، لست متأكدا مما تعنيه هذه الجملة. يعرّف معجمي «حشيشة الأسنان» بأنها «نوع من البقل الحرّيف»، واسم «البيضاء» بأنها أي «سلالة بيضاء خالصة من حيوانات المزرعة أو بعض الحشرات ذات الأجنحة الحرشفية.» ثمة مساعدة بسيطة تقدمها صيغة البيت البديلة المكتوبة على الهامش:

في غابات «فرجينيا»، تظهر الفراشات البيضاء في ماي

هي ربما شخصيات شعبية؟ أو جنّيات؟ أو فراشات الكرنب؟

البيت ٣١٩: بطة غياض

مجاز طريف. فبطة الغياض، وهي طائر ثرة ألوانه، زمردية وبنفسجية وحمراء، ذات وسوم سوداء وبيضاء، أجمل بشكل لا مثيل له من البجعة ذات الشأن المغالى فيه، ومن أي إوزة أفعوانية عنقها ذو ريش أصفر متسخ وأصابع متصلة بمطاط أشبه بالرجل الغواص.

على سبيل المصادفة، تعكس التسميات الشعبية للحيوانات الأمريكية العقول النفعية البسيطة لرواد جاهلين، حيث لم تكتسب بعد صبغة أسماء الوحيش الأوربية.

البيت ٣٣٤: لن يأتيها أبدا

«هل سيأتي من أجلي؟» تعودت على أن أتساءل، فأنتظر صديقاً للعب كرة الطاولة، أو أنتظر الكهل «جون شايد»، خلال بعض فترات الغسق البرتقالية والوردية.

البيت ٣٤٧: إسطبل قديم

كان هذا الإسطبل، أو الحظيرة بالأحرى، حيث حصلت «بعض الظواهر» في أكتوبر ١٩٥٦ (قبل بضعة شهور من وفاة «هازل شايد»)، في حوزة شخص يدعى «بول هانتسنر»، وهو مزارع غريب الأطوار من أصل ألماني، يزاول هوايات عتيقة، مثل تحنيط الحيوانات والعلاج بالأعشاب. رجع عبر خدعة ارتداد غريبة (وفق «شايد» الذي أحب أن يتحدث عنه ـــ كاننت تلك المرة الوحيدة التي أصبح فيها، صدفة، مملاً إلى حد ما!) إلى «الألمان الفضوليين» الذين أصبحوا قبل ثلاثة قرون آباء علماء الطبيعة العظام الأوائل. ورغم أنه رجل أُمّي لا معرفة له، حسب بعض المعايير الأكاديمية، بالأشياء النائية في الفضاء أو الزمان، فقد أحاط نفسه بشيء ما حيّ وعمليّ أبهج «جون شايد» أكثر من تشذيبات الضواحي في شعبة اللغة الإنجليزية. كان يحب، هو الذي أبدى عناية مرهفة في اختيار رفاق جولاته، أن يجهد في المشي رفقة الألماني النحيل الوقور، كل مساء من مساءين، على طريق الغابة إلى «دالويتش»، على امتداد حقول معارفه. كان يقدر «هانتسنر» بابتهاج، بالمعنى الصحيح للكلمة، لأنه يعرف «أسماء الأشياء» ـــ رغم أن بعض تلك الأسماء كانت بلا شك مسوخا محلية، أو تسميات ألمانية، أو محض تلفيقات افتعلها الوغد الهرم.

صار الآن يتمشى مع رفيق آخر. أتذكر بشكل شفاف ذات مساء مثالي عندما اتقد مُزَحاً ولعباً بكلمات ونوادر، قابلتها بأناقة بحكايات «زمبلا» والنفاذ بجلدي! وإذ كنا نمضي بمحاذاة غابة «دالويتش»، قاطعني ليشير إلى مغارة طبيعية بين الصخور المكسوة بالطحالب، على جانب الطريق أسفل شجرة القرانيا المزهرة. في هذا المكان كان يتوقف المزارع الطيب على الدوام. ذات مرة، صدف أن كان يرافقه ابنه الصغير، الذي أشار، وهو يعدو قربهما، إلى المكان وقال من باب الإخبار: «هنا يتبول أبي.» ثمة قصة أخرى، عديمة الفائدة، كانت تنتظرني على قمة التل، في مكان مربع تجتاحه نباتات السنفية والصقلاب والفرنونية، ويعج بالفراشات، ويتناقض

بحدة مع العيدان الذهبية المحيطة به. بعد أن رحلت زوجة «هانتسنر» (في نحو عام ١٩٥٠) وأخذت معها طفلهما، باع بيته الريفي (الذي حلت محله الآن قاعة سينما) وذهب ليعيش في المدينة. لكنه تعود أن يأخذ كيس نوم، في ليالي الصيف، إلى الإسطبل المنتصب في أقصى طرف الأرض التي ظلت في ملكيته، وهناك مات ذات ليلة.

كان ذلك الإسطبل ينتصب في المكان المعشوشب الذي كان «شايد» يلكزه بعكاز العمة «مود» المفضل. ذات مساء من أحد أيام السبت، ذهب إلى هناك طالب شاب موظف بإقامة الكلية، وبنت طائشة من بنات البلد، لغرض أو لآخر، حيث كانا يدردشان أو ينامان، عندما ارتعدت فرائصهما، وهما يسمعان أصواتا مجلجلة وأضواء محلقة أجبرتهما على الهروب في اتجاهين متعاكسين. لم يهتم أحد فعلاً بما دفعهما إلى الفرار ـــ أهو شبح غاضب أم ريفي منبوذ. لكن صحيفة ووردسميث غازيت (وهي «أقدم صحيفة طلابية في الولايات المتحدة الأمريكية) التقطت الحادث، وشرعت تنهشه مثل جرو عابث. زار المكانَ عدد ممن يزعمون أنهم متخصصون في الروحانيات. أخذت المسألة برمتها تنقلب، على نحو سافر للغاية، إلى مزحة، بمشاركة أشهر المزاحين في الكلية، حتى إن «شايد» شكا الأمر إلى السلطات، فكانت النتيجة أن هُدِّم الإسطبل عديم الفائدة، تفاديا لخطر الحريق.

غير أني حصلت من «جاين بـ.» على عدد كبير من المعلومات المختلفة تماماً والمحزنة بقدر أكبر ـــ التي فسرت لي لِمَ اعتقد صديقي أنه من المناسب أن يبهجني بالخبث الطلابي التافه، وأن يجعلني أيضاً نادما على أنني منعته من الوصول إلى النقطة التي كان يصر عليها بارتباك ووعي (لأنه لم يهتم أبداً، كما قلت في تعليق سابق، بالإشارة إلى ابنته الراحلة) بأن أترعتُ وقفة ترحيب، راوياً حدثاً استثنائياً من أحداث تاريخ جامعة «أونهافا». وقعت تلك الحادثة سنة البركة ١٨٧٦. لكن لنعد إلى «هازل شايد». عزمت على المضي في التحقيق في «الظواهر» بنفسها لأجل بحث («حول أي موضوع») يطلبه في درس علم النفس أستاذ ماكر يجمع معطيات حول «الأنماط العصابية الذاتية في صفوف الطلبة الأمريكية.» سمح لها والداها بأن تزور الإسطبل ليلاً شريطة أن ترافقها «جاين بـ.» ـــ التي خالاها عماد أمانة. ما كادت الفتاتان تصلان حتى هبت عاصفة بارقة على ملجئهما طيلة الليل، برعودها المزمجرة وبروقها الخاطفة التي استحال معها سماع أي أصوات أو رؤية أي أضواء في الداخل. لم تستسلم «هازل»، حيث طلبت بعد بضعة أيام من «جاين» أن ترافقها ثانية، لكن «جاين» رفضت. تقول لي إنها اقترحت أن يأتي التوأمان الأبيضان (فتيا الأخوية الطيبان اللذان قبل بهما آل «شايد») بدلا عنها. لكن «هازل» رفضت هذا الترتيب الجديد رفضاً قاطعاً. وبعد جدال مع والديها، أخذت مصباحها ومذكرتها، وانطلقت وحدها. قد يتخيل المرء ببساطة كيف أوجس آل «شايد» خيفة من عودة الشبح الضاج إلى المضايقة، لكن الطبيب «ساتن»، الرجل الحصيف على الدوام، أكد ـــ لا أعرف بناء على أي أساس ـــ أن الحالات، التي وجد فيها الشخص نفسه منخرطاً في صنف الاهتياجات نفسها بعد انقطاع دام ست سنوات، غير معروفة من الناحية العملية.

سمحت لي «جاين» بأن أستنسخ بعض ملاحظات «هازل» من النسخة المطبوعة من المذكرات التي كتبتها بسرعة حول المكان:

10.14 ليلا: الشروع في التحقيق.

10.23: أصوات كشط وخربشة

10.25: كانت بُقَيْعة ضوء خافت، بحجم شرشف صغير، ترفرف على الجدران القاتمة؛ والنوافذ المغلقة والأرضية تغير أماكنها؛ تتلكأ هنا وهناك، تتراقص صعودا ونزولا؛ بدت منتظرة في لعبة تحرش من أجل هجوم ممكن اجتنابه. اختفت.

10.37: ظهرت ثانية.

تتواصل المذكرات على امتداد صفحات، لكن يجب، لأسباب بيّنة، أن أمتنع عن تقديمها بحذافيرها في هذا التعليق. كانت هناك فترات توقف طويلة، و»خدوش وخربشات» مجددا، وعودة متكررة للدُّوَيْئِرة المضيئة. تحدثتْ عنها. لو سألتها شيئاً ما تراه سخيفاً للغاية («هل أنت أرواح نورانية؟»)، ستندفع جيئة وذهابا في نفي مغتبط. وعندما أرادت أن تقدم جوابا جديا على سؤال دقيق («هل أنت ميتة؟»)، صعدت ببطء كأنما ترغب في بلوغ أعلى ارتفاع من أجل سقطة جسيمة مؤكدة. كانت طيلة فترات زمنية وجيزة تجيب على الحروف الأبجدية التي تتلى عليها، بأن تظل جامدة حتى تنطق بالحرف، فتثب وثبة صغيرة تعبيراً عن الموافقة. لكن تلك الوثبات فترت شيئاً فشيئاً، حيث ترنحت الدويئرة مثل طفل متعب، بعد كلمتين تهجتهما ببطء، وزحفت أخيراً لتختفي في شق. فجأة، خرجت منه محلقة بحيوية مفرطة، وشرعت تحوم حول الجدران، متلهفة لاستئناف اللعبة. برز مزيج من كلمات متقطعة ومقاطع لفظية لا معنى، مما نجحت في النهاية أن تجمعه، في ملاحظاتها الدقيقة في صورة سطر قصير من مجموعة حروف بسيطة. أنسخها كما هي:

"pada ata lane pad not ogo old wart alan ther tale feur far rant lant tal told."

تصرح المُدَوّنة، في ملاحظاتها، أنها كانت مرغمة على أن تقرأ الحروف الأبجدية، أو تشرع في قراءتها على الأقل (ثمة رجحان رحيم في حرف «أ») ثمانين مرة، لكن منها سبع عشرة لم تثمر أي نتيجة. إذ لا يمكن أن تكون التقسيمات القائمة على مثل هذه الفواصل المتغيرة إلا اعتباطية بالأحرى؛ قد يعاد تركيب بعض هذه السفاسف ضمن وحدات معجمية أخرى من غير أن تعني شيئاً (مثلاً، «arrant» ،«her» ،«talent» ،«war»، الخ.). يبدو أن شبح الإسطبل قد عبر عن نفسه بصعوبة السُّباه البالغة أو نصف صحوة من نصف حلم ضُرِب بحد سيف نور على السقف، إنها كارثة عسكرية ذات عواقب كونية لا يمكن أن يصوغها بوضوح لسان عازف معقود. وفي هذه الحالة، رغبنا نحن أيضاً في إيجاز أسئلة القارئ أو شريك في الفراش، بالغوص ثانية في نعيم النسيان ـــ لو لم تحثنا قوة شيطانية على البحث عن رسم سري في التميمة.

812 صنف من رابط مضلل ما، وصنف

813 من نمط مترابط في اللعبة

أمقت هذه الألعاب، حيث تضطرب لها أفوادي بألم فظيع ـــ لكن احتملته بشجاعة وتأملت حتى النهاية، بصبر الشارح ونفوره اللامتناهيين، في المقاطع اللفظية المتقطعة في تقرير «هازل» بغية العثور على أدنى تلميح إلى قدر الفتاة المسكينة. لم أجد إشارة واحدة. إذ لا يفصح شبح «هانتسنر» الكهل، ولا مصباح يدوي لعابث نذل، ولا هستيريتها المتخيلة، عن أي شيء هنا من شأنه أن يفسر، وإن عن بُعْد، بوصفه يتضمن تحذيراً، أو له صلة ما بظروف وفاتها اللاحقة.

لربما كان تقرير «هازل» سيمتد أكثر لو لم يخضّ تجدد «الخربشة» أعصابها المتعبة فجأة ـــ كما قالت «جاين». ذلك أن دويئرة النور التي ظلت تحافظ، حتى الآن، على مسافتها، اندفعت بعنف إلى قدميها حتى كادت تسقط عن القُرمة التي اتخذتها مقعدا. صارت واعية على نحو غامر أنها وحيدة في رفقة كائن غير بيّنٍ، وربما شرير للغاية، حيث سارعت، بعدما اعترتها قشعريرة خلعت لوحي كتفيها، لتعود إلى الملاذ الفردوسي في حمى الليل المرصع بالنجوم. قادها ممر مشاة مألوف، بحركات مهدئة وبعض إشارات سلوى صغيرة أخرى (صرار متفرد، ضوء شارع وحيد) إلى البيت. توقفت وأطلقت ولولة هلع: ثمة نظام بقع قاتمة وشاحبة منعقدة في هيئة عجيبة، بزغ من مقعد الحديقة الذي أضاءه مصباح الشرفة للتو. ليست لدي أي فكرة عما يكون عليه متوسط الحرارة في ليلة من ليالي أكتوبر بـ«نيوواي»، لكن المرء يفاجأ بتعاظم قلق الوالد في الحالة الراهنة إلى الحد الذي يجعله يسهر في العراء بمنامة و»برنس الحمام» العسير على الوصف الذي ستحل محله هديتي لعيد الميلاد (انظر التعليق على البيت ١٨١).

ثمة دوماً ثلاث ليال في الحكايات الخرافية. ثمة في هذه الحكاية الخرافية الحزينة ليلة ثالثة أيضاً. إذ أرادت هذه المرة أن يشهد أبواها «النور الناطق» معها. لم تُحفَظ دقائق تلك الليلة الثالثة في الإسطبل، لكني أعرض على القارئ المشهد الموالي الذي أشعر أنه لا يمكن أن يكون بعيداً للغاية عن الحقيقة:

الإسطبل المسكون

ظلام مدلهم. تسمع أنفاس الأب والأم والابنة الهادئة في زوايا مختلفة. تمضي ثلاث دقائق.

الأب (للأم): هل تشعرين بالارتياح هناك؟

الأم: آه، همم: أكياس البطاطس هذه تجعل مثال...

الابنة (بقوة محرك بخاري): صه، صه!

تمضي خمس عشرة دقيقة في صمت. تشرع العين في تبيّن ثقوب ليلة زرقاء ونجمة واحدة في العتمة هنا وهناك.

الأم: أعتقد أن ذلك كان بطن أبيك ـــ لا شبحا.

الابنة (متشدقة): مضحك للغاية!

تنقضي خمس عشرة دقيقة أخرى. تنفس الأب، الغارق في أفكار عمله، نفسا محايدا.

الابنة: هل وجب أن نتنفس في كل مرة؟

تمضي خمس عشرة دقيقة.

الأم: ليقرصني الشبح لو خرخرت.

الابنة (تغالي في التوكيد على ضبط النفس): رجاء! رجاء، يا أمي!

يتنحنح الأب، لكنه يقرر ألا ينبس ببنت شفة.

تمضي اثنتا عشرة دقيقة أخرى.

الأم: هل يدرك أحدكما أنه ما يزال هناك بعض الفطائر بالكريمة في الثلاجة؟

طفح الكيل.

الابنة (منفجرة): لماذا يجب أن تفسدي كل شيء؟ لماذا يجب أن تفسدي كل شيء دائماً؟ لماذا لا تتركي الناس وحدهم؟ لا تلمسيني!

الأب: انظري الآن، يا «هازل»، لن تنبس الأم بأي كلمة أخرى، وسنواصل هذا الأمر ـــ لكن ها قد مضت ساعة ونحن جالسون هنا، وأخذ الوقت يتأخر.

تمضي دقيقتان. الحياة عديمة الأمل، والآخرة عديمة الرحمة. يسمع بكاء «هازل» في صمت في الظلام. يضيء «جون شايد» مصباحا. تشعل «سيبيل» سيجارة. فيرجأ اللقاء.

لم يعد النور أبداً، لكنه تلألأ ثانية في قصيدة قصيرة بعنوان «طبيعة الكهرباء»، أرسلها «جون شايد» إلى المجلة النيويوركية دو بو أند دو باترفلاي(38)، في وقت ما من سنة ١٩٥٨، لكنها لم تنشر إلا بعد وفاته:

الموتى، الموتى الوديعون ـــ من يدري؟

في أسلاك التنغستين يقيمون،

وعلى منضدة سريري تتوهج

عروس رجل آخر رحلت.

وربما يغمر «شكسبير» مدينة كاملة

بأضواء جلّى عن الحصر،

وتغوي روح «شيلي» الساطعة

العُثَثَ الشاحبة في ليلة بلا نجوم.

مصابيح الشوارع مرقمة، وربما العدد

تسعة وتسعون وتسعمائة

(تسطع بنور متلألئ للغاية عبر شجرة

خضراء للغاية) خليل من خلاني القدامى.

وعندما يتراقص فوق السهل الكَهِب

برق مفلوق، ربما تثوي

لوعات تيمورلنكيٍّ،

عجيج الطغاة تبلى في الجحيم.

يخبرنا العلم، بالمناسبة، أن الأرض لن تتداعى فحسب، بل ستتلاشى مثل شبح، لو زالت الكهرباء فجأة من العالم.

البيتان ٣٤٧ ــ ٣٤٨: قلبت الكلمات

مثال غريب من الأمثلة التي يقدمها والدها. إنني متأكد تماماً أنني أنا من لاحظت ذات يوم، عندما كنا نناقش «الكلمات المِرآتية»، (وأذكر سيماء اندهاش الشاعر) أن «» تقلب إلىspider toilest» إلى «T. S. Eliot»، و»redips«». لكن بعد هذا صحيح أيضاً أن «هازل شايد» كانت تشبهني في بعض النواحي.

الأبيات ٣٦٧ ــ ٣٧٠: الحين ــ قلم، ثانية ــ تشرح

في الكلام، قفّى «جون شايد»، بوصفه أمريكيا طيبا، «ثانية» مع «قلم»، لا مع «تشرح». فموضع هذه القوافي المتجاور لافت للنظر.

البيت ٣٧٦: قصيدة

أعتقد أنني أستطيع أن أخمن (في مغارتي الجبلية الخالية من الكتب) القصيدة المقصودة، لكني لن أرغب في تسمية مؤلفها من غير التحقق منها. على كل حال، أستنكر طعنات صديقي الغادرة في ظهر أبرز شعراء جيله.

البيتان ٣٧٦ ــ ٣٧٧: قيل في الأدب الإنجليزي إنها استبدلت هذه العبارة في المسودة بالصيغة الأكثر تعبيراً ــ والأكثر ترخيماً:

كان رئيس شعبتنا يخال رغم أنه قد تُرى أنها إشارة إلى الرجل (مهما كان) الذي شغل هذا المنصب عندما كانت «هازل شايد» طالبة، لا يمكن أن يُلام القارئ إذ أطلقها على «بول هـ.» الابن، الإداري الممتاز والباحث السخيف الذي ترأس الشعبة الإنجليزية في كلية «ووردسميث» منذ سنة ١٩٥٧. التقينا بين الحين والآخر (انظر التوطئة والتعليق على البيت ٨٩٤)، لكن ليس مرارا. كان رئيس الشعبة الإنجليزية التي انتميت إليها هو الأستاذ «ناتوشداغ» ــ «نيتوشكا»، كما كنا ننادي الرجل العزيز. بالتأكيد، لم يكن ينبغي أن تصير نوبات الشقيقة، التي أوجعتني مؤخراً لدرجة أنني انصرفت مرةً في منتصف سهرة موسيقية وجدت نفسي فيها جالساً جنب «بول هـ.» الابن، شأناً متعلقاً بأجنبي. بدا أنها صارت كذلك إلى حد كبير جدّاً. ظل يراقبني. ومباشرة بعد وفاة «جون شايد»، انتشرت رسالة منسوخة جاء مطلعها كما يلي:

يشعر العديد من أعضاء الشعبة الإنجليزية بقلق بالغ حول مصير قصيدة مخطوطة، أو أجزاء من قصيدة مخطوطة، خلفها الراحل «جون شايد». وقد وقعت المخطوطة بين يدي شخص ليس مؤهلا فحسب لمهمة تنقيحها، علما أنه ينتمي إلى شعبة أخرى، بل يعرف عنه أيضاً أنه يعاني خللا عقليا. إن المرء لَيتساءل عن بعض الإجراءات القانونية، الخ.

قد يتخذ «الإجراءاتَ القانونية»، بالطبع، شخصٌ آخر. ومهما يكن من أمر، فإن غضب المرء المشروع يسكنه الارتياح للمعرفة المسبقة أن الرجل النبيل الملتزم لن ينشغل كثيراً بمصير قصيدة صديقه بعد قراءة المقطع موضوع التعليق هنا. إذ أحب «ساوذي»(39) جرذا مشويا في وجبة العشاء ــ وهو أمر مضحك على نحو خاص بالنظر إلى الجرذان التي التهمت أُسقفه.

البيت ٣٨٤: كتاب حول البابا

عنوان هذا الكتاب، الذي يوجد في مكتبة أي كلية هو بركة سامية، وهي عبارة مستعارة من بيت بابوي، أذكره لكني لا أستطيع أن أقتبسه بدقة. إذ يعنى الكتاب أساساً بأسلوب البابا، لكنه يشتمل أيضاً على ملاحظات بليغة حول «مناقب عصره المتكلفة.»

البيتان ٣٨٥ ــ ٣٨٦: «جاين دين»، «بيت دين»

هما اسمان مستعاران جليان لشخصين بريئين. زرت «جاين بروفوست»، وأنا أمر بـ«شيكاغو» في غشت. وجدتها ما تزال عازبة. أرتني بعض الصور المسلية لابن عمّها وأصدقائه. قالت لي ــ ولا أملك أي سبب لأنكر كلماتها ــ أن «بيتر بروفوست» (الذي لطالما رغبت في اللقاء به، لكنه كان، للأسف، يبيع السيارات في «ديترويت») بالغ ربما قليلاً، لكنه لم يكذب بالتأكيد، وهو يشرح أنه كان ملزما بالوفاء بوعد قطعه لأحد أعز أصدقائه في الأخوية، وهو رياضي شاب متألق، لا يأمل المرء أن يكون «تكليله أقصر من تكليل فتاة.» لا ينبغي أن تعامل مثل هذه الالتزامات باستخفاف أو ترفع. قالت «جاين» إنها حاولت أن تكلم آل «شايد» بعد المأساة، وإنها كتبت رسالة طويلة في وقت لاحق إلى «سيبيل» من غير أن تتوصل منها أبداً بأي رد. قلتُ مبرزاً عبارة دارجة مما شرعت مؤخراً في تعلمه: «إنك تخبرينني!»

البيتان ٤٠٣ ــ ٤٠٤: إنها الثامنة والربع. [وهنا تشعب الزمن.]

ابتداء من هنا إلى البيت ٤٧٤، تتعاقب تيمتان في ترتيب تزامني هما: التلفاز في ردهة آل «شايد» وإعادة عرض، إن جاز التعبير، أفعال «هازل» (المشار إليها آنفا) منذ لحظة لقاء «بيتر» بموعده الخادع (٤٠٦ ــ ٤٠٧) واعتذاره عن مغادرته السريعة (٤٢٦ ــ ٤٢٨) إلى ركوب «هازل» الحافلة (٤٤٥ ــ ٤٤٧ و٤٥٧ ــ ٤٦٠)، انتهاء إلى عثور الحارس على جثتها (٤٧٤ ــ ٤٧٧). إذ طبعتُ تيمة «هازل» بحروف مائلة.

تذهلني المسألة برمتها، كونها متكلفة وطويلة للغاية، علما أن «فلوبير» و«جويس» استنفدا إعمال أداة المزامنة من قبل. ما عدا ذلك، فالنمط بديع.

البيت ٤٠٨: يد رجل

في اليوم العاشر من يوليوز، يوم كتب «جون شايد» هذا، وربما في الدقيقة ذاتها التي بدأ فيها استعمال الجذاذة المفهرسة الثالثة والثلاثين الخاصة بالأبيات ٤٠٦ ــ ٤١٦، كان «غرادوس» يقود سيارة مستأجرة من جنيف إلى «ليكس» حيث كان «أودن» يخلد للراحة، حسبما عرف، بعدما أكمل فيلمه السينمائي، بفيلا صديق أمريكي قديم، هو «جوزيف س. لافاندر»

(الاسم مشتق من «لوندري»، لا من «لاند»(40). قيل لكائدنا اللامع إن «جو لافاندر» جمع صوراً من صنف فني يسمى في الفرنسية بـ«الظلال المكللة بالنور». ولم يُخبَر بطبيعة هذه الصور بالضبط، فاستبعدها ذهنيا بوصفها «أباجورات ذات مناظر طبيعية». كانت خطته القميئة تقتضي أن يقدم نفسه بوصفه وكيل تاجر فنون من «ستراسبورغ»، ثم أن يحاول، خلال الشرب مع «لافاندر» وضيوف بيته، التقاط أدلة عن مكان وجود الملك. لم يأخذ في الحسبان أن «دونالد أودن» سيستنتج مباشرة، بحسه المطلق تجاه مثل هذه الأمور، من طريقة «غرادوس» في عرض كفّه الفارغ قبل المصافحة أو انحناءة خفيفة بعد كل رشفة وحيل سلوكية أخرى (لم يلحظها «غرادوس» نفسه عند الناس، وإن اكتسبها منهم)، بحيث أنه عاش بالتأكيد زمناً طويلاً، مهما كان مكان ميلاده، في بيئة «زمبلية» وضيعة؛ ومن ثمة، عاش جاسوسا أو أسوأ. كما لم يدرك «غرادوس» أن «الظلال المكللة بالنور» التي جمعها «لافاندر» (وأنا متأكد أن «جو» لن يمتعض من هذا التهور) أدغمت جمالا باهرا بمواضيع بذيئة للغاية ـــ عراة بين أشجار التين، صبوات مفرطة، أرداف تفيء ظلالا خفيفة، وكذا رقطة من مفاتن أنثوية.

حاول «غرادوس، من فندقه في جنيف، الاتصال بـ«لافاندر» عبر الهاتف، لكن قيل له إنه لن يتمكن من مكالمته قبل الظهيرة. عند الظهيرة، كان «غرادوس» في الطريق إليه، حيث هاتفه ثانية، من «مونترو» هذه المرة. كان «لافاندر» قد تلقى الرسالة، إذ سيزوره السيد «دوغري» وقت تناول الشاي. تغذى بمقهى على ضفة البحيرة، انطلق في نزهة، استفسر عن سعر زرافة بلورية صغيرة في متجر تذكارات، اقتنى صحيفة، قرأها على مقعد، ثم واصل طريقه. عند مشارف «ليكس»، ضل طريقه بين ممرات ملتوية شديدة الانحدار. عندما توقف أعلى مزرعة عنب، عند مدخل ماحل لبيت غير مكتمل، دلّته ثلاث سبابات لثلاثة بنائين على السطح الأحمر لفيلا «لافاندر» في أعلى المرتفع الأخضر على الجانب الآخر من الطريق. قرر أن يترك سيارته ويتسلق الأدراج الحجرية لما بدا أشبه بطريق مختصر سهل. بينما كان يجاهد في صعود الطريق المحفوف بالجدران، وعينه على رأس شجرة حور، تارة تخفي السطح الأحمر في قمة المرتفع، وتارة تنجلي عنه، تسللت الشمس من بقعة ضعيفة بين الغيوم الماطرة، ثم اتسعت فتحة زرقاء مخرمة تنفذ عبرها لتصبح دائرة مشعة. استشعر عبء ورائحة سترته البنية الجديدة التي اقتناها من متجر في «كوبنهاغن»، والتي سرعان ما انكمش ثوبها. كان يلهث، ويراجع ساعته اليدوية، ويروح عن نفسه بقبعته، الجديدة أيضاً، عندما بلغ أخيراً الملتقى المتفرع عن الطريق المتعرج الذي تركه وراءه في الأسفل. عبره، وسار عبر بويْب، صاعداً ممرّاً ملتوياً مفروشاً بالحصى، فوجد نفسه أمام فيلا «لافاندر». كُتب اسمها، «ليبيتينا»، بخطٍّ متصل فوق نافذة من النوافذ الشمالية المشبّكة، تشكلت حروفه من سلك أسود، والنقاط فوق كل حرف أو أسفله حيكت بذكاء بواسطة رأس مقيَّر لمسمار مشمع بالطباشير، دُقَّ في الواجهة البيضاء. كان «غرادوس» قد لاحظ هذه الحيلة وشبابيك نوافذ الواجهة الشمالية، من قبل، في الفيلات السويسرية، لكن الحصانة من التلميح الكلاسيكي حرمه من المتعة التي كانت ستتولد عنده ربما من إشادة «لافاندر» المرحة الرهيبة بإلهة الجثث والمقابر الرومانية. لفت انتباهَه شيءٌ آخر؛ إذ انبعثت من نافذة في الزاوية رنات بيانو، ضجيج موسيقى صاخبة أوحت له لسبب غريب، كما سيخبرني بذلك لاحقاً، باحتمال لم يفكر فيه، ودفعه إلى أن يطير بيده إلى جيبه الخلفي، كأنما يتهيأ للقاء، لا «لافاندر»، ولا

«أودن»، بل ذلك المنشد الموهوب «تشارلز» المحبوب. توقفت الموسيقى ما إن تردد «غرادوس»، الذي أربكه شكل البيت الغريب، أمام شرفة زجاجية. خرج خادم مسنّ يرتدي زيا أخضر من باب جانبي أخضر، وقاده إلى مدخل آخر. سأله «غرادوس»، مظهرا لامبالاة لم تتحسن رغم مثابرته في تكرارها، بفرنسية متوسطة في البداية، ثم بإنجليزية أسوأ، وبألمانية جيدة، عما إذا كان يقيم في البيت ضيوف كثر. لكن الرجل اكتفى بابتسامة، وانحنى مقدما إياه إلى داخل قاعة الموسيقى. اختفى الموسيقي. مازالت ثمة ذبذبة أشبه برنين قيثارة تنبعث من البيانو الضخم الذي وضع فوقه زوج صندل خاص بالشاطئ، كأنما يقفان على حافة بركة زنبق. نهضت سيدة نحيفة متلألئة بالسَّبَج بعناد من مقعد قرب النافذة، وقدمت نفسها بأنها مربية ابن أخ السيد «لافاندر». عبر «غرادوس» عن توقه لرؤية مجموعة «لافاندر» المثيرة؛ كان هذا النعت يحدد على نحو موفق صور ممارسة الحب في البساتين. لكن المربية (التي ظل الملك يناديها بالآنسة «بيل»، بدل الآنسة «بود»، بالنظر إلى وجهها المبتهج) سارعت إلى الاعتراف بجهلها التام بهوايات وكنوز مشغِّلها. اقترحت على الزائر أن يلقي نظرة على الحديقة. قالت: «سيريك «غوردن» زهوره المفضلة»، ثم توجهت بالنداء إلى الغرفة المجاورة: ««غوردن»!» ظهر فتى نحيف، لكن قوي البنية، في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، دبغته الشمس بلون رحيقي. كان متثاقلا بالأحرى. لم يكن يرتدي شيئاً، ما عدا مئزراً مرقطاً مثل نمر. كان شعره القصير ذا مسحة فاتحة أكثر من بشرته؛ وجهه الحيواني الصبوح يكتسي سحنة عابسة وماكرة في آن. لم يلحظ كائدنا المنشغل أي تفصيل من هذه التفاصيل، ولم يشعر سوى بانطباع عام بالسفاهة. قالت الآنسة «بود»: ««غوردن» أعجوبة في الموسيقى»، فأجفل الفتى. «يا «غوردن»، هلا أطلعت هذا الرجل النبيل على الحديقة؟» أذعن لها الفتى، مضيفاً أنه سيغطس غطسة ما لم يعترض أحد على ذلك. ارتدى صندله وقاد الرجل إلى الخارج. عبر النور والظلال سار الثنائي الغريب: الفتى الرشيق الذي يكلل خاصرتيه باللبلاب، والقاتل البذيء ببذلته البنية الرخيصة وصحيفة مطوية ناتئة من جيب سترته الأيسر.

قال «غوردن»: «تلك هي المغارة. ذات مرة، قضيت الليل هناك رفقة صديق.» ألقى «غرادوس» نظرة لامبالية إلى الغار المكسو بالطحالب حيث قد يرى المرء حَشِيّة قابلة للطي ذات بقعة داكنة على نايلونها البرتقالي. أطبق الفتى شفتين متعطشتين على أنبوب ماء ينبوع، ومسح يديه المبللتين في تبان سباحته الأسود. راجع «غرادوس» ساعته اليدوية. واصلا نزهتهما. قال «غوردن»: «لم تر شيئاً بعد.»

رغم أن البيت كان مزودا بست خزانات ماء على الأقل، إلا أن السيد «لافاندر»، المولع بذكرى مزرعة جده في «ديلاوير»، أقام كنيفاً ريفيّاً أسفل أطول شجرة حور في حديقته الخلابة، حيث ينزع من موقد غرفة البلياردو المجاورة المريحة، لأجل صفوة ضيوف ممن يمكنهم حس الدعابة من تحمل الأمر، وسادةً على شكل قلب، جميلة الطرز، ليحملوها معهم إلى كرسي العرش.

انفتح الباب، على واجهته الداخلية خربشت يد فتى بالفحم: كان الملك هنا.

لاحظ «غرادوس» بضحكة متكلفة: «تلك بطاقة زيارة رائعة. بالمناسبة، أين هو الآن هذا الملك؟»

قال الفتى وهو يضرب خاصرتيه المكسوتين بسروال أبيض خاص بلعبة كرة المضرب: «من يدري؟ حدث ذلك العام الماضي. أظن أنه توجه إلى «كوت دازور»، لكني لست متأكدا.»

كذب العزيز «غوردن»، وهو ما كان لطفا منه. كان يعرف حق المعرفة أن صديقه المحترم لم يعد في أوربا، لكن ما كان ينبغي للعزيز «غوردن» أن يثير مسألة الـ»ريفييرا» التي تصادف أنها صحيحة، والتي دفعت «غرادوس»، الذي كان على علم بأن الملكة «ديزا» امتلكت قصرا هناك، إلى أن يصفع جبهته في ذهنه.

وصلا الآن إلى المسبح. تراخى «غرادوس»، الغارق في تفكير عميق، على مقعد محشو بالخيش. عليه أن يبرق إلى القيادة العامة فورا. لا حاجة لتمديد هذه الزيارة. من جانب آخر، قد يثير رحيله المفاجئ الشكوك. صرّ المقعد تحته، فنظر حوله بحثا عن مقعد آخر. أغمض الفتى البدائي الآن عينيه، وتمدد مستلقيا على حافة المسبح الرخامية؛ ألقى مئزره الطرزاني جانباً على العشب. بصق «غرادوس» تعبيراً عن الاشمئزاز، وسار عائداً إلى البيت. في الآن ذاته، ركض نحوه الخادم المسن نازلا من أدراج الشرفة، ليخبره بثلاث لغات بأنه مطلوب على الهاتف. لم يستطع السيد «لافاندر» المجيء في النهاية، لكنه يود الحديث إلى السيد «دوغري». ساد الصمت بعد تبادل المجاملات، ثم سأل «لافاندر»: «هل أنت متأكد أنك لست متلصصاً وسخا من تلك الخِرقة الفرنسية؟» «ماذا؟» قال «غرادوس»، وهو ينطق الكلمة الأخيرة «فاذا». «متلصص وسخ ابن عاهرة؟» أنهى «غرادوس» المكالمة.

عاد إلى سيارته، فسلك طريقاً أعلى على سفح التل. من شَرَم الطريق ذاته، عاين الملك المويجات المتلألئة في بحيرة جنيف، ذات يوم ضبابي وضاح من أيام شتنبر، بينما الخيط الفضي المائل الأول يعبر الفضاء بين عمودي درابزين، ولاحظ خريرها النشيدي المتجاوب وتوهج الفزاعات القصديرية في مزارع الكروم على سفح التل. استطاع «غرادوس»، عندما وقف هناك ونظر منكّد المزاج نحو الأسفل إلى القرميد الأحمر في فيلا «لافاندر» الآمنة بين أشجارها الحامية، أن يبصر، مستعينا ببعض أفضل ما عنده من خبرات، جزءاً من العشب وجانباً من المسبح، بل وأن يميز زوجاً من صندل على حافته الرخامية ـــ وهو كل ما بقي من نرسيس. يفترض المرء أنه تساءل ربما أنه لا غرو من التسكع في المكان قليلاً ليتأكد من أنه لم يتعرض للخديعة. تصاعد من الأسفل السحيق صليل مطارق في ورشة بناء بعيدة، ومرّ قطار مفاجئ بين الحدائق، وتجاوزت فراشة مبشرة سوداء، ذات خطوط حمراء محلقة القهقرى، الحاجز الحجري، وتناول «جون شايد» جذاذة جديدة.

البيت ٤١٣: جاءت حورية تتهادى

تشتمل المسودة على صيغة أخف وزنا وأكثر غنائية:

حورية تتهادى ٤١٣

الأبيات ٤١٧ ـــ ٤٢١: صعدت إلى الطابق العلوي، الخ.

تظهر المسودة صيغة مهمة:

لذت بالطابق العلوي عند النشاز الأول في عزف الجاز

وقرأت مسودة الطبع: «أبيات مثل

«انظر المتسول الأعمى يرقص، والمشلول يغني،

والسكير بطلا، والمعتوه ملكا»

طعم زمانهم الجبان.» ثم جاءت مكالمتك

هذا مأخوذ، بالطبع، من كتاب البابا مقالة حول الإنسان. لا يعرف المرء ما الذي يدعو إلى التساؤل أكثر: أهو عجز البابا عن إيجاد كلمة أحادية المقطع لتعويض «بطل» («رجل» مثلا) حتى ينزل أداة التعريف قبل الكلمة الموالية، أم استبدال «شايد» مقتطفا رائعاً بالنص النهائي الأكثر ترهلا؟ أما أنه خشي الإساءة إلى ملك أصيل؟ لم أتمكن أبداً، من خلال إمعان النظر في الماضي القريب، من التحقق على نحو استعادي مما إذا كان قد «خمَّن سرّي» فعلاً، كما لاحظ ذات مرة (انظر التعليق على البيت ٩٩١).

البيتان ٤٢٥ ـــ ٤٢٦: خلف «فروست» (ذي الخطوة النازّة)

الإحالة بالطبع على «روبرت فروست» (ولد سنة ١٨٧٤). يعرض البيت واحدة من تلك التوليفات بين التورية والاستعارة التي يجيدها شاعرنا. ففي بيانات الشعر الحرارية، يصير المرتفع منخفضا،

والمنخفض مرتفعا، بحيث تصبح الدرجة التي ينتج عنها التبلور المثالي أعلى من درجة الدائرة الفاترة. هذا ما يقوله شاعرنا المتواضع، في الواقع، عن جوّ شهرته الخاصة.

و»فروست» هو مؤلف واحدة من أعظم القصائد القصيرة في اللغة الإنجليزية، قصيدة يحفظها كل فتى أمريكي عن ظهر قلب، وهي عن الغابات الشتوية والغسق الكئيب، وأجراس الحصان الصغيرة الخاصة بالتنبيه الكيّس في الجو المظلم الأغبش، وتلك النهاية المدهشة والمؤثرة ـــ قوامها بيتان أخيران متماثلان في كل مقطع لفظي، لكن الأول شخصي وفيزيقي، والثاني ميتافيزيقي وكوني. لا أجرؤ على اقتباسهما من الذاكرة مخافة أن أغير موضع كلمة ثمينة صغيرة.

لم يتمكن «جون شايد» أبداً، بكل ما أوتي من مواهبه البديعة، من أن يجعل ندفه الثلجية تستقر بتلك الطريقة.

البيتان ٤٣١ ـــ ٤٣٢: ليلة مارس... المصابيح الأمامية من بعيد تقترب

لاحظوا كيف تندمج تيمة التلفاز بدقة، في هذا الموضع، مع تيمة الفتاة (انظر البيت ٤٤٥، مزيد من المصابيح في الضباب...).

البيتان ٤٣٣ ـــ ٤٣٤: نحو البحر... الذي زرناه سنة ثلاث وثلاثين

في سنة ١٩٣٣، كان الأمير «تشارلز» في الثامنة عشرة من عمره، و»ديزا» دوقة «باين» في الخامسة. يقصد بهذا التلميح مدينة «نيس» (انظر التعليق على البيت ٢٤٠) حيث قضى آل «شايد» الجزء الأول من ذلك العام. لكني لست، هنا ثانية، في موقع من يملك التفاصيل، فيما يتعلق بجوانب رائعة عديدة من حياة صديقي الماضية (على من يقع اللوم، يا عزيزتي «س. ش.؟)، ولا من يقول إنهما بلغا الرأس التركي من قبل أم لا، خلال نزهات محتملة على طول الشاطئ، ولمحا من الممر المحفوف بالدفلى، المفتوح دوماً أمام السياح، الفيلا ذات المعمار الإيطالي التي شيدها جد الملكة «ديزا» سنة ١٩٠٨، وسماها حينها بـفيلا باراديسو، أو فيلا باراديسا باللغة «الزمبلية»، ليسقط لاحقاً الشق الأول من اسمها إجلالا لحفيدته المفضلة. هناك أمضت الأصياف الخمسة عشر الأولى من حياتها؛ وإلى هناك عادت سنة ١٩٥٣، «لأسباب صحية» (كما ترسخ الخبر في أذهان الأمة)، إنما كملكة منفية في الواقع؛ وهناك ما تزال تقيم.

عندما اندلعت الثورة «الزمبلية» (يوم فاتح ماي ١٩٥٨)، كتبت إلى الملك رسالة جياشة بإنجليزية الحاضنة، تحثه على المجيء والبقاء معها إلى أن يهدأ الوضع. اعترضت شرطةُ «أونهافا» الرسالة، وترجمها إلى «زمبلية» فجّة عضو هندوسي في الحزب المتطرف، ثم قرأها آمر القصر الأخرق بصوت مرتفع ونبرة تتصنع السخرية على مسمع الأسير الملكي. حدث أن تلك الرسالة تضمنت جملة عاطفية واحدة ـــ واحدة فقط، حمداً للرب: «أريدك أن تعرف أنك مهما جرحتني، فإنك لا تستطيع أن تجرح حبي»، وهذه الجملة (لو أعدنا ترجمتها من «الزمبلية» إلى الإنجليزية) جاءت كما يلي: «أشتهيك وأحبك عندما تجلدني.» قاطع الآمر، ناعتا إياه بالمهرج والمارق،

وشاتما كل المحيطين به بعنف رهيب جدّاً، بحيث أرغم المتطرفين على أن يقرروا بسرعة ما إذا كانوا سيطلقون عليه النار فوراً أو يسمحوا له بالحصول على الرسالة الأصل.

نجح، في نهاية المطاف، في أن يخبرها أنه مسجون في القصر. غادرت «ديزا» المقدامة الـ»ريفييرا» على عجل، وشرعت في محاولة رومانسية لكن عقيمة، لحسن الحظ، قصد العودة إلى «زمبلا». لو سمح لها بالنزول إلى البر، لسجنت على الفور، ولأثر ذلك في هروب الملك، مضاعفا مصاعب الفرار. إذ أوقفت رسالة من «الكارليين» تتضمن هذه الاعتبارات البسيطة في «استوكهولم»، حيث طارت عائدة إلى مقبعها، في حالة إحباط وحنق (أظن أساساً أن ذلك بسبب أنها تسلمتْ الرسالة من أحد أبناء أخوالها، هو الكهل الطيب «كوردي باف» الذي تمقته). مضت أسابيع عديدة. سرعان ما تكدر مزاجها أكثر بسبب شائعات تفيد أن زوجها قد يحكم عليه بالإعدام. غادرت الرأس التركي ثانية. سافرت إلى «بروكسيل»، واستأجرت طائرة لتطير شمالا، عندما وصلتها رسالة أخرى، من «أودن» هذه المرة، يقول فيها إنه والملك غادرا «زمبلا»، وإنها مطالبة بأن تعود مطمئنة إلى فيلا «ديزا»، وأن تنتظر هناك أخبارا أخرى. في خريف العام ذاته، أخبرها «لافاندر» أن رجلا يمثل زوجها سيزورها لمناقشة بعض أمور الأعمال، تهم الأملاك التي امتلكتها في الخارج بالاشتراك مع زوجها. كانت منكبة، في الشرفة أسفل شجرة الجاكرندا، على كتابة رسالة حزينة إلى «لافاندر»، عندما تقدم الزائر الطويل، الملتحي ذو الرأس الحليق، الذي كان يراقبها من بعيد عبر أكاليل الظلال، بباقة زهر الآلهة(41). رفعت عينيها ـــ لم تكن تضع، بالطبع، أي نظارات أو أي مستحضر تجميل قد يخدعها للحظة.

زارها مرتين منذ رحيلها الأخير من «زمبلا»، آخرها قبل سنتين. في غضون ذلك الزمن، اكتسب جمالها ذو البشرة الباهتة والشعَر الداكن ألقاً جديداً وناضجاً وكئيباً. في «زمبلا» حيث أغلب النساء شقراوات منمشات، نردد مقولة: «على كل امرأة جميلة أن تكون أشبه بدائرة رياح عاجية ذات أجزاء أبنوسية أربعة.» وكانت تلك الخطة الأنيقة التي اتبعتها الطبيعة في حالة «ديزا». كان ثمة شيء آخر، شيء لم أكن لأدركه إلا عندما قرأت نار شاحبة، أو قرأتها ثانية بالأحرى بعد أن انقشعت غشاوة الخذلان المريرة اللاذعة الأولى أمام عيني. أفكر في الأبيات ٢٦١ ـــ ٢٦٧ التي يصف فيها «جون شايد» زوجته. لحظة رسم ذلك البورتريه الشعري، كانت المرأة المثالية الجالسة أمامه تبلغ من العمر ضعفي عمر الملكة «ديزا». لا أريد أن أتوخى الابتذال في تناول هذه المسائل الحرجة، لكن تبقى الحقيقة أن «شايد» الكهل البالغ من العمر ستين عاماً يضفي هنا على مجايلته المصون جدّاً الصورة الملكوتية والأبدية التي تحتفظ بها، أو يجب أن تحتفظ بها، في قلبه الشهم الطيب. أما الأمر الطريف في ذلك، فهو أن «ديزا» حملت في سن الثلاثين، عندما رآها آخر مرة خلال شتنبر
١٩٥٨، شبها فريدا، لا بالسيدة «شايد»، طبعا، كما كانت عندما التقيت بها، وإنما بالصورة المؤمثلة والمنمقة التي رسمها الشاعر في تلك الأبيات من نار شاحبة. في الواقع، لم تكن مؤمثلة ومنمقة سوى في نظر المرأة الأكبر سنا؛ أما في نظر الملكة «ديزا»، كما بدت في ذلك الصباح في تلك الشرفة الزرقاء، فقد كان الشبه واضحاً بلا تنميق. أنا واثق أن القارئ سيستحب غرابة هذا

الأمر، لأنه إن لم يفعل، فلا معنى لكتابة القصائد، أو التعليقات على القصائد، أو أي شيء آخر البتة.

كما بدت أكثر هدوءاً من ذي قبل، فتحسن تمالكها لنفسها. انتابتها، خلال اللقاءات السابقة، وعلى امتداد حياتهما الزوجية في «زمبلا»، نوبات مزاجية رهيبة. عندما رغب، في سنوات الزواج الأولى، في أن ينبري لتلك الحرائق والانفجارات، محاولاً أن يدفعها إلى أن تلقي نظرة عقلانية على آفتها، أدرك أنها كانت مزعجة للغاية؛ لكنه تعلم تدريجيا أن ينتفع منها، واحتفى بها كونها تمنحه فرصة التخلص من حضورها طيلة فترات زمنية ممتدة، لا بدعوتها إلى العودة بعد صفق سلسلة من الأبواب المتباعدة بشكل أكبر، أو بتركه هو نفسه القصر ليلجأ إلى مخبأ قروي ما.

حاول جاهدا، في بداية زواجهما الفاجع، أن يتملكها، لكن دون جدوى. أخبرها أنه لم يمارس الحب أبداً من قبل (وهذا كان أمراً صحيحاً تماماً بقدر ما لا يعني الغرض الخفي سوى أمر واحد)، وهو ما أرغمه على تحمل السخرية من أن تتخذ عفتها البارة على نحو إلزامي مظاهر سلوك مومس مع شاب صغير أو كهل كبير في السن. قال شيئاً بذلك المعنى (أساساً لينفس عن عذابه)، فأقدمت على مشهد سافر. أفرط في تناول المواد المهيّجة للشهوة، لكن الطبائع السالفة لجنسها المشؤوم ظلت تنفره على نحو قدري. ذات ليلة، عندما جرّب شاي النمر، وانتعشت الآمال كثيراً، ارتكب خطأ باستجدائها الامتثال لذريعة أخطأت في استنكارها بوصفها تنافي الطبيعة وتثير الاشمئزاز. في الأخير، أخبرها أن حادثة قديمة ناتجة عن ركوب الخيل أعجزته، لكن الأكيد أنه سيستعيد فحولته بفضل رحلة بحرية رفقة خلانه والإكثار من العوم في البحر.

فقدت أبويها معاً في الآونة الأخيرة، ولم يكن لها أي صديق حميم تعود إليه طلبا للاستفسار والنصيحة عندما بلغتها الشائعات التي لا مفر منها؛ وهي أمور كانت فخورة للغاية بأن تناقشها مع وصيفاتها، لكنها قرأت الكتب واكتشفت كل شيء عن العادات «الزمبلية» الرجالية، فأخفت أساها الساذج تحت عرض عظيم لحذلقة هازئة. هنأها على سلوكها، حيث أقسم بإجلال أنه أقلع، أو سيقلع على الأقل، عن ممارسات شبابه. لكن إغراءات قوية انتصبت تغويه في كل مكان على طول الطريق. استسلم لها بين الفينة والأخرى، ثم كل يومين، فعدة مرات في اليوم ـــ خاصة خلال النظام الصارم لـ»هارفار»، بارون «شالكسبور»، وهو شاب شرس ذو موهبة مذهلة (لقبه العائلي «نايفز فارم»، الذي يعني «مزرعة الخادم»، هو اشتقاق مأخوذ على الأرجح من «شكسبير»). كان لـ»كوردي باف» ـــ كما لقَّب «هارفار» المعجبون به ـــ رفقة واسعة من البهلوانيين والفرسان الذين يمتطون خيولا غير مسرجة، فانفلتت الأمور كلها من يده؛ ذلك أن «ديزا» وجدت القصر، عند عودتها المباغتة من رحلة إلى السويد، قد انقلب إلى سيرك. وعد ثانية، فأخلف مجددا، ثم وقع مرة أخرى رغم تستره الفائق. في الأخير، انتقلت إلى الـ»ريفييرا»، تاركة إياه يتسلى مع عصبة من التوابع ذوي الأصوات الرخيمة والياقات من نوع «إيتون» المستوردة من إنجلترا.

ما حد المشاعر التي كان يكنّها لـ»ديزا»؟ لامبالاة ودية واحترام بارد. لم يشعر تجاهها بأي رقة أو إثارة، حتى في ميعة زواجهما الأولى. أما العطف والشجَن، فغير واردين. كان، وظل على الدوام، مستهترا متحجر القلب. لكن قلب ذاته الحالمة تغير تغيرات رائعة، قبل الانفصال وبعده.

هام بها في دنيا الحلم أحياناً، بعاطفة لا مثيل لها، أحلاما أكبر مما سمحت بها أحاسيسه الظاهرة. كانت هذه الأحلام تحصل متى فكر فيها ولو وهلة قصيرة؛ فتحمل الأشجان، التي لا صلة بها بأي حال، صورتها إلى العالم الباطني مثلما يصبح عراك أو ترميم كأنه طائر عجيب في حكاية أطفال. صيّرت هذه الأحلام التي تفطر قلبه النثر الباحث حول أحاسيسه تجاهها شعراً متيناً ونادراً، تومض مويجاته الخامدة وتستبد به طيلة النهار، فتعود به إلى الأسى والترف ـــ ثم وحده الأسى، ثم وحده انعكاسه العابر ـــ لكن من غير أن تؤثر البتة في سلوكه تجاه «ديزا» الحقيقية.

أخذت صورتها، إذ كانت تقتحم منامه وتعود إليه ثانية، وتنهض متوجسة من أريكة بعيدة أو تذهب بحثا عن المبعوث الذي اخترق الستائر، كما قالوا، في الحسبان تغييرات الموضة. لكن «ديزا» صاحبة الفستان الذي رآه في صيف انفجار مصانع الزجاج، أو يوم الأحد الأخير، أو أي وقت بغرفة الانتظار، بقيت إلى الأبد تماماً كما بدت يوم أخبرها أول مرة أنه لم يحبها. حدث ذلك خلال رحلة إلى إيطاليا، بحديقة فندق على ضفة بحيرة ـــ حيث الورود وشجر الأروكاريا والكوبية الخضراء الذابلة ـــ ذات مساء صحو، بينما تسبح الجبال المطلة على الضفة البعيدة في ضباب الغروب، وتتنمنم البحيرة الخوخية اللون كلها بانتظام بزرقة باهتة، وتعرض جريدة عناوينها البارزة في الأسفل الموحل قرب الضفة الصخرية، تبدو حروفها واضحة تماماً عبر طبقة الطين الضحل الشفاف. ولأنها عندما سمعته، خرّت على الحديقة في وضع مستحيل، مدققة في غريسة عشب ومقطبة وجهها، سحب كلماته على الفور. لكن الصدمة رصعت المرآة حتماً، فتأثرت صورتُها في أحلامه، منذ ذلك الحين فصاعداً، بذاكرة ذلك الاعتراف، كأنما أصابتها عدوى مرض أو الآثار الخفية اللاحقة لعملية جراحية حميمة للغاية لا يؤتى على ذكرها.

كان جوهر الحلم، بدل حبكته الفعلية، نفيا مستمرا لكونه لا يحبها. تجاوز حلمه ـــ حبه لها، في نبرته العاطفية، في شغفه وعمقه الروحي، أي شيء آخر اختبره في وجوده الظاهر. صار هذا الحب أشبه بليٍّ سرمدي بالأيدي، مثل تخبط الروح في متاهة لامتناهية من اليأس والندم. كانت، إلى حد ما، أحلاما عاشقة، لأنها مشبعة بالرقة، بالتوق إلى أن يغوص برأسه في حضنها ويبكي الماضي الشنيع. كانت مترعة بالوعي المرعب بأنها امرأة في ريعان الشباب، لكنها عاجزة للغاية. كانت أطهر من حياته. لم يكن ما بها من هالة شهوانية نابعاً منها، بل من أولئك اللواتي خانها معهن ـــ «فرينيا» ذات الذقن الزغب، «تيماندرا» الجميلة بتلك الفورة تحت مئزرها ـــ ومع ذلك، ظل الزبد الجنسي ثاويا في مكان ما أعلى بكثير من الكنز المغمور، فلم يعبأ به تماماً. كان يحدث أن يرى قريباً غامضاً بعيداً جدّاً بحيث يبدو عمليّاً بلا ملامح يقترب منها. كانت تخفي ما بيدها بسرعة، فتمد يدها المقوسة إليه ليقبلها. كان يعرف أنها صادفت للتو أمارة كاشفة ـــ حذاء ركوب الخيل في سريره ـــ تثبت خيانته بلا أدنى شك. كان العرق يقطر من جبينها الشاحب

المكشوف ـــ لكن كان عليها أن تنصت إلى ثرثرة زائر عابر أو توجه حركات عامل صاحب سلّم يهز رأسه ويرفع بصره كأنه يحمله بذراعيه حتى النافذة المكسورة. قد يتحمل المرء ـــ قد يتحمل حالم قوي عديم الرحمة ـــ درايته بشجنها وكبريائها، لكن لا أحد يستطيع أن يتحمل رؤية ابتسامتها العفوية إذ تنقلب من عذاب البوح إلى جزئيات الكياسة المطلوبة منها. كان عليها أن تطفئ نورا، أو تناقش رئيسة الممرضات حول أغطية المستشفى، أو تطلب فحسب فطوراً لشخصين في مغارة البحر ـــ فكان يدرك، هو الحالم المتألم، عبر بساطة الحديث اليومي، عبر لعبة الإيماءات الفاتنة التي أرفقتها دوماً ببعض العبارات الجاهزة، اضطراب روحها. صار واعيا أن محنة شنيعة، مخزية، غير مستوجبة أصابتها، وأن التزامات الكياسة وحدها وحَدَبَها الثابت على طرف بريء ثالث منحاها القدرة على التبسم. ما إن يرى المرء النور يشع على وجهها، حتى يحدس أنه سيتلاشى بعد لحظة، ليحل محلّه ـــ حالما يرحل الزائر ـــ ذلك العبوس الضئيل المستحيل الذي لم يفلح الحالم في أن ينساه أبداً. يساعدها ثانية لتقف على قدميها على العشب ذاته على ضفة البحيرة، بينما أطراف البحيرة تلائم نفسها في الفضاءات بين أعمدة الدرابزين المرتفعة، فينطلق هو وهي حينها، يمشيان جنباً إلى جنب على طول ممشى مجهول، ثم يشعر أنها تنظر إليه من زاوية ابتسامة واهنة، لكنها اختفت، عندما أجبر نفسه على مواجهتها بذلك البريق الاستفهامي. تغير كل شيء، فأصبح الجميع سعيداً. كان عليه حتماً أن يجدها على الفور ليخبرها أنه يهيم بها وِجْدا، لكن الجمهور الغفير أمامه كان يفصله عن الباب، بينما التدوينات التي كانت تصله عبر سلسلة من الأيدي تقول إنها غير موجودة؛ وإنها كانت تشعل نارا؛ وإنها تزوجت رجل أعمال أمريكي؛ وإنها أصبحت شخصية في رواية؛ وإنها ماتت.

لم تزعجه مثل هذه الهواجس ما إن جلس الآن في شرفة فيلّتها وروى لها فراره الناجح من القصر. استمتعت بوصفه الممر الأرضي الواصل بالمسرح، وحاولت أن تتصور الزحف المرح عبر الجبال؛ لكن استاءت من الجزء المتعلق بـ«غار» كأنما آثرت، على نحو مفارق، أن يذوق بعض السُّلوة المريئة مع الفتاة البغي. قالت له بجفاء أن يقفز على هذه الفواصل، فانحنى لها انحناءة قصيرة مضحكة. لكن عندما شرع يناقش الوضع السياسي (إذ عين جنرالان سوفياتيان مستشارين أجنبيين في حكومة المتطرفين)، شعت عيناها بسيماء فارغة مألوفة. الآن وقد غادر البلاد سالما، قد يغرق مجموع «زمبلا» الزرقاء برمتها، من رأس «إمبلا» إلى خليج «إمبْلَم»، في البحر، لأنها لم تعد مبالية. إذ أقلقها فقدانه الوزن أكثر من فقدانه مملكة. ظلت تسأل بلا مبالاة عن درر التاج. كشف لها عن مخبئها النادر، فذابت في مرح بناتي كما لم تفعل منذ سنوات. قال: «لدي بعض الأمور التجارية أود مناقشتها. وهناك بعض الوثائق التي يجب أن توقعيها.» سرت مكالمة في العريش في خيط الهاتف الصاعد مع الورود. جاءت إحدى وصيفاتها السابقات، «فلور دو فايلر» الخاملة والأنيقة (البالغة الآن أربعين عاماً، والذابلة)، التي ما تزال تضع اللآلئ على شعرها الأسود الداكن والوشاح الأبيض التقليدي، ببعض الوثائق من مخدع «ديزا». عندما سمعت «فلور» صوت الملك الشجي خلف شجيرات الرند، عرفته قبل أن يضللها بقناعه المحكم. ظهر خادمان، غريبان شابان وسيمان من جنس لاتيني ظاهر، يحملان الشاي، فأدركا «فلور» تنحني أمامه تحية واحتراما. هبّ نسيم مفاجئ بين شجيرات البُلَيْعة، فتساقطت أزهارها الذابلة. سأل «فلور» ما إن استدارت لتذهب حاملة سحلبيات «ديزا» عما إذا كانت ما تزال تعزف على

الكمان. هزت رأسها مرات عديدة، إذ لم ترغب في الكلام دون مخاطبته، ولم تجرؤ على فعل ذلك بينما قد يكون الخادمان على مرمى السمع.

صارا منفردين ثانية. عثرت «ديزا» بسرعة على الوثائق التي كان يحتاجها. حالما انتهيا منها، تحدثا برهة حول أشياء تافهة جميلة، مثل فيلم أسطورة «زمبلية»، كان «أودن» يأمل أن يصوره في باريس أو روما. تساءلا كيف سيصور الـ»نارستران»، تلك القاعة الجحيمية حيث تتعذب أرواح القتلة برذاذ منتظم من سمّ تنين يتطاير من سرداب ضبابي. على العموم، كانت المقابلة تجري بطريقة مُرْضية للغاية ـــ رغم أن أصابعها ارتجفت قليلاً عندما لامست يدها مسند كرسيه. حذار الآن.

سألت: «ما خططك؟ لِمَ لا تمكث هنا قدر ما تشاء؟ ابْقَ، رجاء. سأسافر إلى روما قريباً، سيكون البيت كله لك وحدك. تخيل، يمكنك أن تستضيف هنا ما يصل إلى أربعين ضيفاً، أربعين لصّاً عربيّاً.» (أثر الأصص الطينية الضخمة في الحديقة.)

أجاب أنه ذاهب إلى أمريكا في وقت ما خلال الشهر المقبل، وأن أمامه بعض الأعمال في باريس خلال اليوم التالي.

لماذا أمريكا؟ ماذا سيفعل هناك؟

سيدرِّس. سيتدارس روائع أدبية مع شباب لامعين وآسرين. وهي هواية بمقدوره الآن الانغماس فيها بحرية.

غمغمت وهي تنظر بعيداً: «وبالطبع، لا أعرف. لا أعرف، لكن إذا كنت ربما لا تعترض على الأمر، فقد أزور نيويورك ـــ أقصد، لمدة أسبوع أو اثنين فقط، ليس هذا العام، بل العام المقبل.»

أثنى على سترتها الفضية المتلألئة. واصلت مصرة: «حسناً؟» «وتسريحة شعرك جذابة أكثر.» أنّت قائلة: «آه، ما أهمية ذلك؟ فيم يفيد أي شيء على وجه الأرض؟» همس مبتسما: «يجب أن أرحل»، ثم قام. قالت: «قبلني.» بدت للحظة بين أحضانه مثل دمية قماش متهدلة ومرتعشة.

سار نحو البوابة. التفت عند منعطف الطريق، ورأى في البعيد قوامها الأبيض، الذي التمع على نحو فاتر بأسى لا يوصف، منحنيا على طاولة الحديقة. فجأة، انتصب جسر هش بين اللامبالاة اليقِظة وحبّ الحلم. لكنها غيرت مكانها، ورأى أنها لم تكن هي، وإنما فقط المسكينة «فلور دو فايلر» تجمع الوثائق المتروكة بين أواني الشاي. (انظر التعليق على البيت ٨٠.)

عندما كنا نتجول ذات مساء خلال ماي أو يونيو ١٩٥٩، أعطيت «شايد» كل هذه المادة المدهشة، فنظر إليّ بفضول، ثم قال: «كل هذا جيد، يا «تشارلز». لكن هناك سؤالين فقط. كيف يمكنك أن تعرف أن كل هذه الأمور الحميمية حول ملكك الرهيب بالأحرى صحيحة؟ وإذا كانت كذلك، كيف يمكن للمرء أن يأمل في طبع مثل هذه الأشياء الشخصية حول أناس يحتمل أنهم ما يزالون على قيد الحياة؟»

رددتُ بلطف وإلحاف: «يا عزيزي «جون»، لا تنشغل بالتفاهات. ما إن تصيّر هذه المادة شعرا، حتى تصبح صحيحة، ويصير الناس أحياء. إذ لا يمكن لحقيقة الشاعر المهذبة أن تسبب أي ألم أو إساءة. فالفن الحقيقي يسمو فوق الشرف الزائف.»

قال «شايد»: «طبعا، بالتأكيد. يمكن أن ننظم الكلمات مثلما نصنع براغيث ونجعلها تجتذب براغيث أخرى. آه، بالتأكيد.»

واصلت ونحن ننزل الطريق نحو غروب شاسع: «وفضلا عن ذلك، بمجرد أن تصبح قصيدتك جاهزة، وبمجرد أن ينصهر مجد «زمبلا» مع مجد قصيدتك، فإنني أنوي أن أبوح لك بحقيقة أخيرة، بسر استثنائي سيريح ضميرك تماماً.»

البيت ٤٦٩: مسدسه

تساءل «غرادوس»، وهو عائد إلى جنيف، متى سيصبح قادراً على استعمال ذلك المسدس. كان الأصيل حارا على نحو لا يطاق. غطّت البحيرةَ قِشرةٌ فضية ومسحة انعكاس سحابة عاصفة وشيكة. كان بمقدوره، كما العديد من الزَّجَّاجين الكهول، أن يستشف بالأحرى حرارة الماء بدقة من بعض مؤشرات اللمعان والحركة، إذ يقدر الآن أنها تصل إلى ٢٣ درجة على الأقل. ما إن عاد إلى فندقه حتى أجرى مكالمة خارجية إلى مقر القيادة العامة. تبين أنها كانت تجربة فظيعة. أجرى المتآمرون مكالمات هاتفية، مفترضين أنها لن تثير انتباها كبيراً بلغة خلف الستائر الحديدية ، بالإنجليزية ـــ بإنجليزية رديئة، على وجه التدقيق، بصيغة فعلية واحدة، بلا أداة تعريف، وبنطقين خاطئين معاً. فضلا عن ذلك، فاقموا صعوبة التواصل بشكل فادح، باتباعهم هذا النظام الماكر (المبتكر في بلد الستائر الحديدية الرئيسي) الذي يستخدم مصفوفتين من الكلمات المشفرة ـــ كأن تقول القيادة، مثلاً، «المكتب» تعبيراً عن «الملك»، فيقول «غرادوس» «رسالة». في الأخير، نسي كل طرف معنى بعض العبارات الخاصة بمعجم الطرف الثاني، مما أدى في النهاية بمكالماتهم المعقدة والباهظة إلى خلْط الحِجا بسباق حواجز في الظلام. اعتقدت القيادة العامة أنها فهمت أنها قد تحصل على رسائل الملك التي تكشف مكان وجوده باقتحام فيلا «ديزا» ونهب مكتب الملكة. شعر «غرادوس»، الذي لم يقل أي شيء من هذا القبيل، لكنه حاول فقط أن ينقل

نتائج زيارته إلى «ليكس»، بالانزعاج وهو يعلم أن عليه أن ينتظر وصول شحنة من السلمون المعلب إلى جنيف، بدل البحث عن الملك في «نيس». غير أن أمراً واحداً بدا جليّاً: عليه في المرة المقبلة ألا يتصل بالهاتف، بل أن يرسل برقية أو رسالة.

البيت ٤٧٠: زنجي

كنا نتحدث ذات يوم حول التحامل . تصادف في وقت سابق، خلال الغذاء بنادي الكلية، أن ضيف الأستاذ «هـ»، وهو شيخ متقاعد من «بوستن» ـــ وصفه مضيفه باحترام متأصل بأنه «نبيل قح، وبرهمي حقيقي تجري في عروقه دماء زرقاء» (كان جدّ البرهمي يبيع الحمالات في «بلفاست») ـــ كان يقول بصورة طبيعية وبشوشة تماماً، تلميحاً إلى أصول رجل غير ساحر كثيراً، حديث العهد بمكتبة الكلية: «أدرك أنه واحد من الشعب المختار» (نطق بشهقة قصيرة تنم عن ارتياح ممتع)؛ فعقب عليه الأستاذ المساعد «ميشا غوردن»، وهو موسيقي أحمر الشعر، بصراحة: «بالطبع، قد يختار الرب شعبه، لكن وجب أن ينتقي الرجل عباراته.»

وإذ كنا عائدين، أنا وصديقي، إلى قصرينا المتجاورين، تحت هذا الصنف من مطر أبريل الخفيف الذي يسميه في قصيدة من قصائده الغنائية:

رسم سريع للربيع بقلم الرصاص

قال «شايد» إن أشد ما يمقته على الأرض هو الابتذال والوحشية، وإن المرء ليجد الاثنين مجتمعين بصورة مثالية في التحامل العرقي. قال إنه لم يسعه سوى أن يفضل «اليهودي» على «العبري» و»الزنجي» على «الملون»، لكنه أضاف مباشرة أن طريقة التلميح هذه إلى وجهين من التحامل في لحظة واحدة كان مثالاً جيداً ينم عن المماثلة الرعناء أو الديماغوجية (التي يستغلها اليساريون كثيراً) بما أنها محت التمييز بين جحيمين تاريخيين: الاضطهاد الشيطاني وتقاليد العبودية الهمجية. من ناحية أخرى، (اعترف أن) دموع جميع البشر الذين تعرضوا لمعاملة سيئة، عبر ويلات كل العصور، كانت متساوية رياضيا؛ وربما لم يتوهم المرء كثيراً (كما ظن) في اقتفاء أثر تشابه عائلي (انشداد الخياشيم
مثل القرد، تبلد العينين المقرف) بين منفذ الإعدام صاحب الحزام الأصفر الفاقع ومعادي السامية المتصوف عندما يجدان نفسيهما تحت تأثير هواجسهما الأثيرة. قلت إن بستانيا زنجيا شابا (انظر التعليق على البيت ٩٩٨) استأجرته في الآونة الأخيرة ـــ بعيد طرد نزيل لا ينسى (انظر التوطئة) ـــ استعمل كلمة «ملون» دائماً. اعترض بشدة (لاحظ «شايد»)، بما أنه يجيد استعمال الكلمات القديمة والحديثة، على ذلك النعت، لا لأنه خادع من الناحية الفنية فحسب، وإنما أيضاً لأن معناه اعتمد كثيراً على الاستعمال والمستعمِل. (سلَّم بأن) العديد من الزنوج الأكفاء اعتبروها الكلمة المبجلة الوحيدة، المحايدة من الناحية العاطفية وغير المسيئة من الناحية الأخلاقية، إذ أجبرت

موافقتهم عليها غير الزنوج الموقرين على الاحتذاء بمثالهم، بينما لا يحب الشعراء أن يحذوا حذو أحد؛ لكن المهذبين يعشقون الموافقات، وهم يستخدمون الآن عبارة «الرجل الملون» بدل «زنجي»، مثلما يستخدمون «حاسر» بدل «عاري» أو «رشح» بدل «عرق»، رغم أن هناك بالطبع أوقاتا (كما اعترف) رحب فيها الشاعر بغمّازة ورك مرمري في كلمة «حاسر» أو لؤلؤة مناسبة في كلمة «رشح». كما سمع أحدهم أن المتحاملين استخدموه (واصل) كتعبير هزلي ملطف في طرفة حول الزنوج عندما يروي «النبيل الملوّن» شيئاً مضحكاً أو يفعله (أخ غير منتظر هنا «للنبيل العبري» في الروايات الفكتورية القصيرة).

لم أستوعب جيداً اعتراضه الفني على كلمة «ملوّن». إذ شرح ذلك على النحو الآتي: ظهرت الصور في الكتب العلمية الأولى حول الأزهار والطيور والفراشات وغير ذلك مرسومة بأيدي مهرة في الرسم الزيتي. وبقيت الرسوم على بعض اللوحات في منشورات معيبة أو مبتسرة. فغالبا ما تذكر شاعري تجاور عبارتي «الرجل الأبيض» و»الرجل الملون»، بصورة ملحة للغاية جعلته يبعد معناهما المقبولين، بتلك الأشكال التي يتوق المرء أن يملأها بألوانها المناسبة ـــ الأخضر والأرجواني في نبات غريب، الأزرق الخالص في ريشة، الخط الغرنوقي في جناح مخرّم. «فضلا عن ذلك [قال] لسنا، نحن البيض، بيضاً البتة، بل بنفسجيون عند الميلاد، ثم نكتسب لونا ورديا أشبه بالشاي، وتظهر علينا لاحقاً جميع الألوان الشنيعة.»

البيت ٤٧٥: حارس، الأب الزمان

على القارئ أن يلاحظ الجواب المهذب على البيت ٣١٢.

البيت ٤٩٠: «إكس»

من الواضح أن «إكس» تعني «إكستن»، وهي مدينة صناعية تقع في الضفة الجنوبية لبحيرة «أوميغا». بها متحف شهير للغاية للتاريخ الطبيعي ذو معارض عديدة تحتوي على طيور جمعها وأعدّها «صامويل شايد».

البيت ٤٩٣: أنهت حياتها اليافعة التعيسة.

ليس التعليق التالي تبريراً للانتحار ـــ إنه الوصف البسيط والرصين لوضع روحي.

كلما انجلى إيمان المرء بالعناية الإلهية وصار غامرا، زادت غواية تجاوزه، بحكاية الحياة هذه، وعظم أيضاً خوفه من الخطيئة الرهيبة التي يضمرها تدمير الذات. لننظر أولا في الغواية. يستلزم

كل مفهوم دقيق لأي شكل من أشكال الحياة الآخرة، حتماً ولزوماً، درجة معينة من الإيمان بالعناية الإلهية، كما نناقشه مليا في سياق آخر من هذا التعليق (انظر
التعليق على البيت ٥٤٩)؛ في المقابل، تفترض العقيدة المسيحية العميقة بعض الإيمان بنوع من البقاء الروحي. إذ لا تحتاج رؤية ذلك البقاء إلى أن تكون رؤية عقلانية؛ أي ليست في حاجة إلى أن تقدم الملامح الدقيقة للأوهام الشخصية أو المناخ العام لحديقة شرقية شبه استوائية. في الواقع، يتعلم «الزمبلي» المسيحي الطيب أن الإيمان الحقيقي لا يوجد لكي يغذي الصور أو الخرائط، لكن ينبغي أن يكون مكتفياً في حد ذاته بسديم دافئ من الحدس الممتع. لنأخذ مثالاً بسيطاً: تتأهب عائلة «كريستوفر» الصغير لتهاجر إلى مستعمرة بعيدة حيث عُيّن والده في منصب مدى الحياة. يعول «كريستوفر» الصغير، وهو فتى هش في سن التاسعة أو العاشرة، كلية (كلية في الواقع حتى إنه يطمس الوعي ذاته بهذا التعويل) على والديه لترتيب جميع تفاصيل الرحيل والعبور والوصول. لا يستطيع أن يتخيل، ولا يحاول أن يتخيل، الجوانب الخاصة في المكان الجديد الذي ينتظره، لكنه مقتنع على نحو غامض ومريح أنه سيكون أفضل بالأحرى من منزله، بشجرة السنديان الكبيرة، والجبل، ومهره، والحديقة، والإسطبل، و»غريم» العريس الكهل، الذي يلاطفه بطريقته متى لم يكن هناك أحد في محيطه.

يجب أن نمتلك أيضاً بعضاً من هذه الثقة البسيطة. عندما يستظل كيان المرء بهذا الغيم الرباني من الاتكال الكلي، فلا عجب أن تستميله الغواية، لا عجب أن يزن بكفه بابتسامة حالمة السلاح الناري المنضد في غمده المصنوع من جلد الغزال، الذي يكاد لا يزيد عن حجم مفتاح باب قصر أو محفظة صبي رثة، لا عجب أن ينظر من الحاجز إلى هاوية مغرية.

أختار هذه الصور عرَضاً بالأحرى. هناك أصوليون يدّعون أن الرجل النبيل يجب أن يستخدم مسدسيْن، واحداً لكل صُدغ، أو «بوتكينا»(42) عارياً (لاحظ التهجية الصحيحة)، وأن السيدات ينبغي إما أن يبتلعن جرعة قاتلة وإما أن يغرقن في «أوفيليا» خرقاء. لقد فضل بعض البشر المتواضعين أشكال اختناق متعددة، وجّرب شعراء مغمورون لحظات انعتاق متخيلة مثل شق الوريد في الحوض المربع لحمام فندق مفتوح على تيارات الهواء. كل هذا مثير للريبة ومتسم بالقذارة. فمن الطرق الكثيرة المعروفة في سفك الجسد، يعد السقوط، السقوط، السقوط النهج السامي، لكن عليك أن تختار جرفك أو حافّتك بعناية دقيقة جدّاً حتى لا تؤذي نفسك أو الآخرين. إذ ليس القفز من جسر عالٍ بالأمر المستحسن، وإن كنت لا تحسن السباحة، لأن الرياح والمياه تكثر في حالات الطوارئ الغريبة، ولا ينبغي أن تبلغ المأساة ذروتها بغوص قياسي أو ترقية شرطي. وإذا استأجرت حجرة في الطابق الأرضي المضاء، أو الغرفة ١٩١٥ أو ١٩٥٩، داخل فندق مركز تجاري شاهق يلامس غبار النجوم، وفتحت النافذة، لا تسقط، ولا تقفز ـــ بلطف، لكن تدحرج إلى الخارج كما ينبغي أن تفعل عندما تريد أن تستنشق الهواء، لأن ذلك يحيط به دوماً خطر ارتطامك، في رحلتك إلى الجحيم، بمسالم مسرنم يقود كلبه في نزهة. في هذا الصدد، من شأن غرفة خلفية أن تكون أكثر أمانا، خاصة إذا كانت تطل على سطح بيت عتيق عادي صلب في الأسفل البعيد حيث تكون واثقاً من أن قطّاً عابراً سيمرق بسرعة من طريقك. ثمة نقطة انطلاق شعبي آخر هو قمة الجبل بهوة سحيقة، لنقل إن طولها خمسمائة متر، لكن يجب أن تجدها، لأنك

ستفاجأ بمدى سهولة أن تسيء تقدير زاوية انحدارك، وأن تتوقع سقطة مكتومة، أن تنتأ صخرة حمقاء إلى الأمام لتتلقفك، فترمي بك نحو الأغصان، خائباً وممزقاً وحيّاً بلا لزوم. أما السقوط المثالي، فيبقى من طائرة، حيث تسترخي عضلاتك، ويحار ربانك، وتنزع مظلتك الموضبة، تتخلص منها وتستخف بها ـــ وداعاً «شوتكا» (السقطة الصغرى)! تهوي إلى الأسفل، لكن تشعر معلقاً وطافياً طوال الوقت وأنت تتشقلب في حركة بطيئة مثل حمام بهلوان نعسان، وتتمدد مضطجعاً على لحاف الهواء، أو تنقلب متكاسلاً لتحتضن وسادتك، مستمتعاً بكل لحظة أخيرة من الحياة الناعمة الغامضة المبطنة بالموت، بخضرة الأرض
التي تتأرجح نحو الأعلى تارة، ونحو الأسفل تارة ثانية، والصلب الشهواني وأنت تمد ذراعيك في غمرة الاندفاع المتسارع، في الهفيف الوشيك، ثم في انمحاق جسدك المحبوب في حضن الرب. لو كنتُ شاعراً، لنظمت بالتأكيد قصيدة تتغنى بالرغبة العذبة في إغماض العينين، ولاستسلمت كلية لسكينة الموت المنشود المثالية. يستشعر المرء بنشوة رحابة الحضن الإلهي تشمل روحه المحررة، والحمّام الدافئ لتحلل جسده، والمجهول الكوني يغمر المجهول الصغير الذي كان الجزء الواقعي الوحيد من شخصيته المؤقتة.

عندما تعبد الروح من يرشدها عبر الحياة الفانية، عندما تميز إشارته في كل منعطف في الطريق، مرسومة على جلمود ومنقوشة على جذع تنوب، عندما تحمل كل صفحة في كتاب قدر المرء الشخصي علامته المائية، فكيف يمكن أن يشك أنه سيحتفظ بنا كذلك طوال الأبدية؟

إذا ما الذي يمنع المرء من تحقيق الانتقال؟ ما الذي يمكن أن يساعدنا على مقاومة الغواية الشديدة؟ ما الذي قد يمنعنا من الانقياد للرغبة الحارقة في الاتحاد بالرب؟

قد نستحق نحن الذين نتمرغ في القذارة كل يوم أن نُعذَر على الخطيئة الوحيدة التي تنهي ربما جميع الخطايا.

البيت ٥٠١: الـ»إف» (L»if)

هو الطقسوس باللغة الفرنسية. من الطريف أن الكلمة «الزمبلية» التي تشير إلى الصفصاف الباكي هي أيضاً الـ»إف».

البيت ٥٠٢: البطاطا الكبيرة

تلاعب سيء بالكلمات، وُضِع عن قصد في هذه الكتابة المنقوشة للتأكيد على غياب احترام الموت. أذكر من أيام دراستي «الكلمات الأخيرة» التي يزعم أنها لـ»رابلي»، من بين شذرات ساطعة

أخرى في كرّاس فرنسي ما: أنا ذاهب للبحث عن الاحتمال الكبير.

البيت ٥٠٢: م. تـ. آ.

يمنعني الذوق السليم وقانون التشهير من كشف الاسم الحقيقي لهذا المعهد المحترم للفلسفة العليا، الذي ينثر حوله شاعرنا الكثير من الأوهام الهازئة في هذه القطعة. تمد حروفه الأولى، HP، »، إذ يحاكي «شايد» هذه الصيغة بدقة بتركيبتيهPhi ـــ Hi الطلاب بالشكل المختصر « If»، أو «IPH«». وهو يقع، في موقع جذاب للغاية، في جنوب غرب الولاية التي يجب أن تبقى مجهولة الاسم هنا.

وأنا مرغم أيضاً على أن أبدي رفضي الشديد للوقاحة التي يعالج بها شاعرنا، في هذه القطعة، بعض جوانب الأمل الروحي الذي لا يمكن أن يحققه سوى الدين وحده (انظر التعليق على البيت ٥٤٩).

البيت ٥٤٩: إذ نبذ الآلهة، بما فيها الإله الكبير

هنا يكمن بالفعل جوهر المسألة. وهذا ما لم يدركه، في اعتقادي، ليس المعهد وحده (انظر البيت ٥١٧)، بل شاعرنا نفسه أيضاً. ففي نظر المسيحي، لا يمكن القبول بالماوراء من غير مشاركة الرب في مصيرنا الأبدي، حيث يستلزم هذا الأمر بدوره عقابا عادلا لكل خطيئة، كبيرة أم صغيرة. وقد صادف أن مذكرتي تشتمل على بعض الخربشات التي تشير إلى حديث دار بيني وبين الشاعر يوم ٢٣ يونيو «على شرفتي بعد لعبة شطرنج انتهت بالتعادل.» أنسخها هنا فقط لأنها تسلط ضوءاً ساحراً على موقفه من الموضوع.

ذكرتُ بعض الاختلافات ـــ لا أتذكر في أي مناسبة ـــ بين كنيستي وكنيسته. جدير بالإشارة إلى أن دمغتنا «الزمبلية» من البروتستانتية وثيقة الصلة بالأحرى بالكنائس «العليا» في الاتحاد الأنغليكاني، لكنها تتسم ببعض الميزات الرائعة الخاصة بها. ترأس الإصلاح عندنا ملحن عبقري، حيث اخترقت قداسنا موسيقى غنية، وصارت جوقات فتياننا هي الأحلى في العالم. ولدت «سيبيل شايد» لأسرة كاثوليكية، لكنها صاغت لنفسها، كما أخبرتني بنفسها، «ديناً خاصّاً بها» منذ طفولتها المبكرة، ديناً يرادف عموماً، في أفضل الأحوال، الارتباط الفاتر بطائفة شبه وثنية ما أو بإلحاد فاتر، في أسوئها. لم تفطم زوجها فحسب عن كنيسة آبائه الأسقفية، بل عن جميع أشكال العبادة المقدّسة.

حدث أن أخذنا نتكلم عن السديمية العامة الراهنة لمفهوم «الخطيئة»، وعن خلطه بمثال «الجريمة» الملوّن بالشهوانية إلى حد كبير جدّاً، فلمّحتُ بإيجاز إلى صلاتي خلال الطفولة ببعض طقوس كنيستنا. فالاعتراف عندنا سمعي، يتم في خلوة ثري زخرفها، حيث يقف المعترف، حاملاً شمعة مشتعلة، جنب مقعد الكاهن المرتفع المسنود الذي صيغ على شكل عرش تتويج ملك اسكتلندي تقريباً. خشيت دوماً، أنا الذي كنت فتى صغيراً مهذبا، أن ألطخ ردنه الأرجواني الأسود بقطرات الشمع الحارقة التي تظل تقطر على مفاصلي، مكونة هناك قشيرات صلبة. كنت مفتونا بالتقعر المضاء في أذنه الأشبه بصَدَفَة أو سحلبية لامعة، وعاء ملتف بدا أرحب كثيراً لتطرح فيه هفواتي.

«شايد»: الخطايا السبع القاتلة هي هفوات، لكن لولا ثلاث منها، هي الكبرياء والشهوة والكسل، لما ولد الشعر أبداً.

«كينبوت»: هل من العدل أن تبنى هذه الاعتراضات على مصطلحات قديمة؟

«شايد»: جميع الديانات مبنية على مصطلحات مندرسة.

«كينبوت»: ما نصطلح عليه بـالخطيئة الأصلية لن تندرس أبداً.

«شايد»: لا أعرف الشيء الكثير عن ذلك. في الواقع، عندما كنت صغيراً، اعتقدت أن المقصود بها قتل قابيل أخيه هابيل. شخصيا، أنا أؤيد مدمني النشوق: يولد الإنسان صالحاً(43).

«كينبوت»: إلا أن عصيان الإرادة الإلهية هو تعريف أساس للخطيئة.

«شايد»: لا أستطيع أن أعصي شيئاً لا أعرفه، وواقعه الذي يحق لي أن أنكره.

«كينبوت»: أف! هل ستنكر أيضاً أن هناك خطايا؟

«شايد»: بمقدوري أن أذكر اثنتين فقط هما: القتل والتعذيب المتعمد.

«كينبوت»: إذا لا يمكن لرجل قضى حياته في عزلة مطلقة أن يكون آثما؟

«شايد»: بمقدوره أن يعذب الحيوانات. وقد يسمم الينابيع في جزيرته. ويمكنه أن يتهم رجلاً بريئاً في بيان بعد وفاته.

«كينبوت»: وهكذا، فكلمة السر هي...؟

«شايد»: الشفقة.

«كينبوت»: لكن من غرسها فينا، يا «جون»؟ من هو قاضي الحياة؟ ومن هو مهندس الموت؟

«شايد»: الحياة مفاجأة عظمى. لا أفهم لِمَ لا يكون الموتُ مفاجأة أعظم منها بالأحرى.

«كينبوت»: الآن، أوقعت بك في الفخ، يا «جون»: ما إن ننكر وجود عقل أسمى يخطط ويدير حيواتنا الفردية الأخرى، حتى نصير ملزمين بقبول مفهوم الصدفة الرهيب على نحو لا يوصف، صدفة بلوغ الأبدية. تأمل الوضع. تخضع أشباحنا الفقيرة طوال الأبدية لتقلبات مجهولة. إذ لا مناشدة، ولا نصيحة، ولا دعم، ولا حماية، ولا أي شيء. ربما زلّ شبح «كينبوت» المسكين وطيف «شايد» المسكين، وربما سلكا المنعطف الخاطئ في مكان ما ـــ آه، بسبب شرود محض، أو ببساطة نتيجة جهل بقاعدة تافهة في لعبة الطبيعة المستحيلة ـــ إذا كانت هناك أي قواعد.

«شايد»: هناك قواعد في مشكلات الشطرنج؛ منها منع الحلول المزدوجة، مثلاً.

«كينبوت»: كنت أفكر في قواعد شيطانية، من المرجح أن يكسرها الطرف الآخر ما إن نفهمها. لهذا السبب لا ينجح سحر تحضير الجان دائماً. فالشياطين في دهائها البراق تخون الاتفاق بيننا وبينها، ثم ندخل مجددا فوضى الصدفة. حتى لو لطّفنا الصدفة بالضرورة وسمحنا بحتمية ملحدة، بوصفها آلية السبب والنتيجة، لنهب أرواحنا بعد الموت عزاء الانتقال المشكوك فيه، إلا أنه يتعين علينا أن نأخذ في الحسبان النازلة الفردية، الحادثة الثانية بعد الألف على الطريق لأولئك الذين كانوا مدرجين في عيد الاستقلال في أسطورة «هاديس». لا، لا، إذا أردنا أن نكون جادين حول الآخرة، دعنا نبدأ بالنزول بها إلى مستوى حكاية خيال علمي أو حالة روحانية تاريخية. فمثال روح المرء التي تغرق في الحياة الأخرى الفوضوية وغير المحدودة، بلا عناية إلهية توجهها....

«شايد»: هناك دائماً قائد يترصد الأرواح في الزاوية، أليس كذلك؟

«كينوبت»: ليس في تلك الزاوية، يا «جون». يجب على الروح، في غياب العناية الإلهية، أن تعتمد على غبار خبائها، وعلى التجربة المتراكمة خلال العزلة الجسدية، وأن تتمسك على نحو

طفولي بمبادئ بسيطة، وأنظمة محلية، وشخصية تتألف أساساً من ظلال قضبان سجنها الخاص. يجب ألا يتسلى العقل الديني بمثل هذه الفكرة لحظة واحدة. ألا يكون المرء أذكى ـــ حتى من وجهة نظر كافر متباهٍ! ـــ أن يقبل المرء بوجود الرب ـــ بوصفه وميضاً شاحباً في البداية، ثم نوراً شاحباً في عتمة الحياة الجسدية، فسطوعاً مبهراً بعد ذلك؟ أنا أيضاً، يا عزيزي «جون»، أنا أيضاً هاجمتني شكوك دينية في فترة ما. وقد ساعدتني الكنيسة على أن ألحق بها الهزيمة. كما ساعدتني على ألا أكثر من طرح الأسئلة، وألا أطالب بصورة
في غاية الوضوح لما يفوق التصور. قال القديس «أوغستين»...

«شايد»: لِم يجب على المرء أن يقتبس دائماً من القديس «أوغستين»؟

«كينبوت»: قال القديس «أوغستين»: «من لا يعرف ما لا يكونه الرب، ليس يعرفه.» أظنني أعرف ما لا يكونه: لا يكون يأسا، ولا رعبا، ولا الأرض في حشرجة الحنجرة، ولا الهمهمة السوداء في سمع المرء المتلاشي من لا شيء إلى لا شيء. كما أعرف أن العالم لم يوجد صدفة، وأن العقل بما هو عامل أساسي مقحم في تشكيل الكون. وإذ أحاول أن أجد الاسم الصحيح لذلك العقل الكوني، أو السبب الأول، أو المطلق، أو الطبيعة، أسلم أن اسم الرب هو صاحب الأولوية.

البيت ٥٥٠: الأطلال

أود أن أقول شيئاً ما حول تعليق سابق (على البيت ١٢). ناقش أصحاب الضمير والمتبحرون في العلم المسألة، وأعتقد الآن أن معنى البيتين المقدم في ذلك التعليق محرفٌ، تشوبه لوعة حزن. هي المرة الوحيدة، في مجرى كتابة هذه التعليقات الصعبة، التي تلبَّثْتُ فيها، في أساي وخيبة أملي، على حافة التحريف. يجب أن أطلب من القارئ أن يتجاهل ذينك البيتين (اللذين أخشى أنهما لا يطابقان بالأحرى موازين العروض مطابقةً صحيحة). بمقدوري أن أشطب عليهما قبل النشر، لكن ذلك سيعني إعادة صياغة التعليق برمته، أو جزء مهم منه على الأقل، وأنا لا أملك الوقت لمثل هذه الحماقات.

البيتان ٥٥٧ ـــ ٥٥٨: كيف تحدد في الحلكة، بتوق، الأرض الجميلة، كريَّة اليشب.

أجمل بيتين في هذه القطعة.

البيت ٥٧٩: الأخرى

حاشا لي أن ألمح إلى وجود امرأة ما أخرى في حياة صديقي. إذ لعب بصفاء دور الزوج المثالي الذي أناطه به معجبوه الأغرار، ثم إنه كان يموت خوفا من زوجته. لطالما أوقفت المثرثرين الذين يربطون اسمه باسم إحدى طالباته (انظر التوطئة). في الآونة الأخيرة، استنفد الموضوعَ روائيون أمريكيون، معظمهم أعضاء في شعبة إنجليزية موحدة يجب أن تنغمس، بالنتيجة، في الموهبة الأدبية والرغبات الفرويدية والشهوة الجنسية المغايرة الوضيعة أكثر من بقية العالم. من هنا، لم أستطع أن أواجه التأفف من إقحام تلك الشابة هنا. على كل حال، لم أكن أعرفها جيداً. ذات مساء، دعوتها إلى حفلة صغيرة رفقة آل «شايد» لقصد جلي قوامه دحض تلك الشائعات. هذا الأمر يذكرني بضرورة أن أقول شيئاً حول الطقوس الطريفة للدعوة وإجابة الدعوة في «نيوواي» الكئيبة.

بعد أن راجعت مذكرتي الصغيرة، أرى أنني دعيت، خلال الأشهر الخمسة من اتصالي بآل «شايد»، إلى مائدتهما ثلاث مرات بالضبط. كانت البداية يوم السبت ١٤ مارس، عندما تعشيت في بيتهما رفقة الشخصيات الآتية أسماؤهم: «ناتوشداغ» (الذي كنت أراه كل يوم في مكتبه)؛ الأستاذ «غوردن» من شعبة الموسيقى (الذي هيمن كليةً على الحديث)؛ رئيس شعبة اللغة الروسية (المتحذلق المضحك الذي كلما قلّ كلامه صار أفضل)؛ ثلاث أو أربع نساء متقلبات، إحداهن (أظنها السيدة «غوردن») حامل، والثانية غريبة تماماً، ظلت تحدثني باطراد، أو بالأحرى تمطرني بالكلمات، من الثامنة حتى الحادية عشرة، بسبب توزيع مشؤوم
للمقاعد المتاحة بعد العشاء. ولم يكن العشاء باذخا في المرة الثانية يوم السبت ٢٣ ماي، لكنه أكثر حميمية، إذ حضره «ميلتون ستون» (وهو موظف جديد بالمكتبة، بقي «شايد» يناقشه حتى انتصف الليل في تصنيف بعض الأعمال المتعلقة بجامعتنا)، و»ناتوشداغ» الكهل الطيب (الذي ظللت أراه كل يوم)، وامرأة فرنسية غير معطرة (رسمت لي صورة مكتملة حول ظروف تعليم اللغة في جامعة «كاليفورنيا»). ورغم أني لم أدون تاريخ وجبتي الثالثة والأخيرة عند آل «شايد» في مذكرتي الصغيرة، إلا أنني أعرف أنها كانت ذات صباح من صباحات يونيو، عندما أحضرت تصميما جميلاً رسمته لقصر الملك في «أونهافا» بجميع أنواع زخارفه الدقيقة، ومسحة دهان مذهب لم أفلح في التقاطه؛ فاستحثاني بسماحة على أن أبقى لغذاء ارتجلا تحضيره. يجب أن أضيف أنه رغم احتجاجاتي، في الوجبات الثلاث، لم تؤخذ موانعي النباتية في الأكل في الحسبان، فتعرضت لمادة حيوانية في، أو حول، بعض الخضراوات الملوثة التي ربما تكرمت بتذوقها. انتقمت لنفسي بعناية. فمن اثنتي عشرة دعوة أو أكثر، لم يقبل آل «شايد» سوى بثلاث، إذ تمحورت كل وجبة من تلك الوجبات حول بقلة ما أخضعتها لتحولات رائعة عديدة كما كان يفعل «بارمونتيي»(44) بدرنته العزيزة. في كل مرة، لم يكن عندي سوى ضيف إضافي واحد ليسلي السيدة «شايد» (التي كانت، لو سمحت ـــ أرقق صوتي لأضفي عليه نغمة أنثوية ـــ تعاني حساسية تنفرها من الخرشوف والأفوكادو والجوز الأفريقي ـــ في الواقع من كل شيء يبدأ بحرف «أ»). لا أعرف شيئاً يفضي إلى قطع شهية المرء أكثر من عجائز متحلقات حول مائدة، يلطخن مناديلهن بمساحيقهن المتحللة، ويحاولن خلسة، خلف ابتسامات غامضة، أن يتخلصن من عذاب متأجج ناتج عن بذرة علّيق عالقة بين طقم الأسنان واللثة الميتة. هكذا، استضفت شبابا، طلابا؛ في المرة الأولى، ابن شاه، وفي المرة الثانية، بستاني، وفي المرة الثالثة، تلك الفتاة صاحبة الملابس

الضيقة السوداء، ذات الوجه الأبيض الطويل والجفون المطلية بالأخضر مثل غول، لكنها جاءت متأخرة جدّاً، حيث غادر آل «شايد» مبكراً جدّاً ـــ في الواقع، أشك إن كانت المقابلة دامت أكثر من عشر دقائق، ومن ثمة، تحملت مهمة تسلية الشابة بتسجيلات فونوغرافية حتى وقت متأخر من الليل، عندما هاتفت أحدهم ليصطحبها إلى «مطعم» في «دالويتش».

البيت ٥٨٤: الأم والطفل.

Est ist die Mutter mit ihrem Kind(45) (انظر التعليق على البيت ٦٦٤).

البيت ٥٩٦: يشير إلى البِرَك في غرفته بالقبو.

نعرف جميعاً تلك الأحلام التي يتسرب فيها شيء يتشرب من نهر جهنم ويتسرب عبر نهر النسيان بالمعنى الكئيب لأنابيب المياه المعيبة. بعد هذا البيت، ثمة بداية خاطئة محفوظة في المسودة ـــ آمل أن يشعر القارئ بالقشعريرة التي سرت في عمودي الفقري الطويل والمطواع عندما اكتشفت هذه الصيغة البديلة:

هل على القاتل أن يعانق

ضحيته الغاضبة التي يجب أن يواجهها الآن؟

هل للأشياء روح؟ أم يجب أن تندثر

مثل المعابد العظيمة ورماد «تاناغرا»؟(46)
يشكل المقطع اللفظي الأخير من «تاناغرا» والأحرف الثلاثة الأولى من «رماد» اسم القاتل الذي سرعان ما ستواجه روحُ شاعرنا المشعة شبحَه الأعجف. «صدفة بسيطة!» قد يصرخ القارئ التافه. لكن دعوه يحاول أن يرى، كما حاولت أن أرى، كم هي ممكنة ووجيهة مثل هذه التوليفات العديدة. هل «درجت «لينينغراد» أن تكون «بيتروغراد»؟»

هذه الصيغة البديلة مدهشة للغاية حتى إن التخصص العلمي وحده واعتباراً دقيقاً للحقيقة حالا دون أن أدرجها هنا، وأن أحذف أربعة أبيات في سياق آخر (الأبيات الضعيفة ٦٢٧ ـــ ٦٣٠ مثلا) قصد الحفاظ على طول القصيدة.

ألّف «شايد» هذه الأبيات يوم الثلاثاء ١٤ يوليوز. ما الذي كان يفعله «غرادوس» في ذلك اليوم؟ لا شيء. يكتفي القدر التوافقي بما حققه من أمجاد. رأيناه آخر مرة في وقت متأخر من ظهيرة يوم العاشر من يوليوز عندما عاد من «ليكس» إلى فندقه في «جنيف»، وتركناه هناك.

ظل «غرادوس»، خلال الأيام الأربعة الموالية، يتآكل في «جنيف». تكمن المفارقة الطريفة عند رجال العمل هؤلاء في أنهم مضطرون دوماً إلى تحمل فترات بطالة طويلة، حتى إنهم يصبحون عاجزين عن شغلها بأي شيء، إد يفتقدون كما هم إلى مناهل روح المغامرة. كان «غرادوس»، مثل كثير من الناس ذوي الثقافة المحدودة، قارئاً نهماً للجرائد والكراسات ونشرات الحظ والأدبيات متعددة اللغات التي ترافق قطرات الأنف وأقراص الهضم. لكن هذا الأمر لخص تنازلاته عن الفضول المعرفي. وبما أن بصره لم يكن حادا للغاية، واستهلاكه الأخبار المحلية محدوداً، كان عليه أن يعول كثيراً على فتور مقاهي الرصيف، وعلى ذريعة النوم.

ما أسعد الخاملين الصاحين تماماً، الملوك بين الرجال، والأدمغة الشاذة الغنية التي تستمد متعة متعاظمة ونشوات فرح من درابزين شرفة عند حلول الليل، من الأضواء والبحيرة في الأسفل، من الأشكال الجبلية البعيدة الذائبة في المشمش الداكن في حمرة الأفق، من الصنوبرات السوداء المنعكسة في حبر الذروة الشاحب، من مويجات الماء العقيقية والخضراء على امتداد خط الشاطئ الساكن، الحزين، المحظور. آه، يا «بوسكوبيلي»(47) الفاتن! والذكريات الشجية والرهيبة، والهوان، والمجد، والتلميحات المغضبة، والنجم الذي لا يستطيع أي عضو في الطغمة بلوغه أبداً.

صباح يوم الأربعاء، أبرق «غرادوس»، الذي لم تصله أخبار حتى ذلك الحين، إلى مقر القيادة العامة، قائلاً إنه تصور أن الحكمة لا تقتضي أن ينتظر أكثر، وأنه سينزل في فندق «لازولي» في «نيس».

الأبيات ٥٩٧ ـــ ٦٠٨: الأفكار التي يجب أن نستدعيها، الخ.

يجب أن يرتبط هذا المقطع في ذهن القارئ بالصيغة البديلة الاستثنائية المقدمة في التعليق السابق، لأن رماد «تاناغرا» و»يدينا الملكيتين» كانوا سيجتمعون، بعد أسبوع، في الحياة الواقعية، في الموت الحقيقي.

لو لم يهرب ملكنا «تشارلز» الثاني، لربما أُعدم. كان سيحصل هذا بالتأكيد لو قبض عليه بين القصر وكهوف «ريبليسن». لكنه نادرا ما استشعر أصابع القدر السميكة تلك خلال فراره. شعر بها تتحسسه (كما يفحص أولئك الرعاة الكهول عذرية فتاة) عندما انزلق، في تلك الليلة، على السفح السرخسي النديّ في جبل «مانديفيل» (انظر التعليق على البيت ١٤٩)، وفي اليوم الموالي، على ارتفاع أكثر غرابة، في الزرقة المسكرة، حيث يصير الجبلي واعيا برفيق شبح. في تلك

الليلة، ارتمى ملكنا على الأرض عدة مرات، يدفعه إصرار يائس إلى المكوث هناك حتى الفجر، حتى ينتقل بأقل قدر من العذاب مهما كان الخطر الذي تدبرته الصدفة. (أنا أفكر في «تشارلز» آخر، رجل عابس وطويل آخر، طوله نحو مترين.) لكن كل ذلك كان جسديا بالأحرى، أو عصبيا، حيث أعرف حق المعرفة أن ملكي سيتصرف، لو قبض عليه وأدين واقتيد حيث يرمى بالرصاص، كما يفعل في الأبيات ٦٠٦ ــ ٦٠٨. هكذا، كان سينظر حوله برباطة جأش متغطرسة، وهكذا سوف

يسخر من أراذلنا، يهزأ بمرح

من البلهاء المتفانين ويبصق

في عيونهم لأجل المرح فقط

اسمحوا لي بإنهاء هذا التعليق المهم بقولة مأثورة مناهضة للنزعة الداروينية بالأحرى: القاتل تابعُ ضحيته دائماً.

البيت ٦٠٣: ننصت إلى الديوك البعيدة تصيح

سيتذكر المرء الصورة الرائعة في قصيدة أخيرة لـ»إدسيل فورد»:

وغالباً عندما يصيح الديك، يحرك نار

الصباح والحصيد النّديّ

والحصيد («موان» في اللغة «الزمبلية») هو الحقل المجاور للإسطبل.

البيتان ٦٠٩ ــ ٦١٤: لا أحد يستطيع نُصْرةَ، الخ.

هذا المقطع مختلف عن المسودة:

ولا يسع المرء أن ينصر المنفي المحاصر بالموت ٦٠٩

بفندق عابر معرض للنفس الحارق

لهذه الأمريكا، هذه الليلة الندية:

عبر الستائر اللوحية، تتلمس خيوط لون ملون

سريره ـــ سحرة من الماضي

ذوو جواهر فاتنة ـــ وتجري الحياة بسرعة.

تصف هذه الأبيات بالأحرى «الفندق العابر» وصفا دقيقا، وهو كوخ خشبي، به حمام مبلّط، حيث أحاول أن أنسق هذه التعليقات. في البداية، أزعجني بشدة ضجيج موسيقى إذاعية شيطانية منبعثة مما ظننته متنزها ترفيهيا ما في الجهة الأخرى من الطريق ـــ فتبين أنهم كانوا سياحاً مخيّمين ـــ وفكرت في الانتقال إلى مكان آخر، عندما استبَقوني. الآن، صار المكان أكثر هدوءا، باستثناء ريح مزعجة تهب هوجاء عبر أشجار الحور الرجراج الذابلة، فباتت «سيدارن» مدينة أشباح من جديد، لا حمقى مصطافين أو جواسيس يحدّقون فيّ، ولم يعد صاحبي الصياد ذو سروال الجينز الأزرق يقف على صخرته في المجرى، وربما صار الأمر أفضل على هذا النحو.

البيت ٦١٥: لسانين

الإنجليزية و»الزمبلية»، الإنجليزية والروسية، الإنجليزية واللاتفية، الإنجليزية والإستونية، الإنجليزية والليتوانية، الإنجليزية والروسية، الإنجليزية والأوكرانية، الإنجليزية والبولونية، الإنجليزية والتشيكية، الإنجليزية والروسية، الإنجليزية والهنغارية، الإنجليزية والرومانية، الإنجليزية والألبانية، الإنجليزية والبلغارية، الإنجليزية والصربية الكرواتية، الإنجليزية والروسية، الأمريكية والأوربية.

البيت ٦١٩: عين الدَّرَنَة

تتبرعم التورية (انظر البيت ٥٠٢).

البيت ٦٢٧: «ستاروفر بلو» العظيم

يبدو أن الشاعر حصل على إذن الأستاذ «بلو»، لكن رغم ذلك، فإن إقحام شخصٍ واقعي، مهما يكن متواطئاً وراغبا، في وسط مختلَق حيث يتقمص دوراً يتوافق مع الاختلاق، يثير المرء بوصفه حيلة عديمة الطعم على نحو فريد، خاصة حينما تتخذ شخصيات الحياة الواقعية، ما عدا أفراد العائلة بالطبع، أسماء مستعارة في القصيدة.

هذا الاسم هو الأكثر إغراء، بلا شك. إذ تناسب النجمة فوق الزرقة، بشكل بارز، عالم فلكٍ، وإن لم يكن لاسمه الأول، ولا الثاني، في الواقع أي علاقة بالقبة السماوية، حيث منح الأول حفظاً لذكرى جده، وهو «ستاروفر» روسي (يقع النبر، صدفة، على المقطع الأخير)، أي المؤمن القديم (عضو طائفة منشقة)، اسمه «سينيافين»، من «سينيي»، أي «الأزرق» في اللغة الروسية. هاجر «سينيافين» هذا من «ساراتوف» إلى «سياتل»، وأنجب ابناً بدّل اسمه لاحقاً باسم «بلو» وتزوج «ستيلا لازورتشيك»، وهي «كشوبية» متأمركة. هكذا تسير الأمور. سيتفاجأ «ستاروفر بلو» الفاضل ربما باللقب الذي منحه إياه «شايد» المازح. يشعر الشاعر بالميل هنا إلى أن يعرب عن بعض الثناء في حق الغريب الكهل الودود، الذي يحبه الجميع في الكلية، ويلقبه الطلاب بـ«العقيد ستاربوتل»، بسبب عاداته البهيجة الاستثنائية البادية بجلاء. على كل حال، ثمة رجال عظام آخرون في محيط شاعرنا ـــ منهم، على سبيل المثال، ذلك الباحث»الزمبلي» المتبحر «أوسكار ناتوشداغ».

البيت ٦٢٩: قدر الوحوش

كتب الشاعر فوق هذه العبارة ما يلي:

قدر المعتوه

ثم شطب عليها.

استقصى قدرَ أرواح المعتوهين النهائي العديدُ من اللاهوتيين «الزمبليين» الذين يعتقدون عموماً أن حتى أكثر العقول خبلا تحتوي مع ذلك، داخل كتلتها الممسوسة، جُسَيما أساسيّاً سليماً نجا من الموت وأخذ يتمدد فجأة ويتدفق، إن جاز التعبير، في جلجلات ضحك صحي وظافر عندما تلاشى عالم الحمقى والبلهاء الأنيقين بعيداً في الخلف. شخصيا، لم أعرف أي معتوه، لكني سمعت عن بعض الحالات الظريفة في «نيوواي» («حتى في «أركادي» أوجد»، تقول العتاهة ، المقيدة إلى عمودها الرمادي). كان هناك مثلاً طالب جن جنونه. كان هناك بواب كهل جدير للغاية بالثقة في الكلية، أطلع طالبة مفرطة الحياء ذات يوم، بصالة العرض، على شيء ما رأت عينات أفضل منه

بلا شك. لكن حالتي المفضلة، من بين جميع الناس، هي حالة موظف بمحطة السكك الحديد في «إكستون»، وصفت لي وسواسَه السيدةُ «هـ.». كان هناك حفل مدرسي صيفي كبير في بيت آل «هورلي»، اصطحبني إليه أحد رفيقيَّ في لعبة كرة الطاولة، وهو فتى من فتيان آل «هورلي»، لأنني عرفت أن شاعري كان سيلقي هناك شيئاً ما، وكان القلق ينتاب دواخلي، معتقدا أنه قد يكون حول بلدي «زمبلا» (تبين أنها قصيدة غامضة لأحد أصدقائه المغمورين ـــ كان صديقي «شايد» كريما للغاية مع الفاشلين). سيفهم القارئ إذا قلت إنني لن أشعر أبداً، في شَمَمي، بأنني «تائه» في حشد، لكن صحيح أنني لم أعرف العديد من الناس في بيت آل «هـ.». بينما كنت أتنقل في الزحمة، تعلو وجهي ابتسامة وفي يدي كأس «كوكتيل»، لمحت أخيراً سنام رأس شاعري وعقيصة السيدة «هـ.» الجوزية الفاقعة، البارزين خلف مقعدين متجاورين. عندما تقدمت خلفهما، سمعته يعترض على ملاحظة ما أدلت بها للتو:

قال: «تلك هي الكلمة الخاطئة. لا ينبغي للمرء أن يطلقها على شخص ينسلخ بأناة عن ماض كئيب ومشؤوم، ويعوضه باختراع بارع. ذاك مجرد قلبٍ لورقة جديدة باليد اليسرى.»

ربتتُ على رأس صديقي وانحنيتُ قليلاً أمام «إيبيرثيلا هـ.». نظر الشاعر إليَّ بعينين لامعتين. قالت:

«يجب أن تساعدنا، السيد «كينبوت»: أؤكد أن من اسمه، الكهل ـــ الرجل الكهل، تعرفه، في محطة السكك الحديد بـ«إكستون»، الذي ظن نفسه هو الرب وأخذ يعيد توجيه القطارات، كان مخبولا من الناحية التقنية، لكن «جون» يسميه شاعراً زميلاً.»

«كلنا شعراء، بمعنى ما، يا سيدتي»، أجبتُ وقدمت ثقاباً مشتعلاً لصديقي الذي وضع غليونه بين أسنانه وأخذ يضرب بيديه معاً على أطراف مختلفة من جذعه.

لست متأكدا أن هذه الصيغة البديلة المبتذلة تستحق التعليق. بالفعل، من شأن المقطع بكامله حول أنشطة معهد IPH أن يكون ساخراً لو كان شعره الغثّ أقصر مقدار قدم.

البيت ٦٦٢: من يهيم متأخراً في الليل والريح؟

يلمح هذا البيت، والمقطع برمته في الواقع (الأبيات ٦٥٣ ـــ ٦٦٤)، إلى قصيدة «غوته» الذائعة الصيت حول ملك الجان، الفتان الأشيب في غابة الحور المسكونة بالعفاريت، الذي يقع في حب الفتى المرهف ابن رحالة متأخر. لا يمكن للمرء أن يعجب بدرجة كافية

بالطريقة البارعة التي بها نجح «شايد» في نقل شيء ما من إيقاع الأغنية المبتور (بحر ثلاثي المقاطع في الوسط) إلى قصيدته الإيامبية:

////

من يهيم متأخراً في الليل والريح ٦٦٢

..... ٦٦٣

////

..... إنـــــه الأب مـــــع ابنـــــــــه ٦٦٤

يتبدى بيتاً «غوته» في مطلع القصيدة بدقة وجمال بالغين، تتوجهما قافية مفاجئة (حتى بالفرنسية: enfant ــ vent (ريح ــ طفل))، في لغتي الأم:

////

Ret woren ok spoz on natt ut vett?

////

Eto est votchez ut mid ik dett.

ثمة حاكم رائع آخر، هو ملك «زمبلا» الأخير، ظل يردد هذين البيتين المؤرقين في نفسه بـ«الزمبلية» والألمانية»، بوصفهما مصاحبة اتفاقية لطبول التعب والآسى، بينما كان يتسلق، عبر حزام السرخس، الجبال المظلمة التي كان عليه أن يعبرها في طريقه إلى الحرية.

البيتان ٦٧١ ـــ ٦٧٢: فرس البحر الجامحة

انظر قصيدة «براونينغ» دوقتي الأخيرة.

انظر إليها واشجب العدة العصرية التي تقتضي عنونة مجموعة مقالات أو ديوان شعر ـــ أو قصيدة طويلة، يا للحسرة ـــ بعبارة مأخوذة من عمل شعري قديم معروف إلى حد ما. إذ تتفرد مثل هذه العناوين ببريق خادع ربما يكون مقبولا في أسماء الأنبذة المعتقة والمحظيات اللحيمات، لكنها محقِّرة من حيث الملكةُ التي تحل خاصية التثقف البسيطة محل المخيلة الأصلية وتثقل كاهل تمثال نصفي بمسؤولية التنميق ما دام بمقدور أي شخص أن يتصفح حلم ليلة منتصف الصيف أو روميو وجولييت، أو ربما السونيتات، ثم يختار.

البيت ٦٧٨: إلى الفرنسية

صدرت ترجمتان من هذه الترجمات في عدد غشت من المجلة الكندية الجديدة الذي وصل إلى مكتبات المدينة الجامعية خلال الأسبوع الأخير من شهر يوليوز؛ أي في لحظة حزن وتشوش ذهني، مع أن الحس السليم منعني من أن أطلع «سيبيل شايد» على بعض
الملاحظات النقدية التي سجلتها في مذكرتي الصغيرة.

في ترجمتها سونيتة X المقدسة الشهيرة التي ألفها «دون» خلال ترمّله بيتان:

يا موت لا تفخر، لو دعاك البعض

جباراً عتيّاً، فما أنت كذلك(48)
يستهجن المرء الدفق المسرف في البيت الثاني المدرج في هذا السياق ليتخثر الوقف:

Ne soit pas fière, Mort، Quoique certains te disent

Et puissante et terrible, ah, Mort, tu ne l'es pas

ورغم أن القافية الداخلية (البيتان ٢ ــ ٣) نجحت في العثور على نظير سهل في الترجمة الفرنسية، فإن المرء يعترض على القافية الخارجية (البيتان ١ ــ ٤) التي ستصير في السونيتة الفرنسية التي تعود إلى نحو ١٦١٧ بمثابة إخلال بغيض بالقاعدة البصرية.

لا أملك الحيز الكافي هنا لأدرج عددا من الأخطاء والهفوات في هذه النسخة الكندية التي يستنكر فيها عميد كلية «سانت بول» الموت ، موت ذلك العبد ــ بإرجاعه لا إلى «القدر» و»الصدفة» وحدهما ــ وإنما إلينا («الملوك والرجال اليائسين») كذلك.

وتبدو القصيدة الأخرى، قصيدة «أندرو مارفل» «الحورية ترثي موت حمَلها»، أكثر استعصاء بالأحرى، من الناحية التقنية، على أن تنظم في قريض فرنسي. فإذا كانت الآنسة «إروندیل» استندت، في ترجمة «دون»، إلى تبرير محكم في مقابلة الوزن الخماسي التفاعيل في الشعر الإنجليزي بالوزن الإسكندريني ذي التفاعيل السداسية في الشعر الفرنسي، فإنني أشك أنها فضلت الوزن الوتري وناسبت بتسعة مقاطع لفظية ما لاءمه «مارفل» بثمانية. في البيتين:

ولم يبالِ تماماً بألمي،

ترك لي حَمَله لكن أخذ قلبه

اللذين يظهران على النحو التالي:

Et se moquant bien de ma douleur

Me laissa son faon, mais pris son coeur

يأسف المرء لأن المترجمة لم تنجح، حتى بمساعدة رحِم عروضية أرحب، في أن تثني ساقي الشادن الفرنسي الطويلتين، وتترجم عبارة «لم يبالِ تماماً» بـ«sans le moindre égard pour» أو عبارة أخرى من هذا القبيل. في سياق آخر، هذان البيتان:

حبك كان أكبر بكثير من

حبّ الرجل الخادع والقاسي

وإن ترجما حرفيّاً:

Que ton amour était fort meilleur

Qu'amour d'homme cruel et trompeur

فإنهما ليسا أصيلين من الناحية الاصطلاحية كما قد يبدوان في الوهلة الأولى. وأخيراً، لا ينطوي البيتان الختاميان الرائعان:

لو عمّر طويلاً، لأينع

زنابق في الخارج، ووردا في الداخل

في فرنسية سيدتنا على ركاكة فحسب، بل أيضاً على ذلك النوع من المعاظلة الممنوعة التي يرتكبها المترجم، عندما يتخطى علامة الوقف:

Il aurait été, s'il eut longtemps

.Vécu, lys dehors, roses dedans

كم سيكون تقليد هذين البيتين وسجعهما بديعين في لغتنا «الزمبلية» الساحرة («لسان المرآة»، كما عرّفها «كونمال» العظيم)!

,Id wodo bin, war id lev lan

.Indran iz lil ut roz nitran

البيت ٦٨٠: «لوليتا»

تعطى الأعاصير الكبرى أسماء مؤنثة في أمريكا. إذ لا يقترح المؤنث في الغالب لجنس الحيازب والعجائز السليطات، بقدر ما يقترحه استعمال مهني عام. من هنا، فكل آلة هي مؤنثة عند مستخدمها الودود، وكل نار (وإن كانت «شاحبة»!) هي مؤنثة عند الإطفائي، كما المياه مؤنثة عند السبّاك الشغوف. ولا يتضح سبب اختيار شاعرنا أن يطلق على إعصاره لسنة ١٩٥٨ اسما إسبانيا نادر الاستعمال (يطلق أحياناً على الببغاوات) بدل «ليندا» أو «لُويْز».

البيت ٦٨١: تجسس روس متجهمون

ليس في هذا التجهم أي شيء ميتافيزيقي أو عرقي في الواقع. إنه مجرد علامة برّانية لنزعة قومية محتقنة وإحساس ريفي بالدونية ـــ تلك الخلطة الرهيبة التي يتميز بها إلى حد كبير «الزمبليون» في ظل الحكم المتطرف، والروس في ظل النظام السوفياتي. فالأفكار في روسيا الحديثة قوالب تُنْحَت بالآلة وتأتي في ألوان جامدة؛ فتمنع الفروق الدقيقة، ويطوق البون، ويدرّج المنعطف على نحو صارخ.

غير أن الروس ليسوا متجهمين كلهم. إذ اتضح أن الخبيرين الشابين من موسكو، اللذين وظفتهما حكومتنا الجديدة لتحديد مكان مجوهرات التاج «الزمبلي»، ذوا طبع ظريف بصورة لا تقبل الجدل. كان المتطرفون على حق في اعتقادهم أن «بارون بلاند»، أمين الكنز، نجح في إخفاء تلك المجوهرات قبل أن يقفز أو يسقط من البرج الشمالي، لكنهم لم يعرفوا أنه اعتمد على مساعد، وأخطؤوا في اعتقادهم بضرورة البحث عن المجوهرات في القصر الذي لم يغادره «بلاند» الوديع الأشيب أبداً إلا ليموت. قد أضيف، بارتياح يستحق المغفرة، أنها كانت، وما تزال، مخبأة في زاوية مختلفة كلية ـــ وغير متوقعة تماماً ـــ من زاويا «زمبلا».

لقد ألقى القارئ، في تعليق سابق (على البيت ١٣٠)، نظرة خاطفة على ذينك الصائدين الباحثين عن الكنز. فبعد فرار الملك والاكتشاف المتأخر للممر السري، واصلا تنقيباتهما المدروسة إلى أن تصدع القصر وتهدم جزء منه، إذ انهار جدار غرفة بكامله ذات ليلة، ليكشف، داخل مشكاة لم

يخطر وجودها على بال أحد، عن مملحة برونزية قديمة وقرن شراب الملك «فيغبورت». لكنك لن تعثر أبداً على تاجنا وقلادتنا وصولجاننا.

يمثل كل هذا قاعدة في لعبة سماوية. وكل هذا هو حكاية القدر الثابتة، حيث لا ينبغي أن يؤول بأنه يطعن في جدارة الخبيرين السوفياتيين ـــ اللذين سينجحان، على كل حال، نجاحاً باهراً خلال مناسبة لاحقة في مهمة أخرى (انظر التعليق على البيت ٧٤٧). اسماهما (المستعاران ربما) هما «أندرونيكوف» و»نياغارين». قلما يرى المرء، بين تماثيل الشمع على الأقل، شابّيْن أكثر حُسنا وأناقة. أعجب الجميع بذقنيهما الحليقين بعناية، وملامح وجهيهما البسيطة، وشعرهما المتموج، وأسنانهما الناصعة. قلما ابتسم «أندرونيكوف» الطويل الوسيم، لكن الأشعة القليلة المنبعثة من تجاعيد جسده الوقبي تنمّ عن ظرافة لامتناهية، بينما الجعدتان التوأمان النازلتان من جانبي المنخرين المتناسقين توحيان بصلات ساحرة مع الطيارين المهرة وأبطال الأدغال. من جانب ثان، كان «نياغارين» ذا بنية قصيرة نسبيا، وملامح مدورة إلى حد ما، وإن كانت رجولية تماماً، تلمع في كل لحظة وحين بابتسامة صبيانية عريضة تذكر برؤساء كشافة يخفون شيئاً ما، أو أولئك النبلاء المدلّسين في المسابقات التلفزيونية. كان من دواعي سروري أن أشاهد الخبيرين السوفياتيين الرائعين يركضان في الفناء ويركلان كرة قدم منفوخة جيداً، يعلوها غبار الطباشير (تبدو كبيرة وملساء للغاية في مثل ذلك المحيط). كان «أندرونيكوف» قادراً على أن ينططها على أصبع قدمه اثنتي عشرة مرة، قبل أن يرسلها بضربة صاروخية إلى السماوات الكئيبة، الذاهلة، المبيضة، البريئة. وكان بمقدور «نياغارين» أن يقلد حد الإتقان طرائق حارس مرمى مذهل في فريق «دينامو». اعتادا أن يمنحا مساعدي الطهاة كراميلات روسية بنكهة البرقوق أو الكرز المرسوم على اللفافات المزخرفة الثرّة سداسية الزوايا التي تغلف لفافة من ورق رقيق يحتوي بداخله على المومياء البنفسجية؛ وكان معروفا أن الفتيات الريفيات الشبِقات يتسللن على طول الممرات المغطاة بالعلّيق، حتى قدم الحصن عندما كان الاثنان اللذان ترتسم ظلاهما على السماء المتوهجة الآن يغنيان «دويتوهات» عسكرية عاطفية جميلة في المساء عند المتراس. كان «نياغارين» يتمتع بصوت صادح شجي، و»أندرونيكوف» بصوت جهوري قوي، وكلاهما يرتديان جزمتين أنيقتين من الجلد الأسود الناعم. أشاحت السماء كاشفة فقراتها الأثيرية.

يتحدث «نياغارين» الذي عاش بكندا الإنجليزية والفرنسية، و»أندرونيكوف» بعض الألمانية. كانا ينطقان النزر القليل مما يعرفانه من «الزمبلية» بتلك النبرة الروسية المضحكة التي تضفي على الصوائت نوعاً من الامتلاء الصوتي الديداكتيكي. كان الحرس المتطرف يعدّهما نموذجين للهمة، إذ نال عزيزي «أودونيلو» مرة توبيخا قاسيا من القائد، لأنه لم
يقاوم إغراء محاكاة مشيتهما؛ كلاهما يتحركان ببعض الخيلاء المتطابق، وكلاهما ذوا ساقين مقوستين بشكل واضح.

عندما كنت طفلا، كانت روسيا تتمتع بشعبية كبيرة داخل بلاط «زمبلا»، لكن روسيا تلك كانت مختلفة ـــ روسيا التي تكره الطغاة والجاهلين، الجور والوحشية؛ روسيا السيدات والسادة والتطلعات الليبرالية. قد نضيف أن «تشارلز» المحبوب كان يتباهى ببعض الدم الروسي. وفي

العصور الوسطى، تزوج اثنان من أجداده أميرتين من أميرات «نوفغورد». كانت جدَّةُ جدَّته الملكة «ياروغا» (التي حكمت بين ١٧٩٩ و١٨٠٠) نصف روسية، إذ يعتقد معظم المؤرخين أن «إيغور»، ابن «ياروغا» الوحيد، لم يكن من صلب «أوران» الأخير (الذي حكم بين ١٧٩٨ و١٧٩٩)، لكنه ثمرة غرامياتها مع المغامر الروسي «هودينسكي»، مهرجها بالقصر، وهو شاعر فذ قيل إنه ألّف، خلال أوقات فراغه، أغنية روسية قديمة شهيرة، هي أغنية الإيماءة التي تنسب عموماً إلى شاعر مجهول من شعراء القرن الثاني عشر.

البيت ٦٨٢: «لانغ»

هو بلا شك «فرا باندولف»(49) في صورة حديثة. لا أذكر أنني رأيت أي رسم مماثل في البيت. أم ترى قد خطر البورتريه الفوتوغرافي ببال «شايد»؟ كان هناك بورتريه مشابه على البيانو، وآخر على مكتب «شايد». لكم سيكون الأمر أكثر إنصافاً لقارئ «شايد» وقارئ صديقه لو تفضلت السيدة بالإجابة على بعض استفساراتي الملحّة.

البيت ٦٩١: النوبة

تزامنت نوبة «جون شايد» القلبية (يوم ١٧ أكتوبر ١٩٥٨) عمليا مع وصول الملك المتنكر إلى أمريكا حيث نزل بمظلة من طائرة خاصة يقودها العقيد «مونتاكيوت»، في حقل أعشاب مزهرة يصيب قشها بالحمى، قرب «بالتيمور»، حسّونه ليس بحسّون. كان كل شيء موقوتا تماماً. كان ما يزال يصارع الأداة الفرنسية غير المألوفة عندما انعطفت سيارة «رولس رويس» آتية من قصر «سيلفيا أودونيل» مهتدية بفرقعاته الحريرية الخضراء من طريق، وأخذت تقترب على طول معبر، عجلاتها الضخمة تهتز بطريقة مستنكرة وهيكلها البرّاق الأسود يتقدم ببطء. سأبين بحبور مسألة هذا القفز بالمظلة، لكن هذا الأمر ليس ضروريا في هذه التعليقات على نار شاحبة (كونها مسألة سُنَّة عاطفية صرف، لا طريقة نقل نافعة). بينما كان «كينغسلي»، السائق البريطاني، وهو خادم كهل ووفي بالتأكيد، يبذل قصارى جهده ليحشر المظلة الضخمة المطوية بشكل سيء داخل الصندوق، توكأت على عصا رماية زودني بها، أرشف ويسكيّاً اسكتلنديّاً منعشاً وماء من بار السيارة وألقي (وسط حفاوة الصراصير وتلك الدوامة من الفراشات الصفراء والكستنائية التي أسعدت كثيراً «شاتوبريان» عند وصوله إلى أمريكا) نظرة خاطفة على مقالة في صحيفة نيويورك تايمز، خطت فيها «سيلفيا» بالقلم الأحمر خطّاً بارزاً ومشوشاً أسفل مراسلة من «نيوواي» تتحدث عن إدخال الشاعر المستشفى. كنت أتطلع إلى لقاء شاعري الأمريكي المفضل الذي سيموت قبل نهاية الدورة الربيعية بوقت طويل، كما أيقنت بذلك في تلك اللحظة، لكن خيبة الأمل كانت أكثر من مجرد هاجس ذهني لحسرة مقبولة. نظرت حولي، وأنا أرمي الصحيفة، بافتتان وإحساس بعافية جسدية، رغم أنفي المحتقن. خلف الحقل، يتسلق العشب الأخضر في أدراج كبيرة نحو الأخياس الكثيرة الألوان. بمقدور المرء أن يرى فوقها ساباط القصر الأبيض، بينما تذوب السحب في

الزرقة. فجأة، عطستُ، ثم عطست ثانية. قدّم لي «كينغسلي» مشروبا آخر، لكني رفضته، وانضممت إليه في المقعد الأمامي، وفق ما يقتضيه
السلوك الديمقراطي. كانت مضيفتي طريحة الفراش، تعاني الآثار المترتبة عن حقنة خاصة تناولتها تحسباً لرحلة إلى مكان معين في أفريقيا. دمدمت ردّاً على عبارتي «حسناً، كيف حالك؟» أن جبال الأنديز رائعة حقّاً، ثم سألت بنبرة أقل تثاقلا إلى حد ما عن ممثلة شهيرة قيل إن ابنها يعيش معها في الحرام. قلتُ إن «أودن» وعدني أنه لن يتزوجها. استفسرت عما إذا كانت قفزتي جيدة، ودقت جرسا برونزيا. يا للعجوز «سيلفيا» الطيبة! كانت تقاسم «فلور دو فايلر» غموضاً في الأسلوب، وتراخيا في السلوك، كان طبيعيا في جزء منه، ومستنبتاً في جزء ثان توظفه كذريعة مناسبة عندما تكون ثملة، كما نجحت بطريقة رائعة في أن توجِّد ذلك الخمول بفصاحة يذكر المرء بمتكلم من بطنه بطيء الكلام تقاطعه دميته الثرثارة. يا لـ»سيلفيا» التي لا تتغير! على امتداد ثلاثة عقود، رأيت بين الفينة والأخرى، بين قصر وآخر، ذلك الشَّعر الجوزي الناعم نفسه، وتلك العينين الطفوليتين الشاحبتين الزرقاوين، والابتسامة البلهاء، والساقين الطويلتين الأنيقتين، والحركات المترددة الرشيقة.

جيء بطبق فاكهة ومشروبات يحمله جمال شاب، كما سيقول العزيز «مارسيل». لا يسع المرء سوى أن يذكر مؤلفا آخر، «جيد» الألْسَن الذي يمتدح في ملاحظاته الأفريقية جلد العفاريت السوداء الأملس بحرارة كبيرة.

قالت «سيلفيا» التي كانت القيّم الأساس في جامعة «ووردسميث» (كما كانت، في الواقع، المسؤولة الوحيدة عن ترتيب محاضراتي المسلية هناك): «كدتم تفوتون فرصة اللقاء بنجمكم الأكثر سطوعا. اتصلت للتو بالكلية ـــ نعم، خذوا ذلك الكرسي ـــ وهو بحال أفضل. تذوق فاكهة الـ»ماسكانا» هذه. استقدمتها لكم خصيصاً، لكن الفتى مغاير جنسيّاً تماماً، وعلى العموم، يجب أن تكونوا، يا صاحب الجلالة، حذرا للغاية من الآن فصاعداً. إنني متأكدة أن الأمر سيعجبكم هناك، وإن كنت أتمنى أن أتمكن من معرفة ما الذي يجعل أي شخص شديد التحمس لتدريس «الزمبلية». أعتقد أن «ديزا» يجب أن تأتي أيضاً. لقد اكتريت لكم ما يقال إنه أفضل بيت عندهم، وهو قريب من آل «شايد».»

لم تكن معرفتها بهما إلا معرفة ضئيلة للغاية، لكنها سمعت العديد من القصص المحببة عن الشاعر من «بيلي ريدينغ»، «أحد رؤساء الجامعات الأمريكية القلائل الذين يعرفون اللاتينية.» واسمحوا لي أضيف هنا أنني شعرت بفخر عظيم عندما التقيت، بعد أسبوعين في واشنطن، بذلك النبيل الأمريكي الرائع الواهن، الشارد الذهن، الرث الملبس، الذي كان عقله مكتبة، لا قاعة نقاش.
سافرت «سيلفيا» بالطائرة يوم الاثنين الموالي، لكني مكثت فترة هناك، أستريح من تعب مغامراتي، وأتأمل، وأقرأ، وأدون مذكرات، وأتنزه كثيراً على صهوة جواد في الريف الرائع رفقة سيدتين فاتنتين وسائسهما الخجول الضئيل. لطالما شعرت عندما أغادر مكاناً استمتعت به، إلى حد ما بأني مثل قطعة فلّين مشدودة تنزع ليرشح النبيذ الأسود الحلو، ثم تحلق إلى مزارع كروم وغزوات جديدة. قضيت شهرين ممتعين، أزور المكتبات في «نيويورك» و»واشنطن»، وطرت

إلى «فلوريدا» للاحتفال بعيد الميلاد، وارتأيت عندما تأهبت لبدء حياتي في «أركادي» قصري الجديد أن الدماثة والواجب يقتضيان أن أبعث للشاعر رسالة مؤدبة أهنئه فيها على استعادة عافيته و»أنبهه» مازحاً إلى أنه سيجاور معجبا متحمسا للغاية ابتداء من شهر فبراير. لم أتلقَّ أبداً أي جواب، ولم يأت أبداً على ذكر مجاملتي، فافترضت أنها ضاعت بين العديد من رسائل «المعجبين» التي يتلقاها مشاهير الأدب، رغم أن المرء قد يتوقع من «سيلفيا» أو أي شخص أن يخبر آل «شايد» بوصولي.

تبين بالفعل أن شفاء الشاعر حصل سريعاً للغاية. كان بودنا أن نصفه بالمعجزة لو لحق أذى عضوي بقلبه. لم يكن الأمر كذلك؛ ذلك أن أعصاب شاعر قد تبتكر أغرب الحيل، لكنها قادرة أيضاً على أن تستعيد إيقاع الصحة بسرعة. إذ سرعان ما أصبح «جون شايد» يتحدث ثانية، وهو جالس على كرسيه عند رأس مائدة بيضوية، عن البابا شاعره المفضل، إلى ثمانية شباب تقاة وامرأة مشلولة من خارج الكلية وثلاث طالبات، إحداهن تستفز أحلام المدرِّسين. قيل له أن يتفادى الحدّ من ممارسته المعتادة، مثل نزهات المشي. لكن يجب أن أقرّ أنني بنفسي عانيت خفقات القلب ورشحات العرق الباردة عند رؤية ذلك الشيخ الجليل يُعمِل معدات الحديقة الخشنة ببراعة أو يطوي أدراج ردهة الكلية مثلما تطوي سمكة يابانية شلالا. بالمناسبة، على القارئ ألا يأخذ على محمل الجد أو بحرفية كبيرة المقتطف حول الطبيب اليقظ (الطبيب اليقظ هو، كما أعرف ذلك حق المعرفة، من يخلط الألم العصبي بتصلب الأنسجة الدماغية). لم يجر أي جراحة مستعجلة، كما علمت من «شايد» نفسه، ولم ينعش القلب عبر ضغطه باليد. وإذا كان قد توقف عن النبض فعلاً، فلا بد أن التوقف كان قصيراً للغاية، إذا جاز التعبير ظاهريّاً. إذ لا يقلل هذا كله، بالطبع، من الجمال الملحمي العظيم لهذا المقطع. (الأبيات ٦٩١ ــ ٦٩٧)

البيت ٦٩٧: وجهة نهائية

حطَّ «غرادوس» في مطار «كوت دازور» في وقت مبكر من ظهيرة يوم ١٥ يوليوز ١٩٥٩. ورغم ما استبد به من قلق، فإنه لم يمنع نفسه من أن يعجب بالشاحنات الرائعة الكثيرة، والدراجات النارية السريعة والسيارات الخاصة ذات الطراز العالمي في المنزه. تذكر الحرارة المتأججة وزرقة البحر العامية، فكرههما. صار فندق «لازولي»، حيث قضى أسبوعاً قبل الحرب العالمية الثانية رفقة إرهابي بوسني مصاب بالسل، حينما كان مكاناً قذراً به مياه جارية يتردد عليه ألمان شباب، وصار الآن مكاناً قذراً به مياه جارية يتردد عليه فرنسيون كهول. وهو يقع في شارع عرْضي، بين طريقين متوازيين مع رصيف المرفأ. كان الهدير المتواصل لحركة المرور المتقاطعة التي تمتزج بجرش وطرق أشغال البناء الجارية تحت إشراف رافعة مقابل الفندق (الذي كان يلفه سكون بائر قبل عقدين) بمثابة مفاجأة بهيجة بالنسبة لـ»غرادوس»، الذي أحب بعض الضوضاء على الدوام ليشغل ذهنه عن التفكير في بعض الأشياء. («هذا يشرد بالذهن»، كما قال لزوجة السائس وشقيقتها المعذورتين.)

بعد أن غسل يديه بعناية، خرج ثانية، تسري رعشة إثارة مثل الحمى عبر عموده الفقري المحدودب. صدر صوت عطسة مكتومة عن رجل ذو سترة خضراء داكنة، كان جالسا إلى إحدى طاولات مقهى على رصيف المشاة، في زاوية شارعه والمنزه، صحبة امرأة واضح أنها مومس، تطبق يديها معاً على وجهها. ظل الرجل يخفي وجهه بيديه وهو يتظاهر بانتظار العطسة الثانية. مشى «غرادوس» على طول جهة الرصيف الشمالية. بعد أن توقف دقيقة أمام واجهة متجر تذكارات، دلف إلى الداخل، فسأل عن سعر فرس نهر صغير مصنوع من الزجاج البنفسجي، ثم اشترى خريطة مدينة «نيس» وضواحيها. وإذ واصل سيره نحو موقف التاكسي في شارع «غامبيتا»، لمح سائحين شابين يرتديان قميصين مبهرجين مبقعين بالعرق، ووجهاهما وعنقاهما ورديان لماعان جراء الحر والتشمس الطائش. كانا يحملان على ذراعيهما معطفيهما المزررين المبطنين بالحرير المطويين بعناية، المناسبين لبدلتيهما السوداوين ذاتي البنطولين العريضين، ولم يرَيا مُخبرَنا الذي شعر بتموج شيء شاحب الألفة عندما لمساه وهما ماضيان، رغم أنه كان غافلا على نحو استثنائي. لم يكونا على علم بوجوده في الخارج أو بمهمته المشوقة. في الحقيقة، لم يكتشف رئيسهما، ورئيسه، أن «غرادوس» موجود في «نيس»، ولا في «جنيف»، إلا منذ بضع دقائق. ولم يبلّغ «غرادوس» أنه مسنود في سعيه بالرياضيين السوفياتيين «أندرونيكوف» و»نياغارين»،

اللذين التقى بهما صدفة مرة أو مرتين على أرض قصر «أونهافا»، عندما كان يعيد تركيب لوح نافذة مكسور ويتحقق لصالح الحكومة الجديدة من ألواح «ريبليسن» النادرة في أحد الدفيئات الملكية السابقة. وفي اللحظة الموالية، ضاع منه خيط التعرف عليهما ما إن استقر، متململاً حذراً كرجل قصير الساقين، في المقعد الخلفي لسيارة «كاديلاك» عتيقة، وطلب أن يقاد إلى مطعم بين «بيلوس» والرأس التركي. من الصعب التنبؤ بآمال رجلنا ونواياه. هل كان يريد فقط أن يلقي نظرة خاطفة، عبر الآس والدفلى، على مسبح متخيل؟ أم يتوقع أن يسمع تتمة مقطوعة «غوردن» البارعة التي تعزفها الآن، بلحن آخر، يدان كبيرتان وقويتان؟ هل سيزحف، والمسدس بيده، إلى حيث يتشمس عملاق، مستلقياً مثل نسر باسط جناحيه، وشعر صدره يرسم نسراً باسطاً جناحيه؟ لا نعرف، ولا «غرادوس» نفسه» ربما يعرف؛ على كل حال، وفر على نفسه رحلة غير ضرورية. فسائقو التاكسي الجدد ثرثارون مثل الحلاقين القدامى. إذ علم قاتلنا الشقي، حتى قبل أن تغادر الـ»كاديلاك» القديمة أسوار المدينة، أن شقيق السائق اشتغل في حدائق فيلا «ديزا»، لكن لا أحد يسكن هناك في الوقت الراهن، فقد سافرت الملكة إلى إيطاليا لما تبقى من شهور يوليوز.

في فندقه، سلمته المالكة المتهللة برقيةً، توبّخه باللغة الدنمركية على مغادرة جنيف، وتأمره بالامتناع عن فعل أي شيء إلى إشعار آخر. كما نصحته بأن ينسى عمله ويسلّي نفسه. لكن ما الذي يمكن أن يسليه (ما عدا أحلامه الدموية)؟ إذ لم يكن مهتما بالسياحة أو بالبحر. فيما توقف عن الشرب منذ زمن طويل. ولم يكن يذهب إلى الحفلات الموسيقية. ولم يكن يقامر. وكانت الأهواء الجنسية تضايقه كثيراً في وقت سابق، إلا أن ذلك انتهى. بعد أن هجرته زوجته، وهي خرّازة بـ«رادوغوفيترا»، (رفقة عاشق غجري)، عاش في الرذيلة مع حماته، إلى أن نقلت، بعد أن أصابها العمى والخزب، إلى ملجأ للأرامل الفقيرات. ومنذ ذلك الحين، حاول مرات عديدة أن يخصي نفسه، فأدخل مستشفى «غلاسمان» بسبب عدوى حادة، إذ شفي الآن، وهو في سن الرابعة

والأربعين، تماماً من الشهوة التي تحبونا بها الطبيعة، المخاتلة العظيمة، لتغرينا بالتوالد. فلا عجب أن تغضبه نصيحة تسلية نفسه. أظن أنني سأوقف هذا التعليق هنا.

الأبيات ٧٠٤ ــ ٧٠٧: نظاما، الخ.

وُلِّف ثالوث «الخلايا المترابطة» توليفاً بارعاً للغاية، إذ يستمد المرء استحساناً منطقيّاً من تفاعل «النظام» و»الجذع».

البيتان ٧٢٧ ــ ٧٢٨: ليس تماماً: كنت نصف ظل فحسب، يا «شايد»

مثال ممتاز آخر عن سمة شاعرنا الخاصة في السحر التوليفي. ذلك أن التورية هنا تنفتح على معنيين إضافيين لكلمة «ظل»، إلى جانب المرادف الواضح ذي «الفرق الدقيق». إذ يدفع الطبيب إلى اقتراح أن «شايد» لم يحتفظ، في غيبوبته، بنصف هويته فحسب، بل كان نصف شبح كذلك. ولأني أعرف الطبيب الخاص الذي عالج صديقي في ذلك الوقت، فإني أجازف بأن أضيف أنه أبله، بما يجعله بعيداً للغاية عن إظهار أي فطنة مثل هذه.

البيتان ٧٣٤ ــ ٧٣٥: ربما... يترنح... المنطاد المترهل... الضعيف

انفجار ثالث للألعاب الطباقية. تكمن خطة الشاعر في أن يعرض، من خلال نسيج نصه ذاته، تعقيدات «اللعبة» التي يبحث فيها عن مفتاح الحياة والموت (انظر الأبيات ٨٠٨ ــ ٨٢٩).

البيت ٧٤١: أضواء الشارع

صباح يوم ١٦ يوليوز (بينما كان «شايد» منكبا على مقطع قصيدته الممتد من البيت ٦٩٨ إلى ٧٤٦)، قرر «غرادوس» المُغْتَمُّ، المرتاع من يوم آخر من الجمود القسري في «نيس» الساخرة ببريقها، المثيرة بضوضائها، ألا يتزحزح، ما لم يطرده الجوع، عن أريكة جلدية ذات مسندين في مكان أشبه بردهة بين الروائح البنية في فندقه القذر. راح يتصفح بتأنٍّ كومة مجلات قديمة موضوعة على طاولة قريبة. جلس هناك، مثل نصب سُكاتٍ صغير، يتنهد، وينفخ خديه، ويلعق إبهامه قبل أن يقلب صفحة، ويحدق في الصور، ويحرك شفتيه نازلا بعينيه مع أعمدة النص المطبوع. بعد أن وضع كل شيء في كومة أنيقة، تراجع إلى الخلف في مقعده، يغلق يديه المحدّبتين ويفتحهما بطرق مختلفة تنم عن السأم ــ عندما قام رجل كان جالسا على مقعد مجاور وسار إلى الوهج الخارجي، تاركاً جريدته خلفه. سحبها «غرادوس» إلى حضنه، وأشرعها ــ

وتجمدت عيناه على عينة غريبة من الأخبار المحلية التي لفتت نظره: اقتحم لصوص فيلا «ديزا»، ونهبوا مكتبا، وسرقوا من صندوق حلي عددا من الأوسمة القديمة الثمينة.

هنا تجسد شيء ما وجب التفكير فيه مليا. هل كان لهذا الحادث البغيض على نحو غامض صلة معينة بسعيه؟ هل وجب أن ينشغل به؟ هل يبرق إلى القيادة العامة؟ يصعب عليه أن يصوغ كلمة واحدة بإيجاز حول حدث بسيط من دون أن يضفي عليها مظهر شفرة. هل يبعث القصاصة عبر البريد الجوي؟ كان في غرفته منهمكاً في قص الجريدة بموسى حلاقة، عندما سمع طرقاً خفيفاً على الباب. أدخل «غرادوس» زائرا غير منتظر ـــ واحد من أعضاء الظلال الكبرى، ظنّه سيكون بعيداً، بعيداً للغاية، في «زمبلا» البرية، السديمية، شبه الأسطورية! يا لها من خدع مذهلة خلابة يلعبها عصرنا الميكانيكي الساحر مع أمّنا العجوز الفضاء وأبينا الشيخ الزمن!

كان رفيقاً مرحاً، مفرطاً في مرحه ربما، ذا سترة مخملية خضراء لم يكن أحد يحبه، لكنه كان صاحب عقل ألمعي بالتأكيد. بدا اسمه، «إزومْرودوف» روسيا بالأحرى، لكنه يعني في الواقع «من آل أومْرود»، وهي قبيلة من قبائل الإسكيمو يرى أناسها أحياناً يجدفون «أومياكاتهم» (وهي قوارب مبطنة بالجلد) في المياه الزمردية لشواطئنا الشمالية. قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة إنه يجب على الصديق «غرادوس» أن يجمع وثائق سفره، بما في ذلك شهادة طبية لإثبات الأهلية الصحية، وأن يركب أول طائرة متاحة إلى نيويورك. هنأه، وهو ينحني، على تحديده، بهذه الفطنة الهائلة، المكان الصحيح والطريقة السليمة. أجل، فبعد مسح شامل للغنيمة التي حصل عليها «أندرون» و»نياغاروشكا» من مكتب الملكة المصنوع من خشب الورد (معظمها فواتير، وصور ثمينة، وتلك الأوسمة التافهة) برزت رسالة من الملك تعطي عنوانه الذي يدل على جميع الأمكنة... إذ طُلِب من رجلنا، الذي قاطع بشير النجاح ليقول إنه لم يسبق له مثيل أبدا، ألا يبدي تواضعاً كبيراً. أخرج «إزومرودوف»، المترجرج بالضحك (الموت ممتع)، قصاصة ورق كتب عليها إلى «غرادوس» اسم زبونهما المستعار، واسم الجامعة حيث يدرس، واسم المدينة حيث تقع. لا، لم تكن القصاصة موجهة للحيازة، حيث يمكنه أن يحتفظ بها فقط أثناء حفظها عن ظهر قلب. لم يكن هذا الصنف من الورق (الذي يستخدمه صناع المعكرون) سهل الهضم فحسب، بل لذيذا. تلاشى الطيف الأخضر المرح ـــ ليستأنف مطاردة العاهرات بلا شك. كم يكره المرء مثل هؤلاء الرجال!

البيتان ٧٤٧ ـــ ٧٤٨: قصة في مجلة حول سيدة اسمها «ز.»

بمقدور أي شخص يستطيع الولوج إلى مكتبة جيدة، بلا شك، أن يقتفي بسهولة أثر تلك القصة حتى مصدرها ويجد اسم السيدة، لكن هذه التوافه الرتيبة لا ترقى إلى العلم الحقيقي.

البيت ٧٦٨: عنوان

سيتسلى القارئ هنا، ربما، بإشارتي إلى «جون شايد» في رسالة (احتفظت لحسن الحظ بنسخة كربونية منها) كتبها إلى متراسلة تقيم في الجنوب الفرنسي يوم ثاني أبريل ١٩٥٩:

عزيزتي، أنت سخيفة. لا أعطيك، ولن أعطيك، أو أي شخص آخر، عنوان بيتي، لا لأنني أخشى أن تبحثي عني، كما تشائين التخمين؛ ذلك لأن جميع رسائلي توجه إلى عنوان مكتبي. إذ تملك بيوت الضواحي هنا صناديق بريد مفتوحة في الشارع، حيث يستطيع كل شخص أن يحشوها بالإعلانات أو يسرق الرسائل الموجهة إليّ (لا لمجرد الفضول، انتبهي، وإنما لدوافع أخرى، أكثر شؤما). أبعث لك هذه الرسالة جوا وألحف على عجل في تكرار العنوان الذي مدتك به «سيلفيا»: الدكتور «س. كينبوت»، «كينبوت « (وليس جنابكم «تشارلز إكس. كينغبوت»، مثلما كتبتِ أو مثلما فعلت «سيلفيا»؛ من فضلك، التزمي حذرا أكبر ـــ وكوني ذكية أكثر)، جامعة «ووردسميث»، «نيوواي»، «أبالاتشيا»، الولايات المتحدة الأمريكية.

لست غاضباً منك، لكن تنتابني كل المخاوف، وأعصابي متوترة. لقد آمنتُ ـــ بعمق وصراحة ـــ بحب شخص أقام هنا، تحت سقفي، لكني تعرضت للأذى والخيانة، مثلما لم يحدث أبداً أيام أجدادي، الذين كان بمقدورهم أن يعذبوا الآثم، وإن كنت لا أرغب بالطبع في تعذيب أحد.

ظل الجو هنا باردا بصورة مخيفة، لكن نشكر الرب الآن أن انقلب الشتاء الشمالي إلى ربيع جنوبي.

لا تحاولي أن تشرحي لي ما يخبرك به المحامي، لكن اطلبي منه أن يشرح ذلك لمحاميّ، وهو سيشرحه لي.

عملي في الجامعة رائع، ولي جار من ألطف الخلق ـــ لا تتنهدي ولا ترفعي حاجبيك، يا عزيزتي ـــ إنه سيد متقدم جدّاً في السن ـــ السيد الكهل في الواقع هو من كان مسؤولاً عن تلك الشذرة حول شجرة الجنكة في ألبومك الأخضر (انظر ثانية ـــ أقصد أن القارئ ينبغي أن ينظر ثانية ـــ إلى البيت ٤٩).

قد يكون الأمر أكثر أمانا إن لم تكتبي كثيراً، يا عزيزتي.

البيت ٧٨٢: قصيدتك

يومئ بسرعة إلى صورة لـ«الدعامات المظللة بالأزرق والقباب التي حوّرتها الشمس» في «مون بلان»، عبر غيمة تلك القصيدة الخاصة التي أتمنى أن أقتبسها، لكنها ليست في متناول اليد. تمثل عبارة «» (الجبل الأبيض) في حلم السيدة، الذي جعله خطأ مطبعي يتناسبwhite mountain white fountainمع «» (النافورة البيضاء) عند «شايد»، «مظهرا موضوعيا هنا، صار منطمساً بسبب نطق السيدة الغريب.

البيت ٨٠٢: «Mounatain»

ألف الشاعر المقطع الممتد من ٧٩٧ (الجزء الثاني من البيت) إلى ٨٠٩، الواقع في جذاذته الخامسة والستين، بين غروب يوم ١٨ يوليوز و١٩ يوليوز. في صباح ذلك اليوم، صليتُ في كنيستين مختلفتين (في صَفَّيْ طائفتي «الزمبلية»، إن جاز التعبير، غير الممثلة في «نيوواي») ومشيت إلى البيت في حالة روحية سامية. لم تعبر أي سحابة السماء الحزينة، بينما بدت الأرض نفسها تتنهد تشبّهاً بسيدنا المسيح عيسى. في مثل هذه الصباحات المشمسة الحزينة، أشعر دائماً في عمق ذاتي أن ثمة دوماً فرصة لكي لا أستبعد من الجنة، وأنني قد أمنح الخلاص رغم الرعب والوحل المتجمد في قلبي. سمعت، وأنا صاعد على الطريق الرملي، منحني الرأس، إلى بيتي المستأجر البائس، صوت «شايد»، بوضوح مطلق، كأنما كان يقف خلف كتفي ويتكلم صارخا، كأنه يحدث رجلا ثقيل السمع، وهو يقول: «تعال الليلة، يا «تشارلي».» نظرت حولي في رهبة وتساءلت: كنت وحيداً تماماً. اتصلت بالهاتف على الفور. غادر آل «شايد»، قالت الخادمة الصفيقة، وهي معجبة تافهة كريهة تأتي لتطبخ لهما أيام الآحاد وتحلم بلا شك أن يعانقها الشاعر الكهل يوم تكون زوجته غائبة. تلفنتُ ثانية بعد ساعتين، فأجابتني «سيبيل»، كما العادة. ألححت على أن أكلم صديقي (لم تنقل «رسائلي» إليه أبدا)، وظفرت به، فسألته بهدوء قدر الإمكان عمَّ كان يفعله في نحو الظهيرة عندما سمعته مثل طائر كبير في حديقتي. لم يستطع أن يتذكر تماماً، وطلب مني أن أنتظر دقيقة، إذ كان يلعب الغولف مع «بول» (أيا كان ذاك)، أو يشاهد «بول» على الأقل، وهو يلعب مع زميل آخر. صرخت أني يجب أن أراه في المساء، ثم انفجرت باكيا فجأة، بلا سبب البتة، فغمرت الهاتف بالدموع وانقطع نفسي، في نوبة لم تحصل لي منذ أن رحل عني «بوب» يوم ٣٠ مارس. تفجرت فورة محادثة ثائرة بين آل «شايد»، ثم قال «جون»: «اسمع يا «تشارلي». لنذهب في نزهة طويلة الليلة. سأقابلك في الثامنة.» كانت تلك جولتي الطويلة الثانية منذ يوم ٦ يوليوز (خلال تلك المحادثة غير المُرْضية حول الطبيعة)، بينما كانت الثالثة، يوم ٢١ يوليوز، قصيرة للغاية.

أين كنتُ؟ نعم، أتجول ثانية خلال الأيام الباردة رفقة «جون»، في أجمة «أركادي»، تحت سماء سلمونية.

قلت بحبور: «حسناً، ماذا كنتَ تكتب الليلة الماضية، يا «جون»؟ ظلت نافذة مكتبك متوهجة بوضوح.»

أجاب: «الجبال.»

انتصبت سلسلة «بيرا»، وهي نصب من الصخر المعرّق والتنوب الأهلب، أمامي بكل سلطانها وفخرها. طفق قلبي ينبض لهذا الخبر السار. شعرت أنني أستطيع الآن، بدوري، أن أكون سخيا. التمست من صديقي ألا يبلغني بأي شيء أكثر إذا لم يرغب في ذلك. قال نعم. لم يفعل، ثم بدأ يشكو صعوبات المهمة التي فرضها على نفسه. قدّر أن دماغه اشتغل نحو ألف دقيقة خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، وأنتج خمسين بيتاً (لنقل إنها الأبيات ٧٩٧ ــ ٨٤٧) أو مقطعاً لفظيّاً كل دقيقتين. أنهى قطعته الثالثة، ما قبل الأخيرة، وشرع في القطعة الرابعة، قطعته الأخيرة (انظر التوطئة، انظر التوطئة على الفور). هل كنت سأنزعج غاية الانزعاج لو أخذنا في العودة إلى البيت ــ رغم أن الساعة لم تشر بعد إلى التاسعة ــ حتى يتمكن من الانغماس في فوضاه، ويستلّ منها، بكل نجومها المبتلة، عالَمَه؟

كيف لي أن أرفض؟ لقد صعد ذلك الهواء الجبلي إلى رأسي: كان يعيد تركيب بلدي «زمبلا»!

البيت ٨٠٣: خطأ مطبعي

لا بد أن يواجه مترجمو قصيدة «شايد» مشكلة في نقل، بجرة واحدة، «» إلىmountain »؛ إذ لا يمكن ترجمتها إلى الفرنسية أو الألمانية أو الروسية أو «الزمبلية». من هنا،fountain« سيتعين على المترجم أن يضعها في حاشية من تلك الحواشي التي هي أروقة مارقة للكلمات. ومع ذلك! ثمة، حسب علمي، حالة استثنائية مطلقة، أنيقة بشكل لا يصدق، لا تنطوي على كلمتين فحسب، بل ثلاثة. والقصة نفسها تافهة للغاية (وربما منحولة). ذلك أن جريدة أوردت في تقرير)، بدل «كورونا»crowحول تتويج قيصر روسي، كلمة «فورونا» خطأً (غراب/). وعندما «صححت» هذا الخطأ في اليوم اللاحق معتذرة، أخطأت مرة ثانية،crown(التاج/ cow ـــ crow ـــ crown). فالتعالق الفني بين سلسلة cowفأوردته بصيغة «كوروفا» (بقرة/ والسلسلة الروسية «كورونا ـــ فورونا ـــ كوروفا» يعدّ من الأمور التي كانت ستبهج شاعري، وأنا متأكد من ذلك. إذ لم أرَ شيئاً مثله في الملاعب المعجمية، حيث تتحدى الاحتمالات الموجهة ضد المصادفة المزدوجة أي تقدير.

البيت ٨١٠: نسيج من المعاني

يشغل المالكُ، وهو رجل سبعيني كهل أعمش يذكرني عرجه الخفيف بـ«شايد»، حجرةً من الحجرات الخمس التي يتألف منها هذا النزل. ويدير محطة بنزين صغيرة في مكان قريب، ويبيع الديدان للصيادين. لا يزعجني في الغالب، لكنه اقترح علي منذ أيام أن «آخذ أي كتاب قديم» من الرّفّ في غرفته. جُلْتُ بنظري عليها، من جانب، ثم إلى الجانب الآخر، لأنني لم أرغب في أن أهينه. لكنها كانت جميعها قصصاً ملغزة ذات غلاف ورقي وصفحات زواياها مطوية، لم تستحق أكثر من تنهيدة وابتسامة. طلب مني أن أنتظر دقيقة، فأخرج من مِخدع في طرف السرير كنزاً بالياً مغطى بقماش. «كتاب عظيم لرجل عظيم»، رسائل «فرنكلين لاين». «اعتدت رؤيته كثيراً في منتزه «راينبير» أيام شبابي عندما كنت حارس غابة هناك. خذه لبضعة أيام. لن تندم على ذلك!»

لم أندم. إليكم مقطعاً هو على نحو غريب رجع صدى نبرة «شايد» في آخر القطعة الثالثة. وهو مأخوذ من شذرة مخطوطة كتبها «لاين» يوم ١٧ ماي ١٩٢١، عشية وفاته، بعد عملية خطيرة: «وإذا مضيت إلى تلك الأرض الأخرى، عمّن سأبحث؟... أرسطو! ـــ آه، سيكون هناك رجل أحدثه! يا له من رضى أن أراه يمسك شريط الحياة الإنسانية الطويل، مثلما يمسك اللُّجُم بين أصابعه، ويقتفي أثره عبر المتاهة المحيّرة في المغامرة العجيبة كلها... فيستقيم المعوج. يصير المخطط الديدالوسي بسيطاً بنظرة من علٍ ـــ تخفيه، إن جاز التعبير، لطخة إبهام ما خبيرة جعلت من كل هذا الشيء الملتف، المحير خطّاً مستقيماً جميلاً واحداً.»

البيت ٨١٩: يلعبون لعبة العوالم

أظهر صديقي اللامع ولعاً طفوليّاً بجميع أصناف اللعب بالكلمات، خاصة بما سمي بغولف الكلمات. كان يقطع تدفق محادثة لامعة، لينغمس في هذه التسلية الخاصة، ويصير فظّاً تجاهي لأني أرفض اللعب معه. تقول بعض تسجيلاتي ما يلي: كره ـــ حب في ثلاثة، آنسة ـــ رجل في أربعة، وحي ـــ ميت في خمسة (مع «مساعدة» في الوسط).

البيت ٨٢٢: يقتلون ملكاً بلقانيّاً

أود بحماسة أن أورد أن النص في المسودة يقول:

يقتلون ملكا «زمبليا»

ـــ لكن الأمر ليس كذلك، للأسف، إذ لم يحتفظ «شايد» بجذاذة هذه المسودة.

البيت ٨٣٠: «سيبيل»، إنها

تأتي هذه القافية المتقنة كخاتمة تتوج القطعة برمتها وتولف الخصائص الطباقية لـ»حوادثها واحتمالاتها».

الأبيات ٨٣٥ ـــ ٨٣٨: الآن سأتجسس، الخ.

تفتتح القطعة، التي بدأ الشاعر تأليفها يوم ١٩ يوليوز على الجذاذة الثامنة والستين، بنمط «شايدي» مثالي؛ وهو الإقحام البارع لعدة عبارات متصادية فيما بينها في مزيج من التضمينات. في الواقع، لن يوفَّى الوعدُ المقدم في هذه الأبيات الأربعة حقّاً ما خلا تكرار إيقاعها التعويذي في الأبيات ٩١٥ و٩٢٣ ـــ ٩٢٤ (المفضية إلى الهجوم الوحشي في الأبيات ٩٢٥ ـــ ٩٣٠). يبدو أن الشاعر سيصفق جناحيه، مثل ديك هائج، استعداداً لتفجير الإلهام المفترض، لكن الشمس لا تشرق. إذ لا نجد، بدل الشعر الجامح الموعود، سوى أطروفة أو اثنتين، وأهجوّة، وإشراقة مدهشة من الرقة والسكينة في آخر القطعة.

الأبيات ٨٤١ ـــ ٨٧٢: نَهْجَين في التأليف

هي ثلاثة، في الواقع، إذا احتسبنا المنهج المهم للغاية الذي قوامه الاعتماد على إشراقة العالم الباطني ونايِه و»أمره الصامت» (البيت ٨٧١).

البيت ٨٧٣: وقتي الأفضل

عندما استهل صديقي العزيز، بهذا البيت يوم ٢٠ يوليوز، حزمة من جذاذاته (الجذاذة الحادية والسبعين إلى الجذاذة السادسة والسبعين، التي تنتهي بالبيت ٩٤٨)، كان «غرادوس»، بمطار «أورلي»، يركب طائرة نفاثة، يحكم ربط حزام مقعده، يقرأ جريدة، يرتفع، يحلّق، ويستبيح السماء.

البيتان ٨٨٧ ــ ٨٨٨: بما أن كاتب سيرتي قد يكون رزينا جدّاً أو لا يعرف إلا النزر القليل

رزين جدّاً؟ يعرف النزر القليل؟ لو أدرك صديقي المسكين من سيكون، لكفى نفسه تلك التخمينات. في الواقع، كان من دواعي سروري وشرفي أن أكون (ذات صباح من صباحات مارس) شاهدا على المشهد الذي يصفه في الأبيات اللاحقة. كنت ذاهبا إلى واشنطن، وقبل أن أنطلق، تذكرت أنه قال إنه يريدني أن أبحث عن شيء ما في مكتبة الكونغرس. أسمع بوضوح كبير في أذن عقلي صوتَ «سيبيل» الهادئ يقول: «لكن «جون» لا يستطيع أن يراك، إنه يستحم»؛ ثم يأتي جؤار «جون» مزمجرا من الحمام: «دعيه يدخل، يا «سيبيل»، لن يغتصبني!» لكن لم نستطع كلانا أن نتذكر ما كان ذاك الشيء.

البيت ٨٩٤: ملك

ظهرت صور الملك مرارا في أمريكا خلال الشهور الأولى للثورة «الزمبلية». بين الحين والآخر، كان فضوليٌّ ما ذو ذاكرة متوثبة في الحرم الجامعي، أو واحدة من نسوة النادي اللواتي يلاحقن «شايد» وصديقه الغريب الأطوار، يسألني بسحنة تافهة تُتَّخذ في حالات مماثلة عمَّا إذا أخبرني أحدهم بمدى شبهي بذلك العاهل التعيس. كنت أرد بشيء ما على غرار «جميع الصينيين يتشابهون» وأغيّر الموضوع. غير أني وجدت نفسي، ذات يوم بصالة نادي الكلية حيث كنت أسترخي محاطاً بعدد من زملائي، مجبراً على أن أتحمل هجوماً محرجاً بوضوح. إذ ظل محاضر ألماني زائر من أوكسفورد يهتف، بصوت مسموع كأنما يهمس لنفسه، أن هذا التشابه «لا سابق له على الإطلاق»، وعندما لاحظت مهملاً ما قاله أن جميع «الزمبليين» يشبهون بعضهم البعض ــ وأن اسم «زمبلا» ليس، في الواقع، تحريفاً للاسم الروسي «زمليا»، بل لـ»سمبلرلاند»، وهي أرض الانعكاسات، وأرض «المتشابهين» ــ قال معذِّبي: «آه، نعم، لكن الملك «تشارلز» لم يكن ذا لحية، لكنه وجهه تماماً! [أضاف قائلاً] كان لي شرف الجلوس على بعد بضع ياردات من الشرفة الملكية خلال مهرجان رياضي في «أونهافا» التي زرتها رفقة زوجتي، وهي سويدية، سنة

١٩٥٦. ولنا صورة له في البيت، وشقيقتها تعرف جيداً والدة أحد خدمه، وهي امرأة مثيرة للاهتمام. [كاد يأخذ بتلابيب «شايد»] ألا ترى تشابه الملامح المذهل ـــ تشابه الجانب الأعلى من الوجه، والعينين، نعم، العينين، وقصبة الأنف؟»

«كلا، يا سيدي» [قال «شايد»، وهو يثني ساقاً ويترنح قليلاً في أريكته كما تعود عندما يوشك أن يدلي برأي] «ليس هناك أي تشابه على الإطلاق. لقد رأيت الملك في نشرات الأخبار، وليس هنا أي شبه. التشابهات هي ظلال الاختلافات، إذ يرى الأشخاص المختلفون تشابهات مختلفة واختلافات متشابهة.»

لاحظ «نيتوشكا» الطيب، الذي بدا متضايقاً بشكل كبير من هذه المحادثة، بصوته الوديع كم هو محزن أن يفكر المرء في أن يكون مثل هذا «الحاكم العطوف» قد هلك في السجن.

التحق بنا الآن أستاذ فيزياء. كان يدعى «وردي»، وكان يؤمن بما يؤمن «الورديّون» أنه (تربية تقدمية، أمانة كل من يتجسس لصالح روسيا، الإشعاعات الناجمة فقط عن القنابل الأمريكية الصنع، الوجود في الماضي القريب لعصر «مكارثي»، المنجزات السوفياتية بما في ذلك دكتور «جيفاغو»، وغير ذلك) [قال]: «لا أساس لحسراتكم. من المعروف أن ذلك الحاكم الحزين هرب متنكرا في زي راهبة. لكن مهما حدث له، أو يحدث، لا يمكن أن يثير اهتمام الشعب «الزمبلي». لقد أدانه التاريخ، وفي ذلك مرثيته.»

قال «شايد»: «صحيح، يا سيدي. في لحظة من الزمن، سيدين التاريخ الجميع. ربما مات الملك، أو قد يكون حيا يرزق مثلك ومثل «كينبوت»، لكن دعونا نحترم الحقائق. علمت منه [مشيراً إليَّ] أن القصة الرائجة في نطاق واسع حول الراهبة فرية سخيفة مؤيدة للمتطرفين. إذ لفق المتطرفون وأصدقاؤهم الكثير من الهراء لإخفاء خيبتهم، لكن الحقيقة تفيد أن الملك خرج من القصر ماشيا، وعبر الجبال، وغادر البلد، لا في كساء أسود لعانس شاحبة، بل مرتديا لباسا رياضيا من الصوف القرمزي.»

«غريب، غريب»، قال الزائر الألماني، الوحيد الذي التقط، بخاصية أرومة شجر الحور، الأغرودة الغريبة التي خفقت واختفت.

قال «شايد» [وهو يبتسم ويدلك ركبتي]: «لا يموت الملوك ـــ يختفون فحسب، آه، يا «تشارلز»؟»

«من قال ذلك؟» سأل بحدة رئيس الشعبة الإنجليزية، الجاهل والمرتاب على الدوام، كأنما خرج من غشية.

واصل صديقي، متجاهلا السيد «هـ».: «خذ حالتي الخاصة. قيل إنني أشبه أربعة أشخاص على الأقل: «صامويل جونسن»؛ وسلَف الرجل الذي أعيد بناء نصبه بعطف في متحف «إكستن»؛ وشخصين محليين، أحدهما هذه الحيزبون الشعثاء المتهورة التي تغرف العصيدة في مقصف صالة «ليفين».

«الثالثة في صف الساحرات»، قلتُ بتدقيق جذاب، فضحك الجميع.

لاحظ السيد «باردن» ـــ التاريخ الأمريكي: «سأقول بالأحرى إنها تبدو مثل القاضي «غولدسوورث»» («واحد منا»، تدخل «شايد» مطأطئاً رأسه)، «خاصة عندما يهتاج فعلاً ضد الجميع بعد عشاء جيد.»

انطلق «نيتوشكا» بسرعة: «سمعت أن آل «غولدسوورث» يقضون وقتاً رائعاً...»

تمتم الزائر الألماني: «يا للأسف، لا أستطيع إثبات وجهة نظري. حبذا لو وُجِدَتْ هنا صورة. أليست هناك واحدة في مكان ما...»

«بالتأكيد»، قال الشاب «إميرالد»، ثم قام عن مقعده.

كلمني الآن الأستاذ «باردن»: «راودني انطباع أنك ولدت في روسيا، وأن اسمك كان نوعاً من جناس «بوتكين» أو «بوتكيني»؟»

«كينبوت»: «أنت تخلط بيني وبين لاجئ من «زمبلا» الجديدة» [ساخراً بتشديده على «الجديدة»].

سأل عزيزي «شايد»: «ألم تخبرني، يا «تشارلز»، أن «كينبوت» تعني قاتل الملك في لغتك؟»

«نعم، مُهلك الملك»، قلتُ (متطلعاً لأن أشرح أن الملك الذي يغرق هويته في مرآة المنفى هو ذاك بالضبط بمعنى ما).

قال «شايد» [مخاطبا الزائر الألماني]: «الأستاذ «كينبوت» هو مؤلف كتاب حول الألقاب. أعتقد [متوجها إلي] أن هناك ترجمة إنجليزية؟»

أجبت: «أوكسفورد، ١٩٥٦.»

قال «باردن»: «هل تعرف الروسية، مع ذلك؟ أظن أنني سمعتك، قبل بضعة أيام، تكلم ـــ ما اسمه ـــ آه، يا إلهي» [مجتهدا في تحديد الاسم بشفتيه].

قال «شايد»: «يا سيدي، إننا جميعاً نجد صعوبة في مهاجمة ذلك الاسم» [ضاحكا].

علّق الأستاذ «هورلي»: «فكِّر في الكلمة الفرنسية المقابلة «للعجلة»: «بونو».»(50)
رد «شايد»: «لماذا، يا سيدي؟ أخشى أن تكون قد خرمت فقط عجلة الصعوبة» [جلجلت ضحكته].

قلتُ ساخرا: «الرجل الأبطح.» واصلت ملتفتا إلى «باردن»: «أنا أتحدث الروسية بالتأكيد. كما ترى، كانت اللغة الدارجة بامتياز، بصورة أكبر بكثير من الفرنسية، على ألسنة نبلاء «زمبلا» على الأقل، وفي بلاطها. وقد تغير كل هذا اليوم، بالطبع. صارت الآن الطبقات الدنيا هي التي تتعلم التحدث بالروسية قسرا.»

قال «الوردي»: «ألسنا نحاول، نحن أيضاً، تدريس الروسية في مدارسنا؟»

في تلك الأثناء، كان الشاب «إميرالد»، في طرف الصالة الآخر، يتسارّ مع الرفوف. عاد في تلك اللحظة بجزء من موسوعة مصورة، مفهرسة من Z إلى T.

قال: «حسناً، ها هو ذلك الملك. لكن انظروا، إنه شاب ووسيم» («آه، ذلك لن يفيد»، عوى الزائر الألماني). واصل «إميرالد»: «شاب، وسيم، ويرتدي بدلة فاخرة. في الواقع، فاخرة مثل بدلة المخنث تماماً.»

قلتُ بهدوء: «وأنت جرو ملوث الروح بسترة خضراء رخيصة.»

«لكن ماذا قلتُ؟» استفسر الأستاذ الشاب الرفاق، مشرعاً راحتيه مثل مريد في لوحة العشاء الأخير لـ»ليوناردو».

قال «شايد»: «الآن، الآن، أنا متأكد، يا «تشارلز»، أن صديقنا الشاب لم يقصد أبداً أن يسيء إلى ملكك الذي يحمل اسمك نفسه.»

«لم يستطع، حتى لو رغب في ذلك»، لاحظتُ بهدوء، محولا الأمر كله إلى دعابة.

مدّ «جيرالد إميرالد» يده ـــ التي ما تزال في ذلك الوضع منذ لحظة الكتابة.

الأبيات ٨٩٥ ـــ ٨٩٩: كلما زاد وزني... أو هذا الغبب

تمدنا المسودة، بدل هذه الأبيات السهلة والمقززة، بما يلي:

أعترف، لي ولع أكيد ٨٩٥

بالمحاكاة، ملجأ الفطنة الأخير ذاك:

«في صراع الطبيعة عندما تسود الشجاعة

تترنح الضحية ويخفق الغالب.»

نعم، أيها القارئ، أيها البابا ٨٩٩

البيت ٩٢٠: تَزْبَئِرُّ لها جميع الشعيرات

يقول «ألفريد هوسمان» (١٨٥٩ ـــ ١٩٣٦)، الذي تتنافس مجموعته فتى «شروبشاير» مع ذكرى(51) «ألفريد تينيسن» (١٨٠٩ ـــ ١٨٩٢) بوصفه يمثل، ربما (لا، لنحذف هذه الكلمة الرعديدة «ربما»)، أسمى منجز في الشعر الإنجليزي خلال مائة عام، خلاف ذلك تماماً في موضع ما (في توطئة؟): كان انتفاش الشعيرات المستثارة يعوق حلاقته؛ لكن بما أن الـ»ألفريدين»

معاً استعملا بالتأكيد موسى عادية ، و»جون» «جيليتا» قديما، فربما يكون التضارب نتاج استعمال أدوات مختلفة.

البيت ٩٢٢: يدعمها مرهمنا

هذه العبارة ليست دقيقة تماماً. ذلك أن الشعيرات، في الإشهار الذي تحيل عليه، تسندها رغوة فقاعية، لا مادة مرهمية.

بعد هذا البيت، نجد بدل الأبيات ٩٢٣ ـــ ٩٣٠ الأبيات البديلة التالية التي انمحت قليلاً:

ولد الفنانون كلهم فيما يسمونه

عصرا بائسا، عصري أسوأ كل العصور:

عصر يرى أن القنابل ومراكب الفضاء

لا يصنعها سوى عبقري ذي اسم غريب،

بينما يستطيع أي غبي أن يركّب هذه الأشياء

عصر قد تخدع فيه عصبة أوغاد

السلينوغراف؛ عصر مضحك

يرى في الدكتور «شفايتزر» حكيماً عظيماً.

بعد أن شطب الشاعر هذه الأبيات، جرّب تيمة أخرى، لكنه ألغى هذه الأبيات كذلك:

إنجلترا حيث حلّق الشعراء في الأعالي،

تريدهم الآن أن يمشوا الهوينى، وأن يحرثَ «بيغاسوس» الأرض؛

الآن باعة النثر في الجماعة الوضيعة،

الإنسان الرسالة ، الأبله شبيه البوم

وجميع الروايات الاجتماعية في عصرنا

لا تترك سوى حفنة من رماد الفحم على الصفحة.

البيت ٩٢٩: «فرويد»

أرى ثانية بعينيْ عقلي الشاعرَ ينهار حرفيا على روضته، يضرب العشب بقبضته، ويهتز ويعوي بالضحك، وأنا نفسي، الدكتور «كينبوت»، ينهمر سيل الدموع على لحيتي، وأنا أحاول أن أتماسك أثناء قراءة بعض الشذرات من كتاب سرقته من قسم؛ وهو مؤلف علمي حول التحليل النفسي يستعمل في الكليات الأمريكية، أكرر القول إنه يستعمل في الكليات الأمريكية. للأسف، لا أجد سوى عنصرين محفوظين في مذكرتي:

عند إدخال الأصبع في الأنف رغم كل الأوامر التي تشير إلى خلاف ذلك، أو عندما يظل شاب يولج أصبعه في عروة سترته طوال الوقت، يدرك الأستاذ المحلل أن شهوة الشخص الشبق لا تعرف حدودا في استيهاماته.

(اقتبسه الأستاذ «س.» من الدكتور «أوسكار فيستر»، منهج التحليل النفسي، ١٩١٧، نيويورك، ص. ٧٩)

ترمز القبعة الصغيرة من المخمل الأحمر في النسخة الألمانية من الملازم الأحمر الصغير إلى الحيض.

(اقتبسه الأستاذ «س.» من «إريك فروم»، اللغة المنسية، ١٩٥١، نيويورك، ص. ٢٤٠)

هل يؤمن أولئك المهرجون بما يدرسونه حقّاً؟

البيت ٩٣٤: شاحنات كبيرة

يجب أن أقول إنني لا أذكر أنني كنت أسمع غالباً مرور «شاحنات كبيرة» في جوارنا. سيارات صاخبة، نعم ـــ لكن ليس شاحنات.

البيت ٩٣٧: «زمبلا» القديمة

صرتُ اليوم شارحاً متعباً وحزيناً.

كتب الشاعر، موازاة مع الجانب الأيسر من هذه الجذاذة (السادسة والسبعين)، عشية موته، بيتاً (من رسالة البابا الثانية مقالة حول الإنسان) ربما كان ينوي الاستشهاد به في هامش ما:

في «غرينلاند»، «زمبلا»، أو حيث يعرف الرب

إذا، هذا كل ما كان يستطيع أن يقوله «شايد» الشيخ الخائن عن «زمبلا» ـــ بلدي «زمبلا»؟ وهو يحلق لحيته؟ غريب، غريب...

البيتان ٩٣٩ ـــ ٩٤٠: حياة الإنسان، الخ.

إذا فهمت معنى هذه الملاحظة الوجيزة فهماً صحيحاً، فإن شاعرنا يوحي هنا أن الحياة البشرية ليست سوى سلسلة من الحواشي على تحفة مغمورة ضخمة غير مكتملة.

البيت ٩٤٩: وطيلة الوقت

هكذا، بدأ «جون شايد»، في وقت ما صباح ٢١ يوليوز، وهو آخر أيام حياته، حزمته الأخيرة من الجذاذات (من السابعة والسبعين إلى الثمانين). انصهرت الآن منطقتان زمنيتان صامتتان لتشكلا الزمن المعياري في قدر رجل واحد. وليس مستحيلا أن يستيقظ الشاعر في «نيوواي» والسفاك في نيويورك، في ذلك الصباح، عند التكة نفسها لساعتيهما الموقّتتين.

البيت ٩٤٩: وطوال الوقت

وكان يقترب طوال الوقت.

رحبت عاصفة رعدية هائلة بـ«غرادوس» في نيويورك ليلة وصوله من باريس (الاثنين ٢٠ يوليوز). إذ غمرت الأمطار المدارية الدور الأرضية وطرق الأنفاق، وتراقصت الانعكاسات الملوّنة في الشوارع التي صارت شبيهة بالأنهار. لم يرَ «فينوغرادوس» منظر برق مثل هذا أبداً، ولا «جاك دارغوس» ـــ أو «جاك غراي»، لذلكم (دعونا لا ننسى «جاك غراي»!). نزل فندقاً من الدرجة الثالثة في «برودواي» ونام نوما عميقا، مستلقيا على بطنه على أغطية السرير، بمنامة مخططة ـــ من ذلك النوع الذي يسمّيه «الزمبليون» بـ«بدلة النسيج القطني الروسي») ـــ محتفظاً بجواربه كالعادة؛ ذلك أنه لم يرَ قدميه عاريتين منذ ١١ يوليوز، عندما ذهب إلى حمام فنلندي في سويسرا.

أما اليوم، فهو الحادي والعشرون من يوليوز. في الساعة الثامنة صباحا، أيقظت نيويورك «غرادوس» بدويٍّ وهدير. كما جرت العادة، بدأ حياته اليومية المشوشة بنثر أنفه. ثم أخرج طقم أسنان كبيراً ورهيباً على نحو استثنائي من علبته الليلية المصنوعة من الورق المقوى، وأدخله في فمه ذي لفاع «كوموس»: وهو العيب الدميم الوحيد حقّاً في مظهره البريء بالأحرى. بعد ذلك، أخرج من محفظته كعكتين صغيرتين من سكر وزبدة احتفظ بهما، وساندويتشاً بائتاً بالأحرى محشوّاً بما يشبه شرائح لحم الخنزير، لكنه صغير وناعم وهشيش وسائغ تماماً، مقترن على نحو غامض برحلة القطار من «نيس» إلى باريس ليلة السبت السابق. لم يكن الأمر عنده يتصل كثيراً بالتوفير (إذ قدمت له الظلال مبلغا سخيا، على كل حال)، وإنما بتعلق حيواني بعادات شبابه الضنين. بعد أن أفطر في السرير بهذه الأطايب، بدأ الاستعدادات لأهم يوم في حياته. كان قد حلق بالأمس ـــ فحل بذلك مسألة الذقن. لم يحشُ منامته الوفيّة في حقيبة سفره، بل في محفظته. ارتدى ملابسه. أخرج من داخل سترته مشطاً ورديّاً منقوشاً، مسدودة أسنانه، وخلّل بها شعره الخشن. سوّى قبعته بعناية. غسل يديه بصابون سائل جميل وحديث في المغسلة البهيجة والحديثة، العديمة الرائحة تقريباً، في الممر. تبول وغسل يدا واحدة. خرج للتنزه، وهو يشعر أنه نظيف وأنيق.

لم يزر نيويورك من قبل أبداً؛ لكنه لم يبد حديث العهد بالمدينة، مثل العديد من أشباه المعتوهين. ففي الليلة السابقة، أحصى صفوف النوافذ المتصاعدة في عدة ناطحات سحاب، وها هو يشعر، الآن بعد أن تحقق من علو بضع بنايات أخرى، أنه عرف كل ما كان يجب أن يعرفه. أخذ كوباً مترعاً ونصف فنجان من القهوة من موزع آلي محتشد ومبلل، وقضى بقية الصباح الرمادي ينتقل من مقعد إلى آخر، ومن جريدة إلى أخرى، في الممرات الغربية بحديقة «سنترال بارك».

بدأ بعدد اليوم من صحيفة نيويورك تايمز. قرأ عن كل شيء، وشفتاه تتحركان مثل دودتين متصارعتين. كان «هروتشوف» (الذي يتهجونه «خروتشيف» قد أجل فجأة زيارة مرتقبة إلى اسكندنافيا، وأخذ يتأهب لزيارة «زمبلا» بدل ذلك (هنا أَلْحَن: أنتم تسمون أنفسكم «الزمبليين»،

وأنا أدعوكم رفاقي المواطنين!» تتعالى القهقهات والتصفيقات.) وتأهبت الولايات المتحدة لتطلق سفينتها التجارية الأولى ذات الدفع الذري (فقط لتزعج الروس، بالطبع. ج. غ.). وفي الليلة السابقة في «نيووارك»، أصيب منزل سكني في الشارع الجنوبي ٥٥٥ بصاعقة حطمت جهازاً تلفزيونيّاً وجرحت شخصين كانا يشاهدان ممثلة مفقودة في عاصفة استوديو هوجاء (تلك الأرواح المعذبة رهيبة! تـ. إكس. ك. اختبار ج. ش.). وقالت شركة مجوهرات «راتشيل» في بروكلين، في إعلان، إنها تبحث عن مُلمِّع مجوهرات «صاحب تجربة في الحلي الرخيصة» (آه، كان «دوغري» كذلك!). وقال الأخوان «هِلمان» إنهما ساعدا في المفاوضات من أجل وضع إشعار مهم: «١١.٠٠٠.٠٠٠ دولار، شركة «ديكر» لتصنيع الزجاج، شركة محدودة، إشعار مفتوح إلى فاتح يوليوز ١٩٧٩»، ثم أعاد «غرادوس»، صار شابا ثانية، قراءة هذا الإشعار مرتين، ربما بالخلفية الفكرية الرمادية لرجل سيبلغ الرابعة والستين بعد أربعة أيام من ذلك الحدث (لا تعليق). وجد على مقعد آخر عدد الاثنين من الجريدة نفسها، ورد فيه أن ملكة إنجلترا سارت، خلال زيارة إلى متحف في «وايتهورس» (ركل «غرادوس» حمامة اقتربت منه كثيراً)، نحو زاوية في صالة الحيوانات البيضاء، وخلعت قفاز يدها اليمنى الأحمر، وحكت جبهتها وفركت إحدى عينيها، وهي تدير ظهرها للعديد من الأشخاص المنتبهين إليها بشدة جلية. واندلعت انتفاضة مؤيدة للمعسكر الأحمر في العراق. وأجاب «كارل ساندبورغ»، وهو شاعر، عندما سئل عن المعرض السوفياتي في «كوليزيوم» نيويورك، وأقتبس ما قاله: «إنهم يوجهون نداءاتهم إلى أعلى المستويات الفكرية.» وقال هاوٍ مكلف بمراجعة كتب السياح الجديدة، مستعرضاً رحلته عبر النرويج، إن المضايق البحرية ذائعة الصيت، إذ لا تحتاج إلى وصفـــ(ـــه)، وإن جميع الاسكندنافيين يحبون الورود. وفي نزهة لأطفال من جنسيات مختلفة، صرخ ولد «زمبلي» صغير لصديقه الياباني: وداعا، وداعا، حتى نلتقي في «زمبلا»! أعترف أنه كان لعباً مدهشاً ـــ هذا البحث في مكتبة جامعة «ووردسميث» عن رزنامات متعددة من فوق ظل كتف مبطّن.

راجع «جاك دارغوس» ساعته للمرة العشرين. وتنزه مثل حمامة ويداه خلفه. لمّع حذاءه «الماهوغاني» ـــ واستطاب الطريقة التي يطقطق بها الولد الجميل، لكن المتسخ، خرقته المشدودة. أتى، في مطعم بـ«برودواي»، على وجبة كبيرة من لحم خنزير وردي بالكرنب المخلل، وحصة مزدوجة من بطاطس مقلية رخوة، ونصف بطيخة مفرطة النضج. تأملتُه من غيمتي المستأجرة بدهشة هادئة: ها هو، هذا المخلوق المتأهب لاقتراف فعل شنيع ـــ من يستمتع بفظاظة بوجبة رديئة! يجب أن نفترض، كما أعتقد، أن عرض ما له من خيال توقف عند الفعل، مشارفا على جميع عواقبه الممكنة؛ العواقب الطيفية المماثلة لأصابع قدم شبح مبتور الأطراف أو لكشف مربعات إضافية «يشعر» فارس الشطرنج (تلك القطعة التي تتخطى الخانات)، وهو واقف في طابور هامشي، بنفسه يتمدد تمددات شبحية خارج الرقعة، لكن ليس لها أي أثر مهما كان في تحركاته الواقعية، في اللعبة الواقعية.

قفل عائدا، ودفع ما يقابل ثلاث آلاف كرونة «زمبلية» مقابل إقامته القصيرة، لكن الرائعة في فندق «بيفرلاند». عهد بحقيبته الليفية، مأخوذا بوهم فطنة عملية، وكذا بمعطفه الواقي من المطر ـــ بعد لحظة تردد ـــ لحارس خزانة مجهول في محطة ـــ حيث مازالا، كما أفترض، محجوبين عن

الأنظار، كما صولجاني المحلى بالجواهر وقلادتي الياقوتية وتاجي المرصع بالماس ـــ بصرف النظر عن المكان. لم يأخذ، في رحلته المصيرية، سوى المحفظة
السوداء الرثة التي نعرف: كانت تحتوي على قميص نايلون نظيف، ومنامة وسخة، وموسى حلاقة، وكعكة ثالثة، وعلبة كرتون فارغة، وورقة مصورة سميكة لم ينته منها تماماً في المنتزه، وعين زجاجية صنعها ذات مرة لخليلته العجوز، واثنتي عشرة نشرة نقابية، تقع كل واحدة في عدة نسخ، طبعها بيديه منذ سنوات عديدة.

كان عليه أن يتقدم للتسجيل في المطار في الساعة الثانية بعد الزوال. لم يستطع، في الليلة السابقة، عند إجراء الحجز، أن يحصل على تذكرة في رحلة الصباح الباكر إلى «نيوواي» بسبب انعقاد مؤتمر هناك. راجع جدول مواعيد القطارات، لكن يظهر بوضوح أن مهرجاً كثير المزاح هو من اتخذ ترتيباتها الضرورية، لأن القطار المباشر الوحيد المتاح (الذي سماه طلابنا المهتزون والمرتجون بـ«العجلة المربعة») غادر في الساعة الخامسة وثلاث عشرة دقيقة صباحاً، إذ يتوقف في محطات اختيارية، ويستغرق إحدى عشرة ساعة ليقطع أربعمائة ميل إلى «إكستن». بمقدورك أن تحتال عليه بالسفر مروراً بواشنطن، لكن ستجبر، بعد ذلك، على أن تنتظر هناك قطاراً محليّاً خاملاً ثلاث ساعات على الأقل. لم تكن الحافلات واردة عند «غرادوس» لأنه كان يصاب دائماً بالدوار عندما يركبها، ما لم يخدر نفسه بأقراص «فارمامين»، وذلك قد يؤثر في غايته. لم يكن يشعر بالثبات على كل حال، بعد أن فكر في الأمر.

بات «غرادس» الآن أقرب منا في المكان والزمان مما كان في القطع السابقة. له شَعر أسود قصير ممشوط. نستطيع أن نملأ المستطيل الكئيب في وجهه بمعظم عناصره مثل الحاجبين الكثين وثؤلول في الذقن. له بشرة متوردة، لكنها معتلة. نرى، باعتدال في التركيز، بنية أعضاء رؤيته الساحرة إلى حد ما. نرى أنفه المغموم بنتوئه المعقوف وأرنبته المثلمة. نرى زرقة حنكه الفلزية والخط المنقط الخشن في شاربه المحلوق.

نحن مطلعون قبل الآن على بعض حركاته. نعرف ترهل الشيمبانزي بجسده العريض وقائمتيه الخلفيتين القصيرتين. قيل لنا ما هو كافٍ حول بدلته المجعدة. إذ يمكننا أخيراً أن نصف ربطة عنقه، وهي هدية عيد الفصح أهداها له نسيبه، الجزار المتأنق في «أونهافا»: ربطة من الحرير الزائف، ذات لون بنّي داكن، مخططة بالأحمر، طرفها محشو في القميص بين الزّرّين الثاني والثالث، وهي صرعة «زمبلية» تعود إلى ثلاثينيات القرن العشرين ـــ وهي تحل محل صداريات الآباء، حسب العارفين. يكسو الشَّعر الأسود الشنيع يديه الخشنتين العفيفتين، اليدين النظيفتين بإفراط لحرفيٍّ متطرف في انتمائه النقابي، بتشوّه بارز في الإبهامين معاً؛ الخاصين بصناع نقرة الشمعدان. نرى، على نحو مفاجئ بالأحرى، بدنه الخَضِل. بل نستطيع أن نتبين (ونحن ننفذ عبره ـــ وجها لوجه، لكن بأمان تام، مثل أطياف ـــ عبر المروحة المتلألئة لآلته الطائرة، عبر المبعوثين الذين يلوحون ويبتسمون لنا) دواخله القرمزية والتوتية، والموج البحري الغريب، لكن غير البهيّ الهائج في أحشائه.

نستطيع الآن أن نذهب أبعد من ذلك وأن نصف، لطبيب أو أي شخص آخر يرغب في الاستماع إلينا، حالة هذا القرد الروحية. كان بمقدوره أن يقرأ ويكتب ويقدّر، إذ وُهِب نزرا من الوعي بالذات (لم يكن يعرف ما يفعل به)، وبعض الإحساس بالأمد، وذاكرة جيدة تحفظ الوجوه والأسماء والتواريخ وما شابه. لم يكن موجودا من الناحية الروحية. وكان، من الناحية الأخلاقية، دمية تلاحق دمية أخرى. فالفكرة التي مفادها أن سلاحه هو سلاح حقيقي، وأن طريدته كائن بشري بالغ التهذيب، كانت تنتمي إلى عالم الأحداث عندنا؛ لا معنى لها في عالمه هو. أقرّ لكَ أن فكرة تدمير «الملك» تمنحه قدرا ما من المتعة؛ من ثمة، ينبغي أن نضيف إلى لائحة مواهبه الشخصية القدرةَ على صياغة المفاهيم، خاصة المفاهيم
العامة، كما ذكرت في تعليق آخر لن أزعج نفسي بالبحث عنه. قد يكون هناك (وأنا أجيز كثيراً) استحسان حسي طفيف، طفيف للغاية، ليس أكبر، كما يمكنني القول، مما يستمتع به متمتع صغير عندما يخلع السدادة الأنقليسية شبه الشفافة لبثرة ـــ ويتنهد تنهيدة ارتياح، لحظة وقوفه أمام مرآة مكبّرة، وهو يحبس نفَسه وظفرا إبهاميه يضغطان بإحكام قاتل على كلا جانبي نقطة. لم يكن «غرادوس» ليقتل أحدا لو لم يستمد المتعة، ليس فقط من الفعل المتخيل (بقدر ما كان قادراً على تخيل مستقبل ملموس)، بل أيضاً من تكليفه بمهمة جسيمة ومسؤولة (صدف أنها تتطلب منه أن يقتل) من طرف جماعة أشخاص يشاطرونه مفهومه حول العدالة، لكنه لم يكن ليقبل تلك الوظيفة لو لم يجد في القتل شيئاً أشبه بتلك الرعشة الضئيلة المقرفة بالأحرى عند مُضادّ البثور.

لقد نظرت، في تعليقي الأسبق (أرى الآن أنه التعليق على البيت ١٧١)، في حالات النفور الخاصة؛ ومن ثمة دوافع «رجلنا العفوي»، كما عبرتُ عن ذلك في زمن لم يكن يتمتع فيه بجسد حقيقي، ولم يكن يخدش الحواس بعنف كما يفعل الآن؛ عندما أبعد، باختصار، من قصرنا «أركادي» المشمس، الأخضر، ذي العشب الفواح. لكن ربنا سوّى الإنسان في صورة رائعة للغاية، إذ لا يمكن للبحث عن الدافع والاستقصاء العقلاني أن يفسرا أبداً تفسيراً واقعيّاً كيف ولماذا يصير شخص ما قادراً على تدمير مخلوق قرين (أعرف أن هذه الحجة تقتضي أن نمنح «غرادوس» مقام الإنسان مؤقتا)، إلا إذا كان يدافع عن حياة ابنه، أو حياته هو، أو مكسب العمر؛ لعلني أسلم في الحكم النهائي في قضية «غرادوس» ضد التاج أن نقصانه الإنساني لو عُدَّ غير كافٍ لتفسير رحلته الغبية عبر المحيط الأطلسي لمجرد إفراغ ذخيرة مسدسه، لأقررنا ربما، يا دكتور، بأن نِصْف رجلنا كان نصف مخبول كذلك.

وجد نفسه، على متن الطائرة الصغيرة والمزعجة المحلقة نحو الشمس، محشوراً بين العديد من المبعوثين المتأخرين إلى مؤتمر اللسانيات في «نيوواي»، جميعهم يحملون الدمغة ذاتها على طية صدر السترة، ويمثلون اللغة الأجنبية نفسها، لكن لا أحد منهم يستطيع التحدث بها، لذا جرى ذلك الحديث (فوق قاتلنا المحدودب وعلى جميع جوانب وجهه الجامد) بلغة إنجليزية ـــ أمريكية عادية بالأحرى. ظل «غرادوس» المسكين، خلال هذه المحنة، يتساءل عما سبّب إزعاجاً آخر ظل يؤرقه بين الفينة والأخرى طيلة الرحلة، وكان أسوأ من ثرثرة اللغويين أحاديي اللسان. لم يستطع أن يعزوه إلى مصدر ما ـــ أهو لحم الخنزير، أم الكرنب، أم البطاطس المقلية، أم البطيخ ـــ لأنه لم يجد، ما إن تذوق هذه المواد ثانية الواحدة تلو الأخرى، متذكراً إياها بتشنج، سوى خيارات ضئيلة

بين نكهاتها المختلفة، لكن المقرفة بصورة متساوية. فرأيي الخاص، الذي أود أن يؤكده الطبيب، هو أن الشطيرة الفرنسية كانت تخوض حربا معوية ضروسا مع البطاطس المقلية.

عندما وصل إلى مطار «نيوواي» بعد الخامسة، شرب ملء كوبين ورقيين من حليب بارد لذيذ من الموزع الآلي، وحصل على خريطة من مكتب الاستقبال. نقر بأصبعه الغليظ الخشن على موضع المجمع الجامعي الذي يشبه معدة متضوّرة، وسأل الموظف عن أقرب فندق إلى الجامعة. قيل له إن سيارة ستقله إلى فندق الجامعة الذي يبعد عن الصالة الرئيسة (صالة «شايد» الآن) مسافة بضع دقائق مشيا. صار واعيا، في الطريق، بهواجس ملحة، حتى إنه أجبر على أن يسارع إلى المغسل ما إن وصل إلى الفندق المحجوز عن آخره. هناك حُلَّت معاناته من هضم عسير أفضى إلى سيل حارق. ما كاد يشد حزام سرواله ثانية ويدرأ النتوء البارز من جيبه جهة الخاصرة، حتى أرغمه تجدد الوخزات والقرقرات على كشف عورة فخذيه مجدداً، حيث فعل ذلك باندفاع أخرق حتى إنه كاد يرسل مسدسه «براونينغ» الصغير إلى أعماق المرحاض.

كان ما يزال يتأوه ويجرش طقم أسنانه عندما عاد هو ومحفظته ليهينا الشمس من جديد. كانت تشع عبر الأشجار بجميع أصناف الانعكاسات المرقطة، وكانت المدينة الجامعية متهللة بالطلاب القادمين من أجل دروس الصيف واللسانيين الزائرين، الذين قد يحسبون «غرادوس» بلا ريب تاجرا يبيع الكتب الإنجليزية الأولية لفائدة أطفال المدارس الأمريكية أو أجهزة الترجمة الجديدة المدهشة، تلك التي تنجز عملها بطريقة أسرع من إنسان أو حيوان.

كانت تنتظره خيبة أمل كبيرة في الصالة الرئيسة، إذ كانت مغلقة ذلك اليوم. اقترح عليه ثلاثة طلاب مستلقين على العشب أن يحاول الاتصال بالمكتبة، وأشار الثلاثة كلهم إليها في الجهة الأخرى من الحديقة. مشى سفّاحنا إلى هناك يجرّ خطاه.

قالت الفتاة في مكتب الاستقبال: «لا أعرف أين يسكن. لكن أعرف أنه موجود هنا الآن. أنا متأكدة أنك ستجده في البناية الثالثة الواقعة في الجهة الشمالية الغربية حيث نملك المجموعة الأيسلندية. توجَّهْ جنوبا [ملوحة بقلمها الرصاص]، والتفت غرباً، ثم غرباً ثانية حيث سترى نوعاً من، نوعاً [يرسم قلم الرصاص ذبذبة دائرية ـــ مائدة مستديرة؟ خزانة مستديرة؟] ـــ لا، انتظر دقيقة، من الأفضل أن تواصل المشي غربا حتى تصل إلى صالة «فلورانس هوتن»، وهناك اعبر إلى الجانب الشمالي من البناية. لن تخطئ الطريق» [أعادت قلم الرصاص إلى أذنها].

لأنه لم يكن ملاّحاً أو ملكاً هارباً، فقد ضل الطريق على الفور. وبعد أن تقدم عبثاً عبر متاهة من الأكوام، سأل عن المجموعة الأيسلندية أمينةَ مكتبة عجوز متجهمة كانت تتفقد جذاذات في خزانة فولاذية فوق بسطة الدرج. قادته توجيهاتها البطيئة والمفصلة على الفور مجددا إلى مكتب الاستقبال الرئيسي.

قال محركاً رأسه ببطء: «من فضلك، لا أستطيع العثور...»

شرعت الفتاة تتكلم: «ألم...»، وأشارت فجأة: «آه، ها هو!»

كان رجل ملتحٍ يعبر، على طول الرواق المفتوح الممتد فوق الصالة والموازي لجانبها القصير، بخطوات عسكرية سريعة من الشرق إلى الغرب. اختفى خلف خزانة كتب، قبل أن يتعرف «غرادوس» على هيأة «تشارلز زايفير» المحبوب القوية المهيبة، ومشيته المنتصبة، وأنفه المعقوف، وحاجبه المستقيم، وتأرجح ذراعه النشيطة.

هرع مُطاردنا نحو أقرب الأدراج ـــ سرعان ما وجد نفسه بين السكون الفاتن لكتب نادرة. كانت القاعة جميلة لا أبواب لها. في الواقع، مرّت لحظات قبل أن يتمكن من اكتشاف المدخل المسدلة عليه ستارة، الذي استخدمه هو نفسه للتو. دفعته اضطرابات بحثه الرهيبة، التي امتزجت بتجدد الآلام البغيضة في بطنه، إلى العودة ـــ ركض ثلاثة أدراج إلى الأسفل وتسع إلى الأعلى، فاقتحم قاعة دائرية حيث جلس أستاذ أصلع مسفوع، ذو قميص «هاواي»، إلى مائدة مستديرة، يقرأ كتابا روسيا يرتسم تعبير ساخر على وجهه. لم يعر أي انتباه لـ»غرادوس» الذي عبر القاعة، وتخطى كلبا صغيراً أبيض دون أن يوقظه، وقرقع على سلم حلزوني، فوجد نفسه داخل القبة «بـ«. هنا، قاده ممر مصبوغ بالأبيض، مضاء جيداً، محفوف بالأنابيب، إلى الجنة المفاجئة لدورة مياه خاصة بالسبّاكين أو الباحثين التائهين. هرع إليها، وهو يَشْتُمُ، فنقل مسدسه الآلي من جيبه الخلفي غير المأمون إلى معطفه، وأغاث نفسه
من حصة أخرى من الجحيم السائل بداخله. أخذ يصعد مرة ثانية، فرأى على ضوء الرفوف، الشبيه بضوء الكنائس، موظفاً فتى هندوسيّاً نحيفاً يحمل بيده بطاقة استعارة. لم أكلم ذلك الفتى أبداً، لكني شعرت به أكثر من مرة يحدق فيَّ بعينيه الزرقاوين البنيتين. لا شك أن اسمي الأكاديمي المستعار كان مألوفا عنده، لكن خلية حسّية ما، وترا ما في الحدس، قاوم فظاظة استجواب القاتل، كأنه يحميني من خطر غامض. ابتسم وقال: «لا أعرفه، يا سيدي.»

عاد «غرادوس» إلى مكتب الاستقبال الرئيس بالمكتبة.

قالت الفتاة: «آسفة جدّاً. رأيته يغادر للتو.»

«يا إلهي، يا إلهي»(52)، دمدم «غرادوس» الذي يستخدم أحياناً، في لحظات الإجهاد، هتافات روسية.

«ستجده في الدليل»، قالت وهي تدفعه نحوه، لتنصرف عن وجود الرجل المريض لتلبية حاجات السيد «جيرالد إميرالد» الذي كان بصدد استعارة كتاب ضخم رائج مغلف بالسلوفان.

شرع «غرادوس»، الذي كان يئن ويبدّل وقوفه من قدم إلى القدم الثانية، يتصفح دليل الكلية، لكنه عندما عثر على العنوان، واجهته مشكلة الوصول إليه.

صاح بالفتاة: «شارع «دالويتش»، هل هو قريب؟ بعيد؟ بعيد جدّاً، ربما؟»

سأل «إميرالد»: «ألستَ بالمناسبة المساعد الجديد للأستاذ «بنين»؟»

قالت الفتاة: «لا. أظن أن هذا الرجل يبحث عن الدكتور «كينبوت». هل تبحث عن الدكتور «كينبوت»، أليس كذلك؟»

قال «غرادوس»: «بلى، ولم أعد أستطيع ذلك.»

قالت الفتاة: «اعتقدت ذلك. ألا يقطن في منزل ما قرب الدكتور «شايد»، يا «غيري»؟»

«آه، بالتأكيد»، قال «غيري»، ثم التفت إلى القاتل: «يمكنني أن أقلّك إلى هناك إن شئت. إنه في طريقي.»

هل تحدثا في السيارة، هاتان الشخصيتان، الرجل ذو السترة الخضراء والرجل ذو السترة البنية؟ لم يفعلا. في النهاية، لم تستغرق الرحلة سوى بضع دقائق (تستغرق مني، عندما أقود سيارتي «كراملر» القوية، أربعاً ونصف).

قال «إميرالد»: «أظن أنني سأتركك هنا. إنه ذاك البيت هناك.»

يجد المرء صعوبة في تحديد ما كان يريده «غرادوس»، الملقب بـ«غراي»، أكثر في تلك الدقيقة: أهو إفراغ مسدسه أم تخليص نفسه من حمم أحشائه التي لا تنضب؟ عندما اضطرب وهو يتلمس فتح باب السيارة على عجل، انحنى «إميرالد» النافر، قريباً منه، متعامدا معه، حتى كاد يلتحم به، ليساعده على فتحه ـــ ثم صفْقه ثانية، وانطلق محدثاً
أزيزاً إلى موعد ما في الوادي. آمل أن يثمّن قارئي كل التفاصيل الدقيقة التي تجشمتُ عناء تقديمها له، بعد حديث طويل مع قاتلي. بل سيثمنها أكثر إذا أخبرته أن سائق شاحنة متوحد تفضل، وفق

الأسطورة التي نشرتها الشرطة لاحقاً، بنقل «جاك غراي» على طول الطريق، من «راونوكي»، أو مكان آخر! لا يسع المرء سوى أن يأمل أن يؤدي بحث نزيه إلى إيجاد القبعة اللينة التي نسيها في المكتبة ـــ أو في سيارة السيد «إميرالد».

البيت ٩٥٧: هدير ليلي

أذكر قصيدة قصيرة من هدير ليلي (ويقصد به صوت البحر ليلا)، صدف أنها كانت أول احتكاك لي بالشاعر الأمريكي «شايد». إذ أطلعني محاضر شاب في الأدب الأمريكي، وهو فتى ذكي وساحر من بوستن، على ذلك الجزء الصغير والرائع في «أونهافا»، خلال أيام دراستي. أسرتني الأبيات الموالية الواردة في مستهل هذه القصيدة، الموسومة بـ«فن»، بإيقاعها الأخاذ، وهزت مشاعري الدينية التي غرستها فيَّ كنيستنا «الزمبلية» «العليا».

مِنْ قَنْص الماموث والأوديسات

والمفاتن الشرقية

إلى الإلهات الإيطالية

يحملن الرضع بالأحضان.

البيت ٩٦٢: ساعدني، يا «ويل»! نار شاحبة.

ما تعنيه هذه العبارة بوضوح، بعد إعادة صياغتها هو: اسمحوا لي أن أبحث في شكسبير عن شيء ما أستخدمه عنوانا. والاكتشاف هو «نار شاحبة». لكن من أي عمل من أعمال الشاعر الملحمي انتقاها شاعرنا؟ يجب على قرائي أن يبحثوا في الموضوع بأنفسهم. فكل ما أملكه هو طبعة جيب صغيرة من تيمون الأثيني ـــ باللغة «الزمبلية»! وهي لا تشتمل بالتأكيد على أي شيء يمكن أن ينظر إليه بوصفه مرادفا لعبارة «نار شاحبة» (ولو كانت كذلك، لصار حظي بمثابة بعبع إحصائي).

لم تكن الإنجليزية تدرس قبل عهد السيد «كامبل». وقد تملك «كونمال» وحده ناصيتها (عبر حفظ المعجم عن ظهر قلب أساساً) عندما كان شابا، في نحو سنة ١٨٨٠، في فترة بدا فيها أن سيرة عسكرية هادئة تنفتح أمامه، بدل الجحيم اللفظي، وكان عمله الأول (ترجمة سونيتات شكسبير) ثمرة رهان مع ضابط زميل. فاستبدل زيّه الضفدعي الموحد برداء باحث، وعكف على مسرحية

العاصفة. كان يشتغل ببطء، إذ استغرق نصف قرن لترجمة كامل أعمال من كان يطلق عليه اسم «دزي بارت»(53). بعد هذا، انتقل سنة ١٩٣٠ إلى «ميلتن» وشعراء آخرين، مواظبا على الحفر عبر العصور، إذ انتهى للتو من قصيدة «كيبلينغ» «قافية الخواتم الثلاثة» («هذا قانونُ الروسِي الذي يثبته بالنار والحديد»). وعندما بات طريح الفراش وسرعان ما لفظ أنفاسه الأخيرة تحت سقف سريره البديع المزخرف بنسخ من حيوانات مغارة «ألتاميرا»، كانت كلماته الأخيرة في هذيانه الأخير: كيف نسمي «الموت» بالإنجليزية؟ ـــ إنها نهاية جميلة ومؤثرة.

من السهل أن تستهزئ بعيوب «كونمال». فهي تعثرات ساذجة لرائد عظيم. إذ أقام كثيراً بمكتبته، وقليلاً جدّاً بين الفتيان والشباب. يجب على الكتّاب أن يروا العالم، وأن يقطفوا تينه وخوخه، وألا يتأملوا باستمرار برجاً من عاج أصفر ـــ وهو أيضاً خطأ «جون شايد»، بطريقة ما.

يجب ألا ننسى أن أي كاتب إنجليزي لم يكن متاحاً باللغة «الزمبلية»، عندما بدأ «كونمال» مهمته الجبارة، ما عدا «جاين دو فون»، وهي سيدة روائية ألفت عشرة أجزاء، وكانت أعمالها مجهولة في إنجلترا على نحو غريب للغاية، وبعض شذرات «بايرن» المترجمة من نسخ فرنسية.

إنه رجل عريض متثاقل، لا شغف له سوى الشعر، قلما تزحزح من قلعته الدافئة وكتبها المجلدة الخمسين ألفا. عرف أنه قضى عامين في السرير، يقرأ ويكتب، بعدها ذهب، بعد أن رفّه عن نفسه كثيراً، إلى لندن للمرة الأولى والوحيدة، لكن الجو كان ضبابيا، ولم يستطع أن يفهم اللغة، فعاد إلى السرير لعام آخر.

ولأن الإنجليزية كانت امتيازاً مقصوراً على «كونمال»، فإن شكسبيره ظل محصنا طيلة الجزء الأكبر من حياته الطويلة. إذ اشتهر الدوق المبجل بنبل عمله، حيث تجرأت قلة على مساءلة دقته. شخصيا، لم أتحلَّ أبداً بالشجاعة للتحقق منه. فعل ذلك أحد الأكاديميين غلاظ القلب، ففقد مقعده نتيجة لذلك، وقرَّعه «كونمال» بقسوة في «سونيتة» استثنائية ألفها فوراً بإنجليزية مزوقة، لكن الشك لا يرقى إلى صحتها التامة، مطلعها:

لستُ عبدا! ليكن ناقدي عبدا.

لا أستطيع أن أكون كذلك. ويأبى شكسبير ذلك.

لينسخ طلاب الرسم ورقة الأقنثوس،

إني أعمل مع الأستاذ على العمارة!

البيت ٩٩١: حدوات الحُصُن

لم نكن، «شايد» وأنا، قادرين أبداً على التأكد من مصدر تلك الأصوات الرنانة تحديدا ـــ أيّ من الأسر الخمس التي تقطن في الجهة الأخرى من الطريق على المنحدرات السفلى من تلتنا المشجّرة كانت تلعب حلقات الرمي بحدوات الأحصنة مرة كل مساءين؛ لكن القعقات والجلجلات المزعجة أضافت نوتة محزنة ساحرة إلى باقي الأصوات المسائية في تلة «دالويتش» ـــ أصوات أطفال ينادون بعضهم البعض، وأطفال ينادون للعودة إلى البيت، والنباح المنخطف للكلب البوكسر الذي يكرهه معظم الجيران (إذ كان يقلب براميل القمامة) مرحّبا بعودة مولاه إلى البيت.

كان هذا المزيج من الأنغام المعدنية هو الذي أحاط بي ذلك المساء القدري، الساطع للغاية، من يوم ٢١ يوليوز عندما ذهبت فورا، وأنا عائد من المكتبة إلى البيت في سيارتي القوية، لأرى ما يفعله جاري العزيز. كنت التقيت بـ«سيبيل» توا، وهي تسوق بسرعة في اتجاه المدينة، فنشأت من ثمة بعض الآمال للأمسية. أعترف لكم أنني صرت أشبه كثيراً عاشقة نحيفة ومحترسة تغتنم فرصة وجود زوج وحده في البيت!

ميّزتُ بين الأشجار قميص «جون» الأبيض وشعره الرمادي. كان جالسا في عشّه (كما كان يسميه)، هذا المكان الأشبه بالعريش أو الشرفة التي أشرت إليها في تعليقي على البيتين ٤٧ ـــ ٤٨. لم أستطع أن أمنع نفسي من الاقتراب أكثر ـــ آه، بتكتم، أكاد أمشي على رؤوس الأصابع؛ لكن لاحظت حينها أنه كان يستريح، ولم يكن يكتب، فَصعدتُ علنا إلى شرفته أو مقعده. كان مرفقه على الطاولة، وكفّه تسند صدغه، وتجاعيده كلها متدلية، وعيناه نديتان وضبابيتان. بدا مثل ساحرة عجوز ثملة. رفع يده المتحررة مرحّباً، دون أن يغير جلسته التي استوقفتني هذه المرة، وإن كانت مألوفة عندي، كونها تنم عن الحيرة أكثر من التأمل.

قلت: «حسناً، هل كانت الملهمة كريمة معك؟»

«كريمة للغاية»، أجاب وهو يحني رأسه المسنودة بالكف قليلاً. «كريمة ولطيفة بشكل استثنائي. في الواقع، عندي هنا [وهو يشير إلى ظرف كبير بالقرب منه على القماش المشمع] المنتوج بأكمله تقريباً. هناك بعض الهنات التي ينبغي ضبطها، وقد صوبتُها، يا إلهي [فجأة أخذ يضرب الطاولة بقبضته].»

كان الظرف، المفتوح من جانب، ممتلئاً بجذاذات مُنَضّدة.

«أين السيدة؟» سألت (بفم جاف).

رجاني قائلاً: «ساعدني، يا «تشارلي»، على الخروج من هنا. تنملت قدمي. «سيبيل» في اجتماع عشاء بناديها.»

قلتُ مضطربا: «عندي اقتراح. في بيتي نصف غالون من الـ»توكاي». وأنا مستعد لأشارك نبيذي المفضل مع شاعري المفضل. سنتعشى بحفنة جوز، وحبتي طماطم كبيرتين، وعثقول موز. وإذا وافقت على أن تطلعني على «منتوجك النهائي»، فستكون هناك مكافأة أخرى: أعد بأن أبوح لك بسبب مدّي لك بتيمتك، أو بالأحرى بمَنْ مدّك بها.»

«أي تيمة؟» قال «شايد» بذهول، وهو يتكئ على ذراعي ويستعيد تدريجيا استعمال طرفه الخَدِر.

«بلادنا «زمبلا» الزرقاء الغائمة دائماً، و»شتاينمان» صاحب القبعة الحمراء، والزورق ذو المحرك في المغارة المطلة على البحر، و...»

قال «شايد»: «آه، أعتقد أنني خمنت سرك منذ وقت طويل. لكن الأمر عندي سيان، سأتذوق نبيذك بكل سرور. حسناً، يمكنني التعامل مع الأمر بنفسي الآن.»

كنت أعرف حق المعرفة أنه لم يكن يقاوم أبداً قطرة عسجدية من هذا أو ذاك، خاصة أنه يعطى الأشياء في بيته بمقادير مقننة. أرحْتُه، بوثبة مرح داخلية، من الظرف الكبير الذي كان يعوق حركاته، وهو ينزل أدراج الشرفة، بتمايل، مثل طفل متردد. اجتزنا الحديقة، وعبرنا الطريق. صلصلت حدوات الأحصنة، فجاءت موسيقاها من المسكن الغامض. استشعرت، من الظرف الكبير الذي أحمله، حزم الجذاذات المفهرسة، ذات الزوايا الصلبة، المضمومة بأشرطة مطاطية. لقد تعودنا، بصورة منافية للعقل، على أعجوبة بعض الإشارات المكتوبة القادرة على استيعاب أيقونات خالدة، ومدارات فكر، وعوالم جديدة يحيا فيها أشخاص أحياء يتكلمون ويبكون ويضحكون. إننا نعدّ الأمر بديهيا لدرجة أننا نلغي، بمعنى ما، عبر فعل
القبول الأخرق الرتيب، عمل العصور وتاريخ الإعداد التدريجي للوصف والبناء، من إنسان الغابة إلى «براونينغ»، ومن ساكن الكهوف إلى «كيتس». ماذا لو استفقنا ذات يوم، جميعنا، ووجدنا أنفسنا عاجزين تماماً عن القراءة؟ أتمنى ألا تنبهر فحسب بما تقرؤه، بل بأعجوبة كونه مقروءاً (هكذا درجتُ على إخبار طلابي). ورغم أنني قادر، عبر الانغماس الطويل في السحر الأزرق، على محاكاة أي نثر في العالم (لكن ليس الشعر، وهو أمر مستغرب للغاية ـــ فأنا شعرور رديء)، لا أرى نفسي فنانا حقيقيا، ما عدا في أمر واحد: بمقدوري أن أفعل ما لا يستطيع أن يفعله سوى فنان حقيقي ـــ أن أنقض على فراشة الوحي المنسية، أن أفطم نفسي فجأة عن اعتياد الأشياء، أن

أرى نسيج العالم، وسَدى ذلك النسيج ولحمة حياكته. وزنت بيدي، بمهابة، ما كنت أحمله تحت إبطي الأيسر، ووجدتني، للحظة، أثرى بدهشة لا توصف كأنني علمتُ أن اليراعات كانت تصدر إشارات مقروءة إلى أرواح تائهة، أو أن خفاشاً كان يكتب حكاية تعذيب واضحة في السماء المكدومة والمكوية.

كنت أحمل «زمبلا» كلها، أضمّها إلى قلبي.

الأبيات ٩٩٣ ــ ٩٩٥: بشّورة سوداء، الخ.

قبل دقيقة واحدة من وفاته، وإذ كنا نعبر من ملكيته إلى ملكيتي، وأخذنا نتسلل بين العرعر وشجيرات الزينة، جاءت ساحرة حمراء(54) (انظر التعليق على البيت ٢٧٠) تحوم حولنا دائخة مثل شعلة ملونة. كنا قد لاحظنا الحشرة ذاتها من قبل، مرة أو مرتين، في ذلك الوقت نفسه، وذلك المكان ذاته، حيث خضلت الشمس الغاربة، التي وجدت كوة بين أوراق الشجر، الرملَ البني بشعاع أخير، بينما كانت ظلال المساء تغطي ما بقي من الطريق. كانت العيون لا تقوى على متابعة الفراشة المسرعة في أشعة الشمس، وهي تلوح وتختفي، ثم تلوح ثانية، في محاكاة تكاد تكون مرعبة للعبة واعية بلغت أوجها الآن بنزولها على كمّ صديقي المغتبط. طارت، ورأيناها صباح اليوم الموالي تمرح بنشوة نزق طائش حول شجيرة غار، تحط بين الحين والآخر على ورقة صمغية، وتنزلق إلى وسطها المحزّز مثلما ينزلق طفل على الدرابزين يوم عيد ميلاده. آنئذ بلغ مد الظل شجيرات الغار، فتلاشى فيه المخلوق المهيب المخملي المتوهج.

البيت ٩٩٨: بستانيّ جارٍ

جار ما! رأى الشاعر بستانيَّ مرات عديدة، إذ لا يسعني إلا أن أعزو هذا الغموض إلى رغبته (الملحوظة في سياق آخر في تعامله مع الأسماء، الخ.) في إضفاء صبغة شعرية ما، من حيث هي زهرة البعد، على شخصيات وأشياء مألوفة ــ رغم أنه من الممكن أيضاً أنه حسبه ربما، بسبب الضوء المتقطع، غريباً يعمل لفائدة غريب. التقيت بهذا البستاني الموهوب بالصدفة ذات يوم عطلة ربيعي، عندما كنت أشق طريقي ببطء، عائداً إلى البيت، بعد تجربة مزعجة ومحرجة في مسبح الكلية الداخلي. كان واقفاً على قمة سلم أخضر يعالج الغصن المريض في شجرة ممتنة في أحد أشهر الشوارع بـ«أبالاتشيا». وضع قميصه الأحمر المصنوع من الفانيلة على العشب. تحدثنا، ببعض التحفظ، هو فوق، وأنا تحت. استعذب دهشتي بقدرته على أن يحيل جميع الأمراض إلى مَوَاطِنها الأصلية. كان الفصل ربيعا. وكنا وحيدين في ذلك الرواق الرائع من الأشجار الذي صوّره زوار من إنجلترا من أوله إلى آخره. لا أستطيع أن أعدّد هنا سوى بضعة أصناف من تلك الأشجار: سنديانة المشتري السميكة وشجرتان أخريان، هما الشجرة البريطانية التي شقّتها العاصفة والشجرة ذات العقد الشائكة المستقدمة من جزيرة متوسطية؛ وسلالة مقاومة للطقس (صارت الآن شجرة زيزفون)، وشجرة العرب

(هي الآن نخلة)، وصنوبرة وأرز («سيدروس»)، منفصلة جميعها؛ وشجرة جميز من البندقية (قيقب)؛ وصفصافتان، إحداهما خضراء مستقدمة أيضاً من البندقية، والثانية ذات الأرواق الشيباء من الدنمرك؛ ودردار منتصف الصيف، تضع على أصابعها اللحائية خواتم من اللبلاب؛ وشجرة توت منتصف الصيف، تدعو ظلالها إلى المكوث؛ وشجرة سرو المهرج الحزينة في «إيليريا»(55).

عمل مدة عامين ممرضاً في مستشفى للزنوج في «ماريلاند». كان يعيش عوزاً شديداً. كان يريد أن يدرس هندسة المناظر الطبيعية وعلم النباتات والفرنسية («ليقرأ النصوص الأصلية لـ»بودلير» و»دوما»»). وعدته بمساعدة مالية. شرع يعمل بمنزلي في اليوم الموالي. كان لطيفاً للغاية ومثيراً للشفقة، وغير ذلك، لكنه كثير الثرثرة إلى حد ما، وعاجز تماماً، مما وجدته محبطاً. خلافاً لذلك، كان زميلا قويا مكينا، إذ نعمت كثيراً بالمتعة الجمالية وأنا أراه يكافح الأرض والعشب بنشاط، أو يعالج المصابيح بانتباه، أو يصمم الطريق المرصوف الذي قد يمثل مفاجأة سارة لمالك المنزل أو قد لا يكون كذلك، عندما سيعود سالما من إنجلترا (حيث آمل ألا يطارده أي مجنون متعطش للدماء!). كم كنت أتوق أن أجعله (بستانيَّ، لا مالك منزلي) يعتمر عمامة كبيرة ورفيعة وسلوارات وسوارا في الكاحل. كنت سأجعله بالتأكيد متشحاً وفق المفهوم الرومانسي القديم لأمير مغربي، لو كنت ملكاً شماليّاً ـــ أو بالأحرى لو كنت ما أزال ملكاً (يصبح المنفى عادة سيئة). ستوبخني، يا خادمي المتواضع، لأنني كتبت عنك الشيء الكثير في هذا التعليق، لكني أشعر أنني مطالب بأن أعرب لك عن هذا التقدير. في النهاية، فقد أنقذت حياتي. كنا أنا وأنت آخر من رأى «جون شايد» حيّاً. واعترفتَ بعدئذ بهاجس غريب جعلك توقف عملك ما إن رأيتنا بين الشجيرات نمشي نحو الشرفة حيث وقف... (يجعلني تطيّري عاجزاً عن كتابة الكلمة القاتمة والغريبة التي وظفتَ.)

البيت ١٠٠٠ (= البيت ١: كنت ظلَّ شمعيٍّ جناح، اغتالهْ)

بمقدور المرء أن يتبين، عبر ظهر قميص «جون» القطني الشفاف، بقعاً وردية ملتصقة بالجلد فوق وحَوْل طرف ذلك اللباس البسيط المضحك الذي يرتديه تحت القميص، مثلما يفعل جميع الأمريكيين الطيبين. أرى بوضوح هائل للغاية كتفا سمينة تترنح، والأخرى ترتفع؛ ممسحته الرمادية الخاصة بإزالة الشعر، قفاه المجعدة؛ المنديل الأحمر الكبير المتدلي بارتخاء من أحد الجيبين في الخاصرة، الحافظة البارزة في الجيب الآخر؛ الحوض العريض المشوه؛ شوائب العشب العالقة بعجيزة سرواله الكاكي القديم؛ غرزات حذائه الخلفية الرثة. أسمع دمدمته العذبة وهو يلتفت إلى الخلف وينظر إلي، دون أن يتوقف، ليقول شيئاً مثل: «تحقق من أنك لم تسقط أي شيء ـــ فهذه ليست مطاردة أوراق»، أو [بجفول] «يجب أن أكاتب «بوب ويلز» [عمدة البلدة] ثانية بشأن تلك الشاحنات اللعينة ليلة الخميس.»

كنا قد وصلنا إلى جانب الممر المحاذي لـ»غولدسوورث»، والممشى المرصوف الممتد على طول عشب جانبي، المتصل بالطريق الرملي المؤدي من شارع «دالويتش» إلى بوابة «غولدسوورث»

الأمامية، عندما لاحظ «شايد»: «عندك زائر.»

انتصب أمامنا على الشرفة رجل قصير الهيئة غليظها، أسود الشعر فاحمه، يرتدي بدلة بنية. كان واقفاً، يمسك محفظة رثة عديمة الشكل بزنّارها المضحك، وسبابته المعقوفة ما تزال موجهة نحو زر الجرس الذي ضغط عليه للتو.

تمتمتُ: «سوف أقتله.» في الآونة الأخيرة، دفعتني فتاة ذات قلنسوة إلى القبول بحزمة من المناشير الدينية، وأخبرتني أن شقيقها، الذي صورته لنفسي لسبب ما شابّاً عصابيا هشا، سيأتي ليناقش معي مشيئة الربّ، ويشرح لي أي شيء لم أفهمه في المناشير. إنه شاب، حقّاً!

هل سبق أن رأيتُ «غرادوس» من قبل؟ دعني أتذكر. هل رأيته؟ تهز الذاكرة رأسها. غير أن القاتل أكد لي لاحقاً أنني لوحت له، ذات مرة من برجي المطل على بستان القصر، بينما كان هو وأحد خدامي السابقين، فتى ذو شعر يشبه النشارة، ينقلان زجاجاً معلباً من الدفيئة إلى عربة يجرها حصان. لكني شعرت، عندما غير الزائر الآن وجهته نحونا وحدّق فينا بعينيه الأفعوانيتين الحزينتين المتقاربتين، برجّة اعتراف قوامه أنني لو كنت في الفراش غارقاً في الحلم، لأستيقظتُ ممتعضا.

مزقت رصاصته الأولى زر كمّ سترتي السوداء، ولعلعت الثانية عابرة قرب أذني. بِئْس الأمر أن أؤكد أنه لم يكن يصوب نحوي (أنا الذي رآني للتو في المكتبة ــ لنكن منسجمين، أيها السادة، فعالمنا هو عالم عقلاني في نهاية المطاف)، وإنما نحو الرجل النبيل الأشيب خلفي. آهٍ، كان يصوب نحوي فعلاً، لكنه كان يخطئني في كل مرة، ذلك الأخرق الفاسد، بينما تراجعت بشكل غريزي، مزمجراً وفارداً ذراعي الكبيرتين القويتين (وأنا ما أزال ممسكاً القصيدة بيدي اليسرى، «ما أزال متشبثا بالظل المعصوم»، بعبارة «ماثيو أرنولد»، ١٨٢٢ ــ ١٨٨٨)، ساعيا إلى وقف المجنون المتقدم وحماية «جون» الذي خشيت أن يكون قد أصيب عرَضاً تماماً؛ في حين، ظل هو، صديقي «جون» الكهل العذب والأخرق، ينشب أظافره فيّ ويجرني وراءه، خلف شجيرات الغار، احتماء بها، باضطراب جليل ينتاب فتى أعرج مسكينا، وهو يحاول بجدية أن يبعد شقيقه من مرمى الحجارة التي يرشقهما بها تلاميذ المدارس، وهو مشهد مألوف في جميع البلدان. شعرت ــ وما أزال ــ أن يد «جون» تتحسس يدي، تبحث عن أصابعي، تجدها، ثم تتركها فجأة كأنها تنقل إليَّ، في سباق تناوب سامٍ، مشعل الحياة.

أصابته إحدى الرصاصتين، التي أخطأتني، في الجنب واخترقت الضلع نحو قلبه. جعلني وجوده خلفي فجأة أفقد توازني، وأكمل مهزلة التاريخ في الآن ذاته. عالج بستانيَّ «جاك» المسلح بمجرفته، من وراء السياج، موجها له ضربة رهيبة على الرأس، أسقطته أرضاً وألقى من يده السلاح الذي طار محلقاً. استعاده منقذنا وساعدني على الوقوف. آلمني عصعصي ومعصمي الأيمن بشكل بالغ، لكن القصيدة سلمت من أي أذى. في حين، استلقى «جون» منبطحاً على

الأرض، تعلو بقعة حمراء قميصه الأبيض. ومع ذلك، راودني أمل أنه لم يقتل. جلس الرجل المجنون على درج الشرفة، يعالج، وهو دائخ، رأسا دامية بيدين ملطختين بالدماء. تركتُ البستاني يحرسه، إذ أسرعت إلى المنزل، وأخفيت الظرف الثمين تحت كومة من جراميق نسائية وأحذية ثلج مكسوة بالفرو وجزمات «ولينغتون» بيضاء مكدسة أسفل خزانة، خرجت منها كما لو أنها نهاية الممر السري الذي سلكته إلى خارج قصري المسحور، ثم مباشرة من «زمبلا» إلى هذا الـ»أركادي». بعد ذلك، اتصلت بالرقم ١١١١١، وعدت بكوب ماء إلى مسرح المذبحة. كان الشاعر قد انقلب الآن وتمدد بعينين ميتتين مفتوحتين موجهتين إلى اللازورد المسائي المغمور بأشعة الشمس. كان البستاني المسلح والقاتل المضروب يدخنان جنباً إلى جنب على الأدراج. تجاهلني الأخير تماماً، إما لأنه كان يتألم، أو لأنه قرر أن يلعب دوار جديدا، كأنني كنت ملكاً حجريّاً فوق جواد حجري بساحة «تيسيرا» في «أونهافا». لكن القصيدة صارت آمنة.

أخذ البستاني كوب الماء الذي وضعته قرب مزهرية جنب أدراج الشرفة وشاركه مع القاتل، ثم رافقه إلى المرحاض في القبو. وصلت الآن الشرطة وسيارة الإسعاف، فعرف القاتل نفسه باسم «جاك غراي»، ولم يحدد أي مسكن، ما عدا معهد المجانين المجرمين (ici) ـــ(56) يا للكلب المخلص ـــ الذي ينبغي بالطبع أن يكون عنوانه الدائم طوال الوقت، والذي اعتقدت الشرطة أنه فرّ منه للتو.

«تعال يا «جاك»، سنضع شيئاً على رأسك ذاك»، قال شرطي هادئ، لكنه مصمم العزم، متخطيا الجثة. ثم كانت اللحظة الرهيبة حينما جاءت ابنة الطبيب «ساتن» بالسيارة، ترافقها «سيبيل شايد».

سنحت لي، خلال تلك الليلة المضطربة، فرصة نقل القصيدة من تحت أحذية حوريات «غولدسوورث» الأربع إلى الحمى الآمن في حقيبتي السوداء، لكني لم آنسِ الفرصة الآمنة الكافية لفحص كنزي إلا مع انبلاج الفجر.

نعلم مدى اعتقادي الراسخ، الغبي أن «شايد» كان يؤلف قصيدة، صنفا من الشعر الرومانسي، حول ملك «زمبلا». كنا على أهبة تلقي خيبة الأمل الرهيبة التي تنتظرني. آه، لم أتوقع منه أن يكرس نفسه بالكامل لتلك التيمة! لربما اندغمت بالطبع مع بعض أمور حياته الخاصة والحياة الأمريكية المتنوعة ـــ لكني كنت متأكدا أن قصيدته ستضم ما وصفتُ له من الحوادث العجيبة، والشخصيات التي نفخت فيها الحياة من أجله وكل المناخ الفريد في مملكتي. بل اقترحت عليه عنواناً جيداً ـــ عنوان الكتاب بداخلي الذي كاد يقطع صفحاته؛ وهو الملك وحيداً(57)، بدل ذاك الذي رأيت نار شاحبة، والذي لا يعني لي أي شيء. بدأت أقرأ القصيدة. أسرعت في القراءة أكثر فأكثر. أسرعت عبرها، مزمجرا، مثلما يفعل وريث شاب عبر وصية مخادع كهل. أين الأبراج المحصنة في قصري المطلة جهة المغيب؟ أين «زمبلا» العادلة؟ أين جبالها الشاهقة؟ أين إثارتها الطويلة عبر الضباب؟ أين فتيتي المحبوبون الذين يشبهون الأزهار، وطيف النوافذ الملطخة،

وفرسان الوردة السوداء ، والحكاية العجيبة بكاملها؟ لم يكن ثمة شيء من ذلك! ببساطة، لم توجد المساهمة المعقدة التي ظللت ألح عليها بصبر منوّم وإلحاف عاشق. آه، لكني لا أستطيع التعبير عن الأسى! ما الذي حُزْتُه ـــ بدل الرومانسية الجامحة المجيدة؟ سردٌ سيرذاتي، «أبالاتشي» بارز، عتيق الطراز بالأحرى بأسلوب تطريزي بابوي جديد ـــ مكتوب بطريقة جميلة بالطبع ـــ لم يكتب «شايد» خلاف ذلك سوى بطريقة جميلة ـــ لكن خالٍ من سحرِي، من ذلك الأثر الغني الخاص من الجنون السحري الذي كنت متيقنا من أنه سيتخلله ويجعله يسمو على عصره.

استعدتُ هدوئي المعتاد. فأعدت قراءة نار شاحبة باهتمام أكبر. ازداد حبي لها عندما توقعت ألا أحبها أكثر. ماذا كان يعني ذلك؟ ماذا كانت تعني تلك الموسيقى البعيدة الخافتة، وتلك الآثار الملونة في الهواء؟ اكتشفت فيها هنا وهناك، لاسيما في الصيغ البديلة النفيسة، في أصداء عقلي ولُمعاته، مويجات على طول مجرى مجدي. شعرت الآن برقة جديدة، باعثة على الشفقة، نحو القصيدة، كتلك التي يحس بها المرء تجاه مخلوق شاب متقلب اختطفه عملاق أسود واغتصبه بوحشية، لكنه صار الآن آمنا في ردهتنا ومنتزهنا، يصفر مع ساسة الخيول، ويسبح رفقة الفقمة الأليفة. ما زال ذلك الموضع يؤلم، لا بد أن يؤلم، لكننا نُقَبِّل تلك الجفون الكثيفة المبللة وندغدغ ذلك الجسد المدنس بامتنان غريب.

يمثل تعليقي على هذه القصيدة، الذي صار الآن بين يدي قرائي، محاولة لفرز هذه الأصداء ومويجات النار، والإلماعات المومضة الباهتة، وكل الديون الصغرى العديدة الواجبة تجاهي. قد تبدو بعض ملاحظاتي مريرة ـــ لكني بذلت أقصى جهدي حتى لا أبُثَّ أي شكوى. إذ ليست نيتي، في هذه الحاشية الأخيرة، التشكي من السفاسف السوقية والقاسية التي
لفقها صحافيون مهنيون و»أصدقاء» «شايد» في النعي، وسمحوا لأنفسهم بنفثها وهم يصفون خطأ ظروف وفاة «شايد». أحسب إحالاتهم في نظري خليطاً من الدناءة الصحافية وسمّ الأفاعي. لا أشك أن أطرافا مذنبة لن تبالي بالعديد من الإفادات الواردة في هذا العمل عندما سيصدر. لن تتذكر السيدة «شايد» أن زوجها «الذي أطلعها على كل شيء» عرض عليها نسخة أو اثنتين من هذه الصيغ البديلة النفيسة. سيتبين أن الطلبة الثلاثة المتمددين على العشب فقدوا الذاكرة تماماً. لن تتذكر فتاة مكتب الاستقبال في المكتبة (سيُطْلَب منها ألا تتذكر) أي شخص سأل عن الدكتور «كينبوت» يوم حصلت جريمة القتل. وأنا متأكد أن السيد «إميرالد» سيوقف لوقت وجيز أبحاثه في المفاتن المرنة لطالبة ذات ضرعين، لينكر بهمة رجولة مستثارة أنه قاد أحدهم إلى منزلي في ذلك المساء. بعبارة أخرى، ستبذل كل الجهود لعزل شخصي تماماً عن مصير صديقي العزيز.

ومع ذلك، أخذت لنفسي بثأر صغير؛ إذ ساعدني سوء الفهم العام، بطريقة غير مباشرة، في الحصول على الحق في نشر نار شاحبة. لا ريب في أن بستاني أخطأ، وهو يروي ما رآه للجميع بحماسة، في مناحي متعددة ـــ ليس كثيراً ربما في روايته المبالغة عن «بطولتي» كما في الافتراض القائل إن المدعو «جاك غراي» استهدف «شايد» عمدا. لكن أرملة «شايد» وجدت نفسها متأثرة أيما تأثر بـ«ارتمائي» بين الرجل المسلح وهدفه، حتى إنها صرخت، في مشهد لن أنساه أبداً، وهي تشدّ على يدي: «هناك أشياء ليس لها أي تعويض كبير في هذه الدنيا أو في العالم

الآخر.» يصير ذاك «العالم الآخر» في المتناول عندما ينزل البلاءُ بالكافر، لكني تغاضيت عن الأمر بالطبع، وقررتُ في الواقع ألا أفنّد أي شيء، وأن أقول بالأحرى: «آه، لكن هناك تعويض، يا عزيزتي «سيبيل». قد يبدو لك طلباً بسيطاً للغاية لكن ـــ أستأذنك، يا «سيبيل»، في تحقيق قصيدة «شايد» الأخيرة ونشرها.» أذنت لي بذلك على الفور، بصرخات جديدة وعناقات جديدة. وفي اليوم الموالي، كان إمضاؤها موقعاً أسفل العقد الذي حرره محام نزق صغير. سرعان ما نسيتِ، يا سيدتي العزيزة، في لحظة الأسى المستحبة تلك. لكني أؤكد لك أنني لا أضمر أي سوء، وأن «جون شايد» ربما لن ينزعج كثيراً بتعليقاتي، رغم الدسائس والدناءة.

واجهت، بسبب هذه المكائد، مشاكل مروعة في مساعي لدفع الناس بهدوء إلى أن يروا ـــ من غير أن يصرخوا مباشرة في وجهي أو يدفعوني بخشونة ـــ حقيقة المأساة ـــ مأساة لم أكن فيها «شاهدا بالصدفة»، وإنما البطل والضحية الرئيس، وليتني كنت المحتمل. انتهت هذه الضوضاء بالتأثير في مجرى حياتي الجديدة، واستلزمت انتقالي إلى هذا الكوخ الجبلي المتواضع. لكني نجحت في الحصول على مقابلة، بل اثنتين ربما، مع السجين بعيد اعتقاله. صار الآن رائقاً أكثر مما كان عندما جثم ينزف على أدراج شرفتي. قال لي إن كل ما كان يريده هو أن يعرف. أجبرته، بأن جعلته يعتقد أنني قد أساعده في محاكمته، على الاعتراف بجريمته الشنيعة ـــ بمخادعته الشرطة والوطن وهو يتظاهر أنه «جاك غراي»، الهارب من ملجأ، الذي حسب «شايد» الرجلَ الذي أرسله إلى هناك. بعد بضعة أيام، للأسف، خذل العدالة بأن قدَّ حلقومه بموسى حلاقة التقطها من حاوية قمامة غير محروسة. مات، لا لأنه لم ير أي غاية في أن يعيش زمنا أطول بعد أن لعب دوراً في هذه القصة، وإنما لأنه لم يحتمل هذه الغلطة الأخيرة ـــ قتل الشخص الخطأ بينما الشخص المطلوب منتصب أمامه. بعبارة أخرى، انتهت حياته، لا بأزيز ضعيف لدولاب صغير، وإنما بإيماءة خيبة أمل إنسانية. كفى من هذا. اخرج يا «جاك غراي».

لا أذكر من غير رعشة الأسبوعَ الكئيب الذي قضيته في «نيوواي» قبل مغادرتها إلى الأبد، كما أرجو. عشت في خوف دائم من أن يجردني لصوص من كنزي النفيس. قد يضحك بعض قرائي عندما سيعلمون أنني نقلته بعناية شديدة من حقيبتي السوداء إلى صندوق فولاذي فارغ في مكتب مالك المنزل، واستخرجت المخطوط ثانية بعد بضع ساعات، ولبسته طيلة أيام عدة، إن صح التعبير، إذ وزعت الجذاذات المفهرسة الاثنتين وتسعين على جسدي؛ عشرين في جيب سترتي الأيمن، ومثلها في الجيب الأيسر، وحزمة من أربعين على حلمتي اليمنى، والجذاذات الاثنتي عشرة الثمينة التي تحتوي على الصيغ البديلة في جيبي الداخلي الأيسر. باركتُ نجومي الملكية إذ علّمتني عمل الزوجة، لأنني خِطْتُ الجيوب الأربعة كلها. هكذا، كنت أسير، بين خصوم مخدوعين، بخطوات حذرة، مصفحاً بالشعر، مسلحاً بالقوافي، ممتلئاً بأغنية رجل آخر، صلباً بالورق المقوى، وأخيراً مقاوِما للرصاص.

أذكر، قبل عدة سنوات ـــ كم هي، لست مهتما بذكر العدد ـــ أن مربيتي «الزمبلية» كانت تقول لي، وأنا الولد الصغير البالغ من العمر ست سنوات، من كان نهبا لأرق الكبار: «يا حبيبي، يعطي

الله الجوع، والشيطان العطش.»(58) حسناً، يا قوم، أظن أن الكثيرين في هذه القاعة الرائعة جوعى وعطشى مثلي، ويجدر بي، يا قوم، أن أتوقف هنا.

أجل، يحسن بي أن أتوقف. إذ أخذت ذاتي تنفد وتعليقاتي تنضب. يا أيها السادة، لقد قاسيت كثيراً، أكثر مما يمكن أن يتخيله أي واحد منكم. أدعو الربّ أن ينزل رحمته على أبناء بلدي المعذبين. انتهى عملي. ومات شاعري.

قد يستفسر صوت وديع وشاب: «وأنت، ما أنت فاعل بنفسك، أيها الملك المسكين، يا «كينبوت» المسكين؟»

أنا واثق أن الرب سيعينني على تحرير نفسي من أي رغبة في اتباع مثال شخصيتين أخريين في هذا العمل. سأواصل الوجود. قد أتقمص أقنعة أخرى، أشكالا أخرى، لكني سأحاول أن أوجد. قد أظهر أيضاً في حرم جامعي آخر، بصفتي روسيّاً كهلاً وسعيداً ومتمتعاً بصحة جيدة ومحبا للجنس الآخر، كاتبا في المنفى، بلا شهرة، بلا مستقبل، بلا جمهور، بلا أي شيء سوى فنّه. قد أنضم إلى «أودن» في فيلم جديد بعنوان الفرار من «زمبلا» (كرة في القصر، قنبلة في ساحة القصر). قد ألبّي الأذواق البسيطة للنقاد المسرحيين وأختلق مسرحية، ميلودراما قديمة ذات أدوار رئيسة ثلاثة: مجنون ينوي قتل ملك متخيل، ومجنون آخر يتخيل نفسه ذاك الملك، وشاعر كهل بارز يزلّ فجأة على خط النار، ويفنى في الصراع بين الخياليين. آه، قد أفعل أشياء كثيرة! قد أبحر، إذا سمح التاريخ، عائداً إلى مملكتي المستعادة، وأُحَيّي بنشيج عظيمٍ الساحلَ الرمادي ووميض بيت تحت المطر. قد أجثم وأئن في مستشفى للمجانين. لكن مهما يحدث، وأينما يكن المسرح، ثمة شخص ما، في مكان ما، سينطلق بهدوء ـــ شخص ما قد انطلق بالفعل، شخص ما يزال بعيداً بالأحرى يشتري تذكرة، يركب حافلة، سفينة، طائرة، نَزَلَ، وشرَعَ يسير نحو مليون مصور، وسيطرق بابي الآن ـــ «غرادوس» أكبر، وأكثر احتراما، وأعلى كفاءة.

---

(17) اسم طائر (المترجم).

(18) «Finnigans Wake " هي آخر روايات الكاتب الأيرلندي «جيمس جويس»، وتعدّ من أعقد أعماله، كونها تمزج بين المعجم القديم والإنجليزية الحديثة، مع اعتمادها الكبير على الجناس، وتوظيف الأحلام في كتابة أحداثها (المترجم).

(19) الإحالة هنا إلى قصة المشكلة الأخيرة لكاتبها البريطاني «أرثر كونان دويل» (1859 ـــ 1930).

.Wodnaggen (20)

(21) المقصود بها سراويل داخلية لصوقة بالرجلين، ترتديه النساء أسفل البناطيل، أو الراقصات في أدائهن الفني (المترجم).

(22) عنوان رواية للأديب الروسي «ميخائيل ليرمونتوف»، وهي مترجمة إلى العربية، صدرت ضمن منشورات المركز الثقافي العربي بتوقيع المترجم سامي الدروبي (المترجم).

(23) وردت في النص الأصلي بلغة زمبلا المتخيلة بالصيغة التالية «promnad vespers mid J. S » (المترجم).

(24) chip-wit.

(25) Heliotropium turgenevi.

(26) "zhiletka" ".

(27) Lord Ronald›s Coronach قصيدة كتبها الشاعر الأسكتلندي «والتر سكوت» سنة 1798، ونشرت لأول مرة سنة 1800. وهي تتألف من 264 بيتا، وتروي قصة خارقة تنبني على أسطورة رائجة في إقليم «هايلاند» الأسكتلندي. انتشرت القصيدة في نطاق واسع بين القراء والنقاد خلال القرن التاسع عشر (المترجم).

(28) "إلدر إيدا» أو «إيدا الشعرية» هو عنوان قصائد ملحمية مجهولة. وهي تمثل مرجعاً أساساً للميثولوجية النوردية اليوم. وقد دونها الشاعر «سنوري ستورلوسون»، الذي كان زعيما سياسيا في أيسلندا خلال القرن الثالث عشر الميلادي (المترجم).

(29) نسبة إلى طبع في سكان بلاد الغال (المترجم).

(30) سيجد القارئ أن هذه العبارة في الترجمة العربية تقع في البيت 136، وليس في البيت 137، كما يشير إلى ذلك النص الأصلي. وهذا التغيير فرضته طبيعة التركيب في اللغة العربية. ينطبق الأمر ذاته على أبيات أخرى لم تخضع للترتيب نفسه في النص الأصلي، كما سيرى القارئ في عدد من التعليقات اللاحقة. كما تجب الإشارة، من جانب ثان، إلى أن القصيدة تحتوي على أكثر من عدد الأبيات المعلن عنه، والذي هو 999 بيتا، حيث لم يدرج الكاتب بعض الأبيات ضمن الترتيب الرقمي. وكذلك فعل المترجم (المترجم).

(31) Coramen.

(32) وردت في النص الأصلي بهذه الصيغة "fufa "، وهي من الكلمات المبتكرة، غير الإنجليزية، التي وظفها الكاتب في بعض سياقات الرواية. تحيل الكلمة إلى الكنزة الصوفية الخليعة الحمراء التي أشار إليها السارد في سياق سابق.

(33) Lorrainer.

(34) ما يؤشر به على الصفحات أثناء القراءة.

(35) يحيل الكاتب هنا على الكاتبة الأيرلندية من أصل هولندي «إستر فانهومريغ»، التي رأت النور في نحو 1688 وتوفيت يوم 2 يونيو 1723. إذ كانت تلقب بـ«فانيسا». وكانت عاشقة للأديب الأيرلندي «جوناثان سويفت (1667 ــ 1745)، صاحب البيتين اللاحقين.

(36) The Red Admiral (الساحرة الحمراء)، The Red Admirable (أميرال).

(37) وردت العبارة في النص الأصلي باللاتينية بالصيغة التالية: «Verba volant, scripta manent » (المترجم).

(38) The Beau and the Butterfly (الجميل والفراشة).

(39) "روبرت ساوذي" (Robert Southey) (12 غشت 1774 ــ 21 مارس 1843) شاعر إنجليزي ينتمي إلى المدرسة الرومانسية. حمل لقب شاعر البلاط لمدة ثلاثين سنة من سنة 1813 حتى وفاته. كان شعره غزيراً ومتنوعاً. كما كتب المقالة والسيرة الذاتية والتراجم والنقد الأدبي والتاريخ، الخ.

(40) "laund " المصبنة، "Laundry " الأرض البراح (المترجم).

(41) ترد في النص الأصلي بصيغة "dianthus "، وهي تحيل على العبارة اللاتينية "flowers-of-the-gods ". أما المعنى المقصود منها، فهو زهر القرنفل.

(42) كان السارد قد أشار في سياق سابق إلى أن الأستاذ «بنين» كان ينادي على «كينبوت»، الذي تكلف بالتعليق على قصيدة «جون شايد»، باسم مغاير يتكون من الحروف ذاتها هو «بوتكين» (المترجم).

(43) وردت هذه الجملة باللغة الفرنسية في النص الأصلي (المترجم).

(44) "أنطوان أوغسطين بارمونتيي» صيدلي عسكري ومهندس زراعي وعالم تغذية فرنسي (1737 ــ 1813)، اشتهر كثيراً بتطوير زراعة البطاطس وأعماله في مجال الصحة الغذائية، ولعب دوراً كبيراً في تنظيم عمل الصيدلة.

(45) «إنها الأم مع طفلها.»

(46) Tanagra dust.

(47) يحيل هذا الاسم على بيت «بوسكوبيل»، بسنديانته الشهيرة، الذي اختبأ فيه الملك «تشارلز» الثاني بعد هزيمته في معركة «وورسيستر» سنة 1651. لكنه يحيل كذلك إلى أمكنة أخرى، منها غابة «بوسكوبيل» في بريطانيا، والمتحف التاريخي الذي يطل على نهر «هادسون» في نيويورك... (وربما هذا ما يقصده السارد هنا، بحكم قرب المتحف من شط النهر) (المترجم).

(48) اعتمدت في تعريب هذين البيتين على ترجمة الشاعر والمترجم العراقي ماجد الحيدر، الذي نقل نصوصاً كثيرة للشاعر الإنجليزي «جون دون» (1572 ــ 1631)، مع تغيير طفيف فيها انسجاماً مع نص القصيدة الأصلي (المترجم).

(49) يحيل اسم «فرا باندولف" (Fra Pandolf) على شخصية الرسام في قصيدة «دوقتي الأخيرة» للشاعر الإنجليزي الشهير «روبرت براونينغ»، وهي شخصية متخيلة، افترض الشاعر أنها هي من رسمت بورتريه الدوقة موضوع القصيدة (المترجم).

(50) وردت في النص الأصلي كما يلي: punoo .

(51) The Shropshire lad, In Memoriam.

(52) وردت في النص الأصلي باللغة الروسية: «Bozhe moy, Bozhe moy».

(53) "dze Bart "، والمقصود بها «الشاعر الملحمي» (المترجم).

(54) "ريد أدميرابل»، اسم فراشة وصفها السارد في تعليقه على البيت 270 (المترجم).

(55) الإشارة هنا إلى ترنيمة لـ»وليم شكسبير» وردت في مسرحية الليلة الثانية عشرة، جاء في مطلعها: «تعال أيها الموت، تعال/ تحت سرو حزينة دعني أنطرح/ وحلِّقي بعيداً، أيتها الروح/ فأنا على يد جميلة قاسية مذبوح...»

(56) Institute for the Criminal Insane .

(57) ورد العنوان في النص الأصلي باللاتينية: Solus Rex (المترجم).

(58) وردت العبارة في النص الأصلي بالصيغة التالية: «Minnamin, Gut mag alkan, Pern dirstan »، ثم مترجمة بالإنجليزية. وقد اكتفينا بتعريب العبارة الإنجليزية (المترجم).

الفهرس

تحيل الأرقام المائلة إلى الأبيات في القصيدة والتعليقات التي تليها. وترمز الحروف «غ»، «كـ»، «س» إلى الشخصيات الثلاث الرئيسة في هذا العمل(59).

أ.، «بارون»، «أوسوين أفينبين»، آخر بارون في «أف»، وهو خائن حقير، ٢٨٦.

«أَخْت»، «إريس»، ممثلة مشهورة، توفيت سنة ١٨٨٨، وهي امرأة شغوفة وقوية، محظية «ثورغوس» الثالث (انظر أدناه)، ١٣٠. من الناحية الرسمية، ماتت منتحرة؛ ومن الناحية غير الرسمية، خنقها داخل غرفة تبديل ملابسها ممثل زميل، شاب «غوثلاندي» غيور، يبلغ من العمر الآن تسعين عاماً، وهو أكبر عضو في مجموعة الظلال (انظر أدناه) وأقلهم أهمية.

«أَلْفِين»، الملك، الملقب بـ«الغامض»، ١٨٧٣ ــ ١٩١٨، حكم ابتداء من سنة ١٩٠٠؛ والد الملك، وهو عاهل كريم ودمث وشارد الذهن، ومهتم في الغالب بالسيارات والآلات الطائرة والزوارق، وبأصداف البحر في وقت ما. قتل في حادث طائرة، ٧١.

«أندرونيكوف» و»نياغارين»، خبيران سوفياتيان يبحثان عن كنز مدفون، ١٣٠، ٦٨١، ٧٤١؛ انظر جواهر التاج.

«أرنور»، «رومولوس»، شاعر اجتماعي و»زمبلي» وطني، ١٩١٤ ــ ١٩٥٨، اقتبست قصيدته، ٨٠؛ اغتاله المتطرفون.

«أروس»، مدينة جميلة تقع شرق «زمبلا»، وهي عاصمة دوقية «كونمال»؛ كانت ذات مرة مقر رئاسة العمدة الفاضلة «فورز («ملكة الشطرنج») بريتويت»، ابنة عم حفيد «أوسوين بريتويت» (انظر أدناه)، ١٤٩، ٢٨٦.

بـ.، «بارون»، الوالد الاختياري لزوجة «بارون أ.» وصديق متخيل قديم لعائلة «بريتويت» (انظر أدناه)، ٢٨٦.

«بيرا»، سلسلة جبال تقسم شبه الجزيرة طولا؛ تتميز ببعض قممها المتلألئة، وممراتها الغامضة، وسفوحها الخلابة، ١٤٩.

«بلاويك»، الشرم الأزرق، منتجع شاطئي ممتع يقع على ساحل «زمبلا» الغربي، به ناد للقمار، ملعب غولف، أطعمة بحرية، زوارق للكراء، 149.

«بليندا»، الملكة، والدة الملك، ١٨٧٨ ــ ١٩٣٦، حكمت ابتداء من سنة ١٩١٨، ٧١.

«بوسكوبيل»، موقع المنزل الملكي الصيفي، وهو مكان جميل مكسو بالصنوبر وذو كثبان، يقع في «زمبلا» الغربية، به أغوار سهلة مشبعة بذكريات الكاتب الأكثر عاطفية، صار الآن (١٩٥٩) «مستوطنة للمتعرين»، مهما كان المقصود بهذا الاسم، ١٤٩، ٥٩٦.

«بوتكين»، فـ.»، باحث أمريكي من أصل روسي، ٨٩٤؛ «كينغ ــ بوت»، يرقة ذبابة منقرضة كانت سابقاً تتوالد في الماموث، ويعتقد أنها عجلت بنهاية سلالتها، ٢٤٧؛ صانع الـ»بوتكين» (أي الجزمات)، ٧١؛ «بوت»، غطس، و»بوتيلي»، كبير البطن (الروسية)؛ «بوتكين» أو «بودكين»، خنجر دنمركي.

«بريغبورغ». انظر «بيرا».

«بريتويت»، «أوسوين»، ١٩١٤ ــ ١٩٥٩، دبلوماسي ووطني «زمبلي»، ٢٨٦. انظر أيضاً «أوديفالا» و»أروس».

«كامبل»، «والتر»، ولد سنة ١٨٩٠، في «غلاسغاو»؛ معلم الملك، ١٩٢٢ ــ ١٩٣١، وهو رجل نبيل ودود، صاحب عقل راجح ولين؛ رامٍ جيد بالرصاص وبطل في التزلج؛ يعيش الآن في إيران؛ ١٣٠.

«تشارلز» الثاني، «تشارلز زايفير فيسلاف»، آخر ملوك «زمبلا»، يلقب بـ«المحبوب»، ولد سنة ١٩١٥، حكم بين ١٩٣٦ و١٩٥٨؛ ذروته، ١؛ دراساته وحكمه، ١٢؛ مصير أسلافه المخيف، ٦٢؛ أنصاره، ٧٠؛ والداه، ٧١؛ سريره، ٨٠؛ الفرار من القصر، ١٣٠، وعبر الجبال، ١٤٩؛ تذكره خطبة «ديزا»، ٢٧٥؛ مروره العابر بباريس، ٢٨٦؛ وبسويسرا، ٤٠٨؛ الزيارة إلى فيلا «ديزا»، ٤٣٣؛ تذكره قضاء ليلة في الجبال، ٥٩٧؛ دمه الروسي، وجواهر التاج (انظر أدناه، مهما كلف الأمر)، ٦٨١؛ وصوله إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ٦٩١؛ سرقة الرسالة المبعوثة إلى «ديزا»، ٧٤١؛ واقتباسها، ٧٦٨؛ مناقشة صورته، ٨٩٤؛ وجوده في المكتبة، ٩٤٩؛ هويته التي كادت أن تنكشف، ٩٩١؛ الملك وحيداً، ١٠٠٠. انظر أيضاً «كينبوت».

«كونمال»، دوق «أروس»، ١٨٥٥ ــ ١٩٥٥، خال الملك، الأخ الأكبر غير الشقيق للملكة «بليندا» (انظر أعلاه)؛ شارح نبيه، ١٢؛ ترجمته تيمون الأثيني، ٣٩، ١٣٠؛ حياته وعمله، ٩٦٢.

جواهر التاج، ١٣٠، ٦٨١؛ انظر مكان الاختباء .

«ديزا»، دوقة «باين»، «باين» الكبير و»مون»؛ ملكتي المحبوبة والشاحبة والحزينة، تطارد أحلامي، وتطاردها أحلامي، ولدت سنة ١٩٢٨؛ ألبومها وأشجارها المفضلة، ٤٩؛ زواجها سنة ١٩٤٩، ٨٠؛ رسائلها على ورق بالغ الرقة بعلامة مائية لم أتمكن من كشفها، صورتها تعذبني في منامي، ٤٣٣.

«إمبلا»، بلدة قديمة صغيرة بها كنيسة خشبية تحيط بها سبخات طحالب في نقطة أكثر حزنا وانعزالا في أقصى شمال شبه الجزيرة الضبابية، ١٤٩، ٤٣٣.

«إمبلم»، ومعناها «الإزهار» في اللغة «الزمبلية»؛ خليج جميل به صخور مخططة بالأزرق والأسود على نحو يثير الفضول، وينمو بسفوحه العليلة نبات الخلنج بشكل وفير، وهو يقع في أقصى جزء من «زمبلا» الغربية، ٤٣٣.

«فالبورغ»، مخروط وردي، ٧١؛ مكسو بالثلج، ١٤٩.

«فلاتمان»، «توماس»، ١٦٣٧ ــ ٨٨، شاعر ودارس ورسام منمنات إنجليزي، غير معروف عند الشيخ المَزَّاح، ٨٩٤.

«فلور»، دوقة «فايلر»، وصيفة أنيقة، ٧١، ٨٠؛ ٤٣٣.

«غ»، انظر «غرادوس».

«غار»، ابنة مزارع، ١٤٩، ٤٣٣. وهي تشبه فتى مورد الخدود يحرس الإوز، وجده على طريق ريفي شمال «تروث» سنة ١٩٣٦، ولم يتذكره الكاتب بوضوح إلا الآن.

«غليترنتين»، قمة، جبل رائع من سلسلة جبال «بيرا» (انظر إعلاه)؛ للأسف، قد لا أتسلقه أبداً مرة ثانية، ١٤٩.

«غوردن»، انظر «كرومهولز».

«غرادوس»، «جاكوب»، ١٩١٥ ــ ١٩٥٩؛ يلقب بـ«جاك دوغري»، «دو غراي»، «دارغوس»، «فينوغرادوس»، «لينينغرادوس»، الخ.؛ رجل مهمات صغيرة وقاتل، ١٢، ١٧؛ قتل الأشخاص خطأ، ٨٠؛ تزامن اقترابه مع اشتغال «شايد» على القصيدة، ١٢٠، ١٣١؛ انتقاؤه ومحنه الماضية، ١٧١؛ الخطوة الأولى في رحلته من «أونهافا» إلى «كوبنهاغن»، ١٨١، ٢٠٩؛ إلى باريس، ولقاؤه بـ«أوسوين بريتويت»، ٢٨٦؛ إلى جنيف، وحديثه مع «غوردن» الصغير في فيلا «جو لافاندر» قرب «ليكس»، ٤٠٨؛ اتصاله بمقر القيادة العامة من جنيف، ٤٦٩؛ ورود اسمه في صيغة بديلة، وانتظاره في جنيف، ٥٩٦؛ إلى «نيس»، وانتظاره هناك، ٦٩٧، لقاؤه بـ«إزومرودوف» في «نيس» واكتشافه عنوان الملك، ٧٤١؛ من باريس إلى نيويورك، ٨٧٣؛ في نيويورك، ٩٤٩ (١)؛ صباحه في نيويورك، رحلته إلى «نيوواي»، إلى الجامعة، إلى شارع «دالويتش»، ٩٤٩ (٢)؛ الخطأ الفادح الأخير، ١٠٠٠.

«غريف»، مزارع جبلي كهل ووطني «زمبلي»، ١٤٩.

«غريندلوود»، مدينة جميلة تقع شرق «زمبلا»، ٧١، ١٤٩.

مكان الاختبار، «بوتاينيك» (انظر أدناه).

«هودينسكي»، مغامر روسي، توفي سنة ١٨٠٠، يعرف أيضاً باسم «هودينا»، ٦٨١؛ أقام في «زمبلا» بين ١٧٧٨ و١٨٠٠؛ مؤلف منتخبات مشهورة وعاشق الأميرة (الملكة لاحقاً) «ياروغا» (انظر أدناه)، والدة «إيغور» الثاني، وجدّة «ثورغوس» (انظر أدناه).

«إيغور» الثاني، حكم بين سنتي ١٨٠٠ ــ ١٨٤٥، ملك حكيم ومجبول على فعل الخير، ابن الملكة «ياروغا» (انظر أدناه) ووالد «ثورغوس» الثالث (انظر أدناه)؛ كان ثمة قسم خاص جدّاً من رواق الصور في القصر، لا يدخله سوى العاهل الحاكم، لكن بمقدور أي يافع فضولي أن يقتحمه بسهولة عبر العريش «ب»، يحتوي على تماثيل الغلمان الأربعمائة المفضلين عند «إيغور»، برخام وردي، وعيون زجاجية مركبة، وتفاصيل ترميم متنوعة، ومعرض رائع لموضوعات محاكاتية وأعمال فنية رديئة، أهداه الملك في وقت لاحق لطاغية آسيوي.

«الملك»، انظر «تشارلز» الثاني و»كينبوت».

«كاليكسهافن»، مرفأ بحري غني بالألوان يقع على الساحل الغربي، على بعد بضعة

أميال شمال «بلاويك» (انظر أعلاه)، ١٧١؛ ذكريات سارة عديدة.

«كينبوت»، «تشارلز»، الدكتور، صديق «شايد» الحميم، ومستشاره الأدبي ومحقق قصيدته وشارحها؛ اللقاء الأول بـ«شايد» وصداقتهما، التوطئة؛ اهتمامه بالطيور في «أبالاتشيا»، ١؛ ملتمسه الكيّس من «شايد» لتوظيف قصصه، ١٢؛ تواضعه، ٣٤؛ عدم توفره على مكتبة في الكهف التيموني، ٣٩؛ إيمانه بإلهام «شايد»، ٤٢؛ بيته في شارع «دالويتش»، نوافذ بيت «شايد»، ٤٧؛ تناقض الأستاذ «هـ» وتصحيحه، ٦١، ٧١؛ قلقه وأرقه، ٦٢؛ الخريطة التي رسم لفائدة «شايد»، ٧١؛ حسه الفكاهي، ٧٩، ٩١؛ اعتقاده أن مصطلح «إريديول» من ابتكار «شايد»، ١٠٩؛ تعبه، ١٢٠؛ أنشطته الرياضية، ١٣٠؛ زيارته قبو «شايد»، ١٤٣؛ وثوقه من استمتاع القارئ بالتعليق، ١٤٩؛ ذكريات الصبا وقطار «الشرق السريع»، ١٦٢؛ التماسه من القارئ مراجعة تعليق لاحق، ١٦٩؛ تحذيره الهادئ لـ«غ.»، ١٧١؛ ملاحظاته حول النقاد والنوادر الأخرى التي حبذها «شايد»، ١٧٢؛ مشاركته في بعض الاحتفالات في أماكن أخرى، منعه من حضور حفلة عيد ميلاد «شايد» بعد عودته إلى البيت، وحيلته الماكرة صباح اليوم الموالي، ١٨١؛ علمه بمرحلة «الروح الشريرة» عند «هازل»، ٢٣٠؛ من هو المسكين؟، ٢٣١؛ محاولاته الفاشلة في إبعاد «شايد» عن موضوع التاريخ الطبيعي وإخباره بالعمل الجاري، ٢٣٨؛ تذكره الأرصفة في مرفأي «نيس» و«مونتون»، ٢٤٠؛ ملاطفته البالغة نحو زوجة صديقه، ٢٤٧؛ معرفته المحدودة بالحشرات ذات الأجنحة الحرشفية والكآبة السمورية في طبيعته الملحوظة مثل فراشة «فانيسا» سوداء ذات إشراقات فاقعة، ٢٧٠؛ اكتشافه خطة السيدة «شايد» لتهريب «شايد» إلى «سيدارن» وقراره الذهاب إلى هناك أيضاً، ٢٨٨؛ موقفه من البجع، ٣١٩؛ أُلْفَته مع «هازل»، ٣٣٤، ٣٤٨؛ ذهابه مع «شايد» إلى المكان الكثير الأعشاب حيث ينتصب الإسطبل المسكون، ٣٤٧؛ اعتراضه على موقف «شايد» المتطاول على مجايلين مشهورين، ٣٧٦؛ ازدراؤه الأستاذ «هـ.» (غير وارد في الفهرس)، ٣٧٧؛ ذاكرته المرهقة، ٣٨٤؛ لقاؤه بـ«جاين بروفوست» وفحص اللقطات الجميلة على ضفاف البحيرة، ٣٨٥؛ نقده قسم الأبيات الممتد من ٤٠٣ إلى ٤٧٤، ٤٠٣؛ سره الذي حدسه «شايد»، أو لم يحدسه، إخباره «شايد» عن «ديزا»، ورد فعل «شايد»، ٤١٧؛ مناقشته حول التحامل مع «شايد»، ٤٧٠؛ نقاشه الانتحار مع نفسه، ٤٩٣؛ دهشته عند إدراك أن الاسم الفرنسي لشجرة كئيبة هو نفسه الاسم «الزمبلي» لشجرة أخرى، ٥٠١؛ استنكاره بعض المقاطع البذيئة في القطعة الثالثة، ٥٠٢ (٢)؛ آراؤه في الخطيئة والعقيدة، ٥٤٩؛ أمانته التحريرية وبؤسه الروحي، ٥٥٠؛ ملاحظاته حول طالبة وحول عدد وطبيعة الوجبات المشتركة مع آل «شايد»، ٥٧٩؛ بهجته ودهشته في اجتماع عجيب لمقطعين لفظيين في كلمتين متجاورتين، ٥٩٦؛ قوله المأثور في القاتل والقتيل، ٥٩٧؛ كوخه الخشبي في «سيدارن» والصياد الصغير، وهو فتى ذو بشرة عسلية، متجرد من لباسه إلا من سروال رث، مطوية إحدى ساقيه، يكثر من أكل الجوز والبندق، لكن المدرسة كانت حينها قد انطلقت أو تغيرت أحوال الطقس، ٦٠٩؛ ظهوره في بيت آل «هـ.»، ٦٢٩؛ نقده اللاذع للعناوين المقتبسة، من العاصفة، الخ.، مثل «نار شاحبة»، الخ.، ٦٧١؛ حسه الفكاهي، ٦٨٠؛ تذكر وصوله إلى بيت السيدة «أودونيل» الريفي، ٦٩١؛ إعجابه برباعية موسيقية وشكوكه حول تأليفها المزعوم، ٧٢٧؛ اشمئزازه من شخص يتودد (إلى امرأة)، ثم يخون قلباً طيباً وبريئاً، روايته قصصاً فظيعة حول ضحيته وملاحقته بنكات قاسية، ٧٤١؛ عدم قدرته، بسبب حاجز نفسي ما، أو الخوف من «غ.» ثانٍ، على السفر إلى مدينة لا تبعد

سوى بستين أو سبعين ميلا، حيث كان سيجد مكتبة جيدة، ٧٤٧، رسالته يوم ثاني أبريل ١٩٥٩، إلى سيدة خبأتها بين كنوزها في فيلَّتها قرب «نيس» عندما سافرت ذلك الصيف إلى روما، ٧٦٨؛ القداس الديني في الصباح والتجول في المساء مع الشاعر الذي تحدث أخيراً عن عمله، ٨٠٢؛ ملاحظاته حول الإعجاز المعجمي واللغوي، ٨٠٣؛ استعارته مجموعة من رسائل «إ. فـ. لاين»، من مالك النزل، ٨١٠؛ اقتحامه الحمام حيث كان صديقه جالسا يحلق
في الحوض، ٨٨٧؛ مشاركته في مناقشة بقاعة الأساتذة حول شَبَهه بالملك، وقطيعته النهائية مع «إ.» (غير وارد في الفهرس)، ٨٩٤؛ كان هو و»شايد» يهتزان ضحكاً بسبب حكايات في كتاب جامعي للأستاذ «س.» (غير وارد في الفهرس)، ٩٢٩؛ إشارته الحزينة إلى التعب والعتاب، ٩٣٧؛ تذكره بوضوح محاضراً شاباً في جامعة «أونهافا»، ٩٥٧؛ لقاؤه الأخير بـ«شايد» في تعريشة الشاعر، الخ.، ٩٩١؛ تذكره اكتشاف البستاني العارف، ٩٩٨؛ محاولته الفاشلة لإنقاذ حياة «شايد»، ونجاحه في إنقاذ المخطوط، ١٠٠٠؛ ترتيبه نشره دون مساعدة «خبيرين»، التوطئة.

«كوبالتانا»، كان في يوم ما منتجعاً جبليّاً معاصراً قرب أنقاض بعض الثكنات القديمة، وبات الآن مكاناً بارداً ومقفراً يصعب الولوج إليه ولا يكتسي أي أهمية، لكن مازالت العائلات العسكرية وأهل القصور الغابوية يذكرونه، وهو غير وارد في النص.

«كرونبورغ»، جبل صخري متوج بالثلوج به فندق مريح، يقع بسلسلة «بيرا»، ٧٠، ١٣٠، ١٤٩.

«كرومهولز»، «غوردن»، ولد سنة ١٩٤٤، وهو موسيقي عبقري ومؤنس ظريف؛ ابن شقيقة «جوزيف لافاندر» الشهيرة، «إلفينا كرومهولز»، ٤٠٨.

«لاين»، «فرانكلين نايت». محام ورجل دولة أمريكي، ١٨٦٤ ــــ ١٩٢١، مؤلف نبذة متميزة، ٨١٠.

«لاس»، انظر «ماس».

«لافاندر»، «جوزيف س.»، انظر «أودونيل»، «سيلفيا».

«مايل»، انظر «وورد غولف».

«ماندیفیل»، «بارون ميرادور»، ابن عم «رادومير ماندیفیل» (انظر أدناه)، وهو عالم تجريبي، ورجل مجنون وخائن، ١٧١.

«ماندیفیل»، «بارون رادومیر»، ولد سنة ١٩٢٥، رجل عصري ووطني «زمبلي»؛ في سنة ١٩٣٦، أصبح وصيف عرش الملك، ١٣٠؛ في سنة ١٩٥٨، متنكرا، ١٤٩.

«مارسيل»، الشخصية المركزية العصابية، المزعجة، غير الجديرة بالتصديق على الدوام، يدللها الجميع في رواية «بروست» بحثا عن الزمن المفقود، ١٨١، ٦٩١.

«ماروفسكي»، تحريف بدائي، مأخوذ من اسم دبلوماسي روسي عاش في أوائل القرن التاسع عشر. الكونت «كوماروفسكي»، اشتهر في البلاطات الأجنبية بلفظ اسمه بطريقة خاطئة: «ماكاروفسكي»، ماكارونسكي»، «سكوموروفسكي»، الخ.

«ماس»، «مارس»، «ماير»، انظر «مايل».

«مولترابورغ»، انظر «بيرا».

«نياغارين» و»أندرونيكوف» «خبيران» سوفياتيان مازالا يبحثان عن كنز مدفون، ١٣٠، ٦٨١، ٧٤١؛ انظر جواهر التاج.

«نيترا» و»إندرا»، جزيرتان توأمان في عرض شرم «بلاويك»، ١٤٩.

«نودو»، أخ «أودن» غير الشقيق، ولد سنة ١٩١٦، ابن «ليوبولد أودونيل» و»زمبلية» تنتحل شخصية فتى؛ غشاش وخائن حقير، ١٧١.

«أوديفالا»، مدينة رائعة تقع شمال «أونهافا» في «زمبلا» الشرقية، كانت في السابق مقر رئاسة بلدية «زول» («رخ الشطرنج») «بريتويت» النبيل، العم الأكبر لـ»أوسوين بريتويت» (راجع أعلاه، راجع أعلاه، كما تردد الغربان)، ١٤٩، ٢٨٦.

«أودن»، الاسم المستعار لـ»دونالد أودونيل»، ولد سنة ١٩١٥، ممثل ذو شهرة عالمية ووطني «زمبلي»؛ يعلم من الملك بالممر السري، لكن عليه أن يخرج إلى المسرح، ١٣٠؛ يقود الملكَ بالسيارة من المسرح إلى سفح جبل «ماندیفیل»، ١٤٩؛ يلتقي بالملك قرب مغارة مطلة على البحر ويهرب معه في زورق، الإحالة السابقة؛ يخرج فيلما سينمائيا في باريس، ١٧١؛ يمكث مع

«لافاندر» في «ليكس»، ٤٠٨؛ يتحتم عليه ألا يتزوج تلك الممثلة ذات الشفتين الغليظتين والشعر المهمل، ٦٩١؛ انظر كذلك «أودونيل»، «سيلفيا».

«أودونيل»، «سيلفيا»، اسمها «أوكونيل» عند الولادة، ولدت سنة ١٨٩٥؟ ١٨٩٠؟ والدة «أودن» (راجع المدخل السابق) الكثيرة الترحال والمزواجة، ١٤٩، ٦٩١؛ بعد زواجها من والد «أودن»، رئيس الكلية «ليوبولد أودونيل» وطلاقها منه سنة ١٩١٥، تزوجت «بيتر غوسيف»، أول دوق على «رال»، وشرفت «زمبلا» حتى نحو سنة ١٩٢٥ عندما تزوجت أميراً شرقيا التقت به في «شامونيكس»؛ بعد عدد كبير من الزيجات الفاتنة إلى حد ما، كانت بصدد الطلاق من «ليونيل لافاندر»، ابن عم «جوزيف»، عندما ظهرت آخر مرة في هذا الفهرس.

«أوليغ»، دوق «رال»، ١٩١٦ ــ ١٩٣١، نجل العقيد «غوسيف»، دوق «رال» (ولد سنة ١٨٥٥، مازال نشيطا)، رفيق الملك المحبوب في اللعب، مات في حادث تزلج، ١٣٠.

«أونهافا»، عاصمة «زمبلا» الجميلة، ١٢، ٧١، ١٣٠، ١٤٩، ١٧١، ١٨١، ٢٧٥، ٥٧٩، ٨٩٤، ١٠٠٠.

«أوتار»، الكونت، رجل عصري ذو ميول جنسية مغايرة، ووطني «زمبلي»، ولد سنة ١٩١٥، صلعته، عشيقتاه القاصرتان «فلور» و»فيفالدا» (التي أصبحت لاحقاً الكونتيسة «أوتار»)، ابنتا الكونتيسة «دو فايلر» النحيفتان، مؤثرات ضوئية مثيرة، ٧١.

«بابورغ»، انظر سلسلة «بيرا».

«باين»، دوق، شعار، ٢٧٠؛ انظر «ديزا»، ملكتي.

القصائد، قصائد «شايد» القصيرة: الشجرة المقدسة، ٤٩؛ الأرجوحة، ٦١؛ المنظر الجبلي، ٩٢؛ طبيعة الكهرباء، ٣٤٧؛ بيت من مطر أبريل، ٤٧٠؛ بيت من الجبل الأبيض، ٧٨٢؛ الرباعية الافتتاحية من قصيدة الفن، ٩٥٧.

«بوتاينيك»؛ «تاينيك» (انظر أدناه).

الدين: الاتصال بالرب، ٤٧؛ البابا، ٨٥، حرية الفكر، ١٠١؛ مشكلة الخطيئة والعقيدة، ٥٤٩؛ انظر الانتحار.

كهوف «ريبليسن»، كهوف مطلة على البحر في «بلاويك»، سميت باسم صانع زجاج شهير أدمج لعبة النقاط والدوائر وغيرها من الانعكاسات الدائرية على مياه البحر الزرقاء الضاربة إلى الخضرة في نوافذه الزجاجية المخضبة الاستثنائية المعدة للقصر، ١٣٠، ١٤٩.

«شايد»، «هازل»، ابنة «شايد»، ١٩٣٤ ــ ١٩٥٧؛ تستحق احتراماً كبيراً، إذ فضلت جمال الموت على قبح الحياة؛ شبح المنزل، ٢٣٠؛ الإسطبل المسكون، ٣٤٧.

«شايد»، «جون فرنسيس»، شاعر ودارس، ١٨٩٨ ــ ١٩٥٩؛ اشتغاله على نار شاحبة وصداقته مع «كينبوت»، التوطئة؛ مظهره الجسدي، تكلّفاته، طبائعه، الخ.، الإحالة السابقة؛ مناوشته الأولى للموت كما تصورها «كينبوت»، وشروعه في القصيدة بينما «كينبوت» يلعب الشطرنج في نادي الطلبة، ١؛ جولاته عند الغروب رفقة «كينبوت»، ١٢؛ اعترافه الغامض حول «غ.»، ١٧؛ منزله كما يراه «كينبوت» من خلال النوافذ المضاءة، ٤٧؛ شروعه في القصيدة، وإتمامه القطعة الثانية، ونحو نصف الثالثة، وزيارات «كينبوت» الثلاث خلال تلك المراحل الزمنية، الإحالة السابقة؛ والداه، «صامويل شايد» و»كارولين لوكين»، ٧١؛ تأثير «كينبوت» كما يراه في صيغة بديلة، ٧٩؛ «مود شايد»، شقيقة والد «شايد»، ٨٦؛ «شايد» يطلع «كينبوت» على تذكار آلي للموت، ١٤٣؛ «كينبوت» حول نوبات إغماء «شايد»، ١٦٢؛ «شايد» يشرع في القطعة الثانية، ١٦٧؛ «شايد» متحدثا عن النقاد، شكسبير، التربية، الخ.، ١٧٢؛ «كينبوت» يتابع وصول ضيوف «شايد» في يوم عيد ميلاده وعيد ميلاد «شايد»، و»شايد» يكتب القطعة الثانية، ١٨١؛ تذكره مخاوفه على ابنته، ٢٣٠؛ رقته، أو حذره، ٢٣١؛ اهتمامه المفرط بالحيوانات والنباتات المحلية، ٢٣٨، ٢٧٠؛ تعقيدات زواج «كينبوت» مقارنة مع يسر زواج «شايد»، ٢٧٥؛ «كينبوت» يلفت نظر «شايد» إلى أثر فاتح اللون يعبر سماء الغروب، ٢٨٦؛ خشيته من مغادرة «شايد» قبل إنهاء تأليفهما المشترك، ٢٨٨؛ انتظاره «شايد» عبثاً يوم ١٥ يوليوز، ٣٨٨؛ جولته مع «شايد» عبر حقول «هانتسنر» المهجورة وإعادة بنائه استكشافات ابنة «شايد» في الإسطبل المسكون، ٣٤٧؛ نطق «شايد»، ٣٦٧؛ كتاب «شايد» حول البابا، ٣٨٤؛ نقمته على «بيتر بروفوست»، ٣٨٥؛ اشتغاله على الأبيات ٤٠٦ ــ ٤١٦ المتزامنة مع أنشطة «غرادوس» في سويسرا، ٤٠٨؛ حذره مجددا، أو مراعاته، ٤١٧؛ رؤيته المحتملة فيلا «ديزا ودوقة «باين» الصغيرة رفقة مربيتها الإنجليزية، ٤٣٣؛ إدماجه الظاهر بين مادة «ديزا» ووعد «كينبوت» بالكشف عن حقيقة أخيرة، الإحالة السابقة؛ آراء «شايد» حول التحامل، ٤٧٠؛ آراء «كينبوت» حول الانتحار، ٤٩٣؛ آراء «شايد» و»كينبوت» حول الخطيئة والعقيدة، ٥٤٩؛ كرم الضيافة المبهم عند «شايد» وبهجته بطبخ خالٍ من اللحوم في بيتي، ٥٧٩؛ شائعات حول اهتمامه بطالبة، الإحالة السابقة؛ إنكاره جنون مدير محطة، ٦٢٩؛ نوبته القلبية المتزامنة مع وصول «كينبوت» المثير إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ٦٩١؛ تلميح «كينبوت» إلى «شايد» في رسالة إلى «ديزا»، ٧٦٨؛ جولته الأخيرة مع «شايد» وفرحته بعلمه أن «شايد» منهمك بجد على تيمة «الجبل» ــ سوء فهم مأساوي، ٨٠٢؛ لعبه الغولف مع «شايد»، ٨١٩؛ استعداده للبحث عن مراجع لـ»شايد»، ٨٨٧؛ دفاع «شايد» عن ملك «زمبلا»، ٨٩٤؛ حبوره وابتهاج «كينبوت» بالهراء الوارد في كتاب مدرسي صنفه الأستاذ

«س.»، وهو طبيب نفسي وخبير أدبي (!)، ٩٢٩؛ شروعه في الحزمة الأخيرة من الجذاذات، ٩٤٩؛ كشفه لـ»كينبوت» بإتمام مهمته، ٩٩١؛ وفاته برصاصة مصوبة إلى شخص آخر، ١٠٠٠.

«شايد»، «سيبيل»، زوجة «شايد»، إشارات هنا وهناك.

«شاداوز» (الظلال)، تنظيم يقتل الملوك، كلف «غرادوس» (راجع أعلاه) باغتيال الملك الذي اختار المنفى؛ لا تجدر الإشارة إلى اسم زعيمها المرعب، حتى في فهرس العمل الغامض لأي دارس؛ جدّه الأكبر من جهة أمه، وهو معماري متمكن ذائع الصيت وشجاع للغاية، استأجره «ثورغوس» المتورم، في نحو سنة ١٨٨٥، ليجري بعض الإصلاحات على مسكنه، وسرعان ما اختفى بعد ذلك، إذ مات مسموماً في المطابخ الملكية، في ظروف غامضة، رفقة ثلاثة بنائين متدربين شباب، حفظت أسماؤهم الأولى «يان» و»يوني» و»أنجيلين» في أغنية شعبية ما تزال تسمع في بعض وديانتا البرية.

«شالكسبور»، بارون «هارفار»، يعرف باسم «كوردي باف»، ولد سنة ١٩٢١، وهو رجل عصري ووطني «زمبلي»، ٤٣٣.

«شتاينمان»، «يوليوس»، ولد سنة ١٩٢٨، بطل في كرة المضرب ووطني «زمبلي»، ١٧١.

«سودارغ أوف بوكاي»، صانع زجاج فذ، القديس راعي «بوكاي» في جبال «زمبلا»، ٨٠؛ مدى حياته غير معروف.

الانتحار، رأي «كينبوت» فيه، ٤٩٣.

«تاينيك»، روسيا، مكان سري، انظر جواهر التاج.

«ثورغوس» الثالث، يلقب بـ«المتورم». جد الملك، توفي سنة ١٩٠٠ في الخامسة والسبعين، بعد حكم فاتر طويل، يعتمر قبعة إسفنجية مبطنة، ويتوج سترته «جايغار» بميدالية واحدة فقط. كان يحب ركوب الدراجة في المنتزه؛ بدين وأصلع، أنفه أشبه ببرقوقة كبيرة، شاربه العسكري منفوش بشغف قديم، يتدثر بمنامة من الحرير الأخضر، ويحمل شعلة في يده المرفوعة، اعتاد على اللقاء بخليلته المقنعة «إريس أخت» (راجع أعلاه)، كل ليلة، في فترة قصيرة من أواسط الثمانينيات (القرن التاسع عشر)، في منتصف الطريق بين القصر والمسرح في الممر السري التي سيكتشفه حفيده في وقت لاحق، ١٣٠.

«تينتارون»، زجاج نفيس أزرق داكن، يصنع في «بوكاي»، وهو مكان تأسس في القرون الوسطى، ويقع في جبال «زمبلا»، ١٤٩؛ انظر أيضاً «سدوارغ».

الترجمات الشعرية: من الإنجليزية إلى «الزمبلية»، ترجمات «كونمال» لأعمال شكسبير، «ميلتن»، «كيبلينغ»، الخ.، المشار إليها، ٩٦٢؛ من الإنجليزية إلى الفرنسية، من «دون» و»مارفيل»، ٦٧٨؛ من الألمانية إلى الإنجليزية و»الزمبلية»، «إرلكونيغ» (ملك شجر الحور)، ٦٦٢؛ من «الزمبلية» إلى الإنجليزية، تيمون الأثيني، ٣٩؛ «إلدر إيدا»، ٧٩؛ «ميراغارل» (فتاة السراب) لـ»أرنور»، ٨٠.

«أوران» الأخير، إمبراطور «زمبلا»، حكم بين ١٧٩٨ و١٧٩٩؛ عاهل مترف، وقاسٍ، ولامع على نحو لا يصدق، دفع سوطه المُصَفِّر «زمبلا» إلى أن تغزل مثل خدروف قزحي؛ أعدمته ذات ليلة جماعة موحدة من المحسوبين على شقيقته، ٦٨١.

«فانيسا»، «دو ريد أدميرابل» (الباهرة الحمراء) («سيمبسيموس»)، استدعاؤها في القصيدة، ٢٧٠؛ ترفرف فوق حاجز في تلة سويسرية، ٤٠٨؛ في رسم كاريكاتوري، ٩٤٩؛ ترافق خطوات «شايد» الأخيرة خلال الغروب، ٩٩٣.

الصيغ البديلة: الشمس والقمر السارقان، ٣٩ ــ ٤٠؛ تخطيط المشهد الأولي، ٥٧، فرار ملك «زمبلا»، (مساهمة «كينبوت»، ثمانية أبيات)، ٧٠؛ «إيدا» (مساهمة «كينبوت»، البيت الأول)، ٧٩؛ شرنقة «لونا» الميتة، ٩٠ ــ ٩٣؛ أطفال يعثرون على ممر سري، (مساهمة «كينبوت»، أربعة أبيات)، ١٣٠؛ الشيخ «سويفت» المسكين، المسكين... (تلميح ربما إلى «كينبوت»)، ٢٣١؛ «شايد»، الظل، ٢٧٥، «فريجينا وايتس»، ٣١٦؛ رئيس شعبتنا، ٣٧٧؛ حورية صغيرة، ٤١٣؛ بيت إضافي من البابا (تلميح ربما إلى «كينبوت»)، ٤١٧، رماد «تاناغرا» (حالة رائعة من المعرفة المسبقة)، ٥٩٦؛ من أمريكا هذه، ٦٠٩ ــ ٦١٤؛ تغيير التفعيلتين الأوليين، ٦٢٩، محاكاة البابا، ٨٩٥ ــ ٨٩٩؛ عصر بائس، وروايات اجتماعية، ٩٢٢.

شمعية الأجنحة، طيور من جنس الـ»بومبيسيلا»، ١ ــ ٤، ١٣١، ١٠٠٠؛ «بومبيسيلا شادي»، ٧١؛ تداعٍ مهم أدركه متأخرا.

نوافذ، التوطئة؛ ٤٧، ٦٢، ١٨١.

كلمة الغولف، ولع «شايد» بها، ٨١٩؛ انظر «لاس».

«ياروغا»، الملكة، حكمت بين ١٧٩٩ و١٨٠٠، شقيقة «أوران» (راجع أعلاه)؛ غرقت في حفرة جليدية، رفقة عشيقها الروسي خلال احتفالات السنة الجديدة الموروثة، ٦٨١.

«بييسلوف»، مدينة جميلة، مقاطعة وأسقفية، تقع شمال «أونهافا»، ١٤٩، ٢٧٥.

«زمبلا»، بلاد شمالية نائية.

---

(59) في النص المترجم، قد لا تتطابق بعض هذه الإحالات مع الأرقام الواردة في النص الأصلي، بالنظر إلى التغيرات التي فرضها بناء الجملة العربية خلال الترجمة (المترجم).